

العدد ١١٩ — اغسطس ١٩٥٧ — ١٠ م

كتب للجميع

أغسطس ١٩٥٧

اعصار من الشرق

ثروت عكاشة

تصدر عن :
دار التحرير للطبع والنشر

الغلاف والرسوم الداخلية

مصطفى حسين

كلمة الكتاب

بقلم : احمد حمروش

وعاد الهدوء من جديد

كانت الحياة يسودها الهدوء ، الشمس تشرق على الحقول وبها زرع وورود وزهور ، وفلاحون يعملون فى الارض من أجل محصول جديد ، وفى المدينة كان الناس يسعون الى الرزق ، الامن يسعد القلوب والامل يخلق أحلام فجر سعيد .

وتغرب الشمس بعد يوم حافل من العمل ، ويركن الناس الى دورهم ، الفقير مع أسرته والغنى مع لهوه وكأسه ، وتسرى فى الليل أصداء أغنيات عذبة رقيقة .. النجوم تلمع كأمنيات العذارى والقمر يضىء السماء ..

وفى يوم كئيب ظهر الظلام عند الافق البعيد ، وأخذ الاعصار يهدر فى صخب ، ويقترب ..

وضاع من البحر الهدوء .. وتحولت الزرقة الصافية الى جبال من الامواج السوداء العاتية .

انكمشت الورود ، وذبلت الزهور ، وجمد الزرع الاخضر رعبا من الاعصار .. وفرت الماشية من الحقول .

وبقى الانسان ..!

جابه الانسان الاعصار المدمر .. اعصارا من البشر أسلحته تلمع تحت ضوء الشمس ، الايدى ملوثة بالدماء ، والقلوب تنبض برغبة القتل والاعتداء ، والقائد مجنون يهوى رؤية الانسان جثة يلوثها التراب وتأكلها الوحوش والغربان .

جابه الانسان الاعصار الذى يحمل للحياة الخراب .. ويسدل الظلام ويشيع الفوضى والخوف والانهيار ..

جابه الانسان فى القرى الآمنة والمدن الهادئة اعصار المغول وعلى رأسهم جانكيز خان المحارب الطاغية .

وفى الكتاب قصة الاعصار منذ بدأ يتجمع ، وحين اكتسح الدول وأخذ معه الامن والهدوء والامل ، ثم خاتمة الاعصار وقد تبدد وانكشف الظلام عن نور جديد .. وعن الانسان يمضى فى طريق الحياة .

وهكذا العدوان فى كل زمان .. بدايته طاغية وخاتمته مريرة ..

ومن تاريخنا الطويل عبر الأجيال نقرأ دائما قصة هزيمة المعتدين وانتصار الانسان ..

وفى حاضرنا .. وفى مصر ، مررنا بالتجربة وخضنا المعركة ، معركة طويلة قاسية مع المستعمرين الذين احتلوا أرضنا واستغلوا شعبنا ، وجعلوا من أنفسهم سادة فى أرض لا يملكونها ، ووصلت المعركة قمتها يوم قاومنا العدوان الثلاثى المسلح فى القاهرة والاسكندرية وسينا وبورسعيد وفى كل بلاد مصر .

وفى أيام هذا العدوان انبثقت قوة شعبنا الكامنة ، وبدا عملاقا يدافع عن أرضه أمام اعصار هجم من البر والبحر والفضاء .

وكانت الكلمة الاخيرة فى المعركة هى الانتصار ..

وانتصار شعبنا فى بورسعيد ، منع الكارثة عن شعوب العرب ، وعن شعوب تناضل الاستعمار فى آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية ، فان الشعوب جميعا تخوض اليوم معركة واحدة ضد الاستعمار عدوها وعدو الحياة .

ان هذه الانتصارات هى وقع أقدام خطانا فى طريق الزمن ، وعلينا أن نظهرها لنهتدى بها فى حياتنا ..

وما بين اعصار المغول واليوم تاريخ حافل طويل .

من أجل هذا صدر كتاب «أعصار من الشرق» ليروى لنا قصة العدوان والظلم فى تاريخ الانسان ويبرز لنا صورا رائعة من المقاومة والتضحية ، ويؤكد دور « كتب للجميع » فى خدمة الثقافة الجادة المضيئة .

والكاتب « ثروت عكاشة » أمضى أياما طويلة يدرس هذه الفترة المظلمة من التاريخ ، ينقب فى أحداثها ليضىء لنا اليوم تراثا خالدا ، لن تغمض عنه عيون المكافحين .

وثروت عكاشة من أحرار الضباط الذين تلتهب

حياتهم بالحماسة والجرأة والوطنية ، يندفع دائما مع الحق ولا يتخلف عن الجماهير .. وهو مايلمسه القارىء فى كل الصفحات ، وما تؤكده مقدمة الكتاب ..

وبذا تحقق كتب للجميع هدفا من أهدافها ، وهو أن تجتذب الى صفحاتها الكتاب الاحرار الذين يدافعون عن الحق والحياة ويناضلون دائما من أجل مستقبل أفضل .

ولعلنا بذلك ندعم صلتنا بالقارىء ونضاعف حلقات القراء ..

●●

اننا نأمل أن يلتقى حول صفحات « كتب للجميع » كل الذين يؤمنون بالانسان ، الذين يقاومون فى بسالة ظلام الاعصار وظلم المعتدين ، الذين يعيشون حياتهم بأمل دائم فى فجر جديد ، يشرق بالحب والصفاء ، ويزدهر بالحرية والسلام .

اننا ننشر دائما الكتب التى نعتبرها معالم الطريق .. معالم الطريق نحو حياة تزدهر فيها الحقول بالزرع والورود .. ويبتسم فيها الاطفال وتطمئن القلوب وينتصر الانسان .

أحمد حمروش



إهداء

إلى الضمير الحيّ ...
في أعماق كل إنسان

مقدمة

أذكر وأنا بصدد اخراج كتاب « اعصار من الشرق » الطبعة الثانية لكتاب « جنكيز خان » ذلك اليوم الذى لقينى فيه الرئيس جمال عبد الناصر فى مستهل عام ١٩٥٢ مبتسما ، وبيده تعليق احدى الصحف على الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، ومشيرا الى نقد المحرر اللاذع لمقدمتى التى أشرت فيها الى « أن الحرب شرعة الحياة وسمة الكون ، واننا لن نستطيع التخلص من شرورها ولن نقدر على الفرار من أضرارها » ..

كان النقد مرا ولاذعا ، ولم يكن موجها لصاحب السيرة بقدر ماهو موجه للمؤلف .. مما جعلنى أدال لصديقى كيف أن الناقد قد فاته الانصاف فقرأ المقدمة دون بقية الكتاب ، وانى قد قدمت سيرة الخان بخيرها وشرها ، حقيقتها ومفترياتها ، وانى ماسقت تلك السيرة على ذلك النحو حبا لصاحبها ، ولا عرضتها على تلك الحال بغضا فيه .. ذلك ان صاحب السيرة لا يهمنى بقدر مايهمنى استكناه الحكمة من أحكامه ، واستنباط المعرفة من فعاله . لقد كنت أستنبط من سيرته مؤهلات الزعيم المحنك ، والحاكم الحازم فى وقت كانت مصر فيه مفككة الاوصال ، منشقة الاحزاب ، مضطربة الاهواء حتى كثر الطامعون فيها ، فراحت تتلمس الزعيم فلا تجده . ومن ثم أهديت السيرة الى الشباب ، وحاولت من خلالها أن أرسم صورة لانطلاق شعب متحد تحت راية زعيم ، عندما كانت مصر كلها تبحث عن الوحدة وعن الراية .. وعن زعيم !

وفى لحظات بالذات من حياتنا قد يدفعنا الاخلاص واليأس الى الايمان بأشياء ربما غيرناها بعد ذلك حين تتغير الظروف التى ولدت هذا اليأس وخلقت ذلك الايمان ..

هذه واحدة ،وأخرى فاتت الناقد اذ ذاك فقد جاء على لسانى فى خاتمة الكتاب :

« مالنا نحكم على أولئك البدائيين بالوحشية والقسوة مع جهالتهم وبداوتهم ، ولا نحكم على التدمير المطلق الذى أصاب مدن ألمانيا واليابان خلال الحرب العالمية الثانية نفس الحكم رغم انتشار مبادىء الرحمة والانسانية ، ورغم كثرة الكلام عن حقوق الانسان وجمعيات السلام والقوانين الدولية فى هذه الايام ! »

الى أن قلت « ان الحرب فى عهد المغول هى الحرب فى عهد الامم المتحدة غرضها الاول والاخير هو ابادة البشر وتدمير روح الانسان المعنوية والمادية وان اختلفت آلة الحرب ، ففى عهدهم الجواد والدرع والسهم ، وفى عهدنا الطائرة والدبابة والقذيفة الذرية .

والواقع أنهما متشابهان : كلاهما وحشية ، أو ترى هل هناك صفة أخرى يمكن اطلاقها على فضيحة هيروشيما ونجازاكى ؟! »

ولست هنا بصدد الرد على الناقد ولا الدفاع عن صاحب السيرة بعدما بينت فيما سبق هدفى من اخراج هذا الكتاب ، ولكنى أود أن أقرر بعد مضى هذه السنوات الخمس التى انسلخت من عمرى بكل تجاربها ، أود أن أقرر حقيقة لا مراء فيها وهى أن مثيرى الحروب جميعا .. وكل السفاحين الذين يعيشون على الموت ، من نابليون وهتلر الى ايدن ومولية ، كلهم بلا استثناء قادة عصابات مضرجة الأظفار بدم البشر، أغاروا على الحضارة وحطموا المثل الانسانية ارضاء لنزعات الشر والظلم الكامنة فى نفوسهم المريضة .. ولا أخال جنكيز خان الا من تلك الزمرة ، وان كان ينتصف له البعض فيقولون انه خرج من بيئة بداثية قاسية فاستوحى سلوكه من عنفها وقسوتها ..

وعندما صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب كنت معجبا بحركة جنكيزخان التى كونت أمة متحدة . واليوم أصدر هذه الطبعة الثانية وقد تحققت لشعوبنا العربية وحدة رائعة تحت راية القومية العربية .

اليوم ... بعد تغير الظروف ، أشعر بالرثاء لجنكيزخان ..
وللوحدة التى أنشأها على الجماجم ، وأعتز بوحدة شعوبنا التى تشدها
الاعصاب وتنطلق تحت راية الحياة والسلام والحب ..

وأنا أهدى هذه الطبعة لشعوبنا التى تصـــنع الحياة والتاريخ ..
وتستطيع بإرادتها ووعيها ونضالها أن تحمى السلام والحب .. وكل
القيم الفاضلة فى عصرنا .

القــاهرة فى ٧ يونية ١٩٥٧

ثروت عكاشــه

مع المغول



منذ سبعمائة من الأعوام ، فى أقصى الشرق فى صحراء الجوبى القاحلة وبين هضابها الشاهقة التى لا تتطاول السحب الى قممها فتسبح خفيضة متئدة من حولها ، وتعصف الريح الصر بسطحها ، وتلهب الشمس صخورها ، حيث تمتد الفيافى آلى أبعد الحدود فلا مدن ولا بلدان ولا شجر ولا حيوان، فالأرض مجدبة الا من بعض الكلأ ، والطبيعة مقفرة الا حيثما وجدت الأنهار وآن ندر وجودها

وقل جريانها • هناك حيث تهيج الريح فيثور لها غبار يعمى العيون ويخمد الأنفاس فيضطر الانسان الى الانبطاح على الأرض حتى تمر العاصفة ويسكن الهواء وتروق السماء ، أو قد تهيج الريح فيبرق السحاب ويرعد الهواء وتبكى السماء بردا وتقذف الريح ثلجا فى تلك البقاع حيث يتطرف المناخ وبالقرب من بحيرة بيقول العظمى وما حولها من البحيرات التى تكتنفها أحراش الغاب ، ويحلق فوقها جوارح الطير التى تصعد حينا صوب الشمال وتصوب حينا نحو الجنوب ، وهى فى كل من رحلة التصعيد والتصويب تنبىء عن تقلب المناخ وتدل على اختلاف الجو ، كان قوم يعيشون هناك يرتدون جلود الحيوان ويطعمون اللبن الخاثر واللحم المجفف ، ويطلون أجسادهم بالشحم تقاة البرد القارس ولسع الريح الصر •

أولئك هم قبائل المغول الشديدة المراس ، الذين يحكمهم قانون البادية • وخضوعا لغريزة حب البقاء كانت العداوة والبغضاء متأصلة بينهم وبين أبناء عمومتهم من التتار القاطنين حول بحيرة بويور • كان الطرفان دائما على أهبة الاستعداد للقتل وسفك الدماء وكانت كل قبيلة لا تفتأ ترقب حركات عدوتها وتتجسس أخبارها وتتحفز للسطو عليها • كان التطاحن والتغالب على امتلاك المرعى والاستئثار بالخير هو الحافز لتلك الحرب الضروس •

يبدأ تاريخ المغول فى تلك القفار التى تقع الى الجنوب من بحيرة بيقول العظمى حيث تنساب ستة أنهار فى أرض صلدة جبلية يكون نهر الأنون وأنجود وكيرولون منها المنابع الرئيسية لنهر الآمو العظيم ، الذى يصب فى البحر الصينى عند أوختسك ، وأما التولا وأورهون وسلنجا فتصب فى بحيرة بيقول العظمى ، ومصدر كل تلك الأنهار هى قمم جبال كنتى خان التى تعرف أعلى قممها بجبل برهان تلك الانهار الستة هى مصدر الرى فى تلك البقعة البسيطة القاحلة من وسط آسيا الجنوبى ، وتلك هى البادية المنفسحة الأرجاء التى بدأ عليها المغول نشاطهم التاريخى المعروف حيث كانوا يتجولون بقطعان ماشيتهم وخيلهم باحثين عن المرعى حيثما كان ، وكلما تزايدت الماشية كانت الحاجة الى المرعى الوافر الخصيب أشد فكان على الرجال أن يقاتلوا ليحيوا ويكافحوا ليعيشوا ، ولقد هيأتهم

الطبيعة القاسية لكي يسلكوا تلك الحياة الفطرية الجافة من صيد وقتل وسلب ، يسرقون الطعام والشراب ويذبح بعضهم بعضا . وما كانت المراعى والخيل هى الحافز الوحيد على النزاع وسفك الدماء الذى لا حد له بل والنساء أيضا .... !

أولئك المغول هم شعب قديم الأصل عظيم الأرومة ولو حاولنا سرد تاريخه بأجمعه لاضطررنا الى الرجوع الى عدد ضخم من مجلدات التاريخ ولألزمنا بسرد تاريخ البشرية أجمع ، وهم قوم صفر الوجوه فطس الأنوف ذوو شعور سبطة غير مجعدة شديدة السواد بديعة اللمعان . أما عيونهم فمنحرفة تميل الى السواد مع الزرقة . ومع أن البشرة الصفراء هى الغالبة الا أن منهم ذوى البشرة الصفراء المشوبة بالسمرة وذوى البشرة البرونزية ، والبرونزية المائلة الى الاحمرار .

وبينما يؤكد الصينيون أنهم ينحدرون من أصل مغولى ، يدعى اليابانيون والكوريون انتسابهم لذلك الشعب العريق . أما أهل منشوريا ، فيقولون أنهم فعلا من المغول ويتشرفون بذلك الأصل الكريم الذى يشغل أبناؤه أكبر مساحة من سطح المعمورة . ويقول علماء الأجناس أن المغول من الجنس التنجوسى الذى تختلط به الدماء الايرانية ، ويدعونه الجنس الأورالتيكى وهم بدو مرتفعات آسيا الوسطى ، وينضوى تحت لواء هذا الجنس أهل التبت والشعوب اللاآرية وكذلك أهل الهند . وكلما اتجهنا غربا لمسنا مدى انتشار ذلك الشعب العتيد ، وكيف أوصلته طبيعة السيطرة المتأصلة فيه الى اتخاذ مناصب الحكم والرئاسة فى كل البلاد التى وطئتها أقدامه التى لا تكل من الضرب فى الأرض والجوس فى مناكبها . ففى فارس نرى المغولى هو رجل الحكم والادارة ، وفى الشرق الأوسط وآسيا الصغرى نجد التركى ، وهو مغولى الأصل هو صاحب السيادة والسيطرة . فالحكم التركى كان ومازال الى وقت قريب جدا سائداً فى تلك الربوع . واذا تتبعنا خطواته نجده قد توغل فى قلب أوربا حتى اصطدم بأسوار فيينا المنيعة . وفى أوربا احتفظ المغولى باسم قبيلته التى جاء بها من قفار آسيا ومازالت شهرة قبائل الهون والماجيار والبلغار يتناقلها التاريخ

حتى الآن • أما فى افريقيا فاننا نرى الحكم التركي قد شمل مساحة عظيمة فىشمالها ، مساحة ضمت مصر وبرقة وبلاد المغرب وقتا ما • ويجب أن نذكر أن للمماليك فى القاهرة تاريخ طويل ، ومعنى ذلك انتشار ذلك الجنس حتى شمل القارات الثلاث القديمة ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد فحسب بل ما كادت تكتشف القارة الأمريكية حتى وجد روادها أن سكانها الأصليين ينحدرون كذلك من أصل مغولى • ••• !

لقد كانت الطبيعة هى الحافز والمعلم الأول لذلك الشعب العتيد ، ففى تلك المنطقة المتطرفة من هيكل العالم التى تختفى مراعيها تحت مسطحات جليد الشتاء ، وتنفق مواشيها من الجوع والبرد ، يغدو القوم على روث البهائم يوقدون منه نارا تتأجج أضواؤها تارة وتخبو تارة أخرى • وحول تلك النار تجد الامراء والفقراء يأكلون ويصطلون ويسمرون •

فى ذلك الفصل القاسى البرودة الذى يشح فيه الرزق ، وتنعدم المراعى ، تهزل الماشية وينفق منها الكثير ، فيضطر القوم الى وقف الذبح حتى لا تتناقص القطعان ، وهى التى تحمل أثقالهم الى بلاد لن يبلغوها الا بشق الانفس ، فيواجهون الام الجوع والحرمان ، ولا يجدون أمامهم سوى اللبن المحفوظ فى قرب من جلود الماعز ، وكلما قارب الشتاء نهايته أشتدت الام المسغبة بالصبية والرجال ، عندئذ يقبل القوم على الاذرة يغلونها ويسدون بها رمقهم ويبعثون بها الدفء فى أوصالهم فاذا شح الغذاء ونضب معين الخير اضطر الرجال الى البحث عن الطعام ، فيحملون قسيهم ويغيرون على جيرانهم الذين قد يكون لديهم بعض الزاد وشيء من الخير ، فيقتلون ويقتلون ويسلبون وينهبون ويزرعون منابت العداوة وجذور الانتقام • وقد ينجح أطفال المغول فى سرقة بعض اللبن الخاثر المحفوظ من وراء أمهاتهم ، ولكن أنى لتلك الجرعات المختلسة أن تشفى غل أولئك الاطفال الشرهين ، فينطلقون الى الخلاء بعد أن يقتنعوا بضرورة تدبير أمر معاشهم بأنفسهم ، ينطلقون سعيا وراء الكلاب والذئاب يصيدونها ، وجريا وراء الجرذان يقتنصونها بهراواتهم أو سهام ابائهم البالية ، وبذلك يحصلون على بعض القوت وشيء من

فاذا خرج الرجال للحرب بقيت النساء والاطفال يأملون عودتهم محملين بخير ما حرموا منه طوال فصل الجوع ، ولو أنهم لا يزاولون ترتجف قلوبهم خشية أن تدور الدائرة على رجالهم أو أن تغير عليهم قبيلة أخرى فى غيبة مقاتليهم ٠

هكذا لقنت الطبيعة شعب المغول أصول الحياة ، وكذلك خلقتهم ووسمتهم بالطابع والسمة التى بها يمكنهم مواجهة مطالبها ، فاذا أقبل الربيع بوافر نعمه وجزيل خيره انقشع الغمام وسطعت الشمس ودفئت الارض ، فاخضر المرعى وشبعت الخيل والدواب وتوافر نسلها واكتنز لحمها وشحمها وجادت بألبانها بسخاء ٠٠ فى ذلك الفصل يتوافر الصيد فيخرج الرجال بأقواسهم وراء الدببة والوعول والآيل ويعودون بها محمولة خلف ظهورهم أو على أجنابهم أو مجرورة وراء خيولهم يعودون فرحين برزقهم بعد أن أضناهم الجوع وسئمت نفوسهم لحم الثعالب والكلاب ٠

وما يكاد الرجال يصلون الى منازلهم حتى يقذفوا بالصيد الى النار ويفترشوا الارض من حوله مع باقى الاسرة يروون لهم حوادث الصيد ويحدثونهم عن خبث الحيوان ودهائه ، وبين الفينة والفينة تعلق النساء بكلمة ، ويسأل الاطفال أسئلتهم المضحكة تارة والمغلقة تارة أخرى ، فاذا تم الشواء ونضج اللحم امتدت أيدى الرجال الاشداء فاقتطعت أغلظ اللحم وأسمنه ، وتخاطف الاطفال أنصبتهم وتلمست النساء بعض ما يلذهن من اللحم والدهن ٠ أما العظام فان الكلاب تعدو نحوها حيثما ألقيت ثم تنتحى تعرقها بنهم عظيم

وأما منزل الاسرة فقبة من اللباد السميك مرفوعة على قوائم من الغاب المشدود بعضه الى بعض بضفائر مجدولة من اللحاء بدقة ومهارة ٠ بينما يتوسط تلك القبة مصطلى تعنى النساء ببقائه متقدا دائما ٠ وفي أعلى القبة فجوة يخرج منها زفير النار والناس ، وقد طليت القبة من الداخل بالجص الابيض وحليت برسوم ونقوش تبين عقائد القوم الدينية وخرافاتهم وأساطيرهم المتعلقة بالروح المسيطرة على الكائنات فتبعث فيها الخير والشر ٠ وبجوار تلك الصور والرسوم علقت أسلحة الرجال ودروعهم من الجلد المقسى وأقواسهم

ورماحهم ، ومعظم ما سلبوه من سلاح جيرانهم أو اشتروه من تجار المسلمين الوافدين من الغرب •

والعجيب فى أمر تلك القبة أنها على ضخامتها من الميسور نقلها ، فاذا ما همت القبيلة بالرحيل من منزلها رفع الرجال تلك القباب ووضعوها فوق عربات مستطيلة تجرها عشرات الثيران • وكانوا يسمون تلك العربات « اليرت » وهو مسكن متنقل تحتفظ فيه الاسرة بكنوزها وثروتها التى سبق أن نهبت فى الحرب أو سلبت من قوافل التجار ، فكنت تجد فى اليرت سجاجيد بخارى وفضة الصين فى صناديق موشاة بالحرير الى جانب الثياب الحريرية المطرزة والمصنوعة فى البلاد الاسلامية ، وكل ما يلزم النساء من أدوات الزينة والحلى والخضاب واذا ما تم تثبيت القباب على العربات وشدت اليها بطريقة تجعلها تصمد للاعاصير وتقاوم أشد الريح ، ووضع بالعربة كل ما تملك الاسرة من سلاح وأدوات وأثاث حتى بقايا حطب الموقد ، ربط الرجال محور العربة التالية فى مؤخرة العربة المتقدمة ، وهكذا حتى يتم ربط العربات كلها كل اثنين أو ثلاث يشدها عدد من الثيران فى العربة المتقدمة ، ومن ثم يصيح المنادى معلنا بدء تحرك القافلة فتسير متأرجحة وئيدة وقد تألفت من صرير العجلات وضجيج العربات ونهيق البهائم ونبح الكلاب وصوت المزمار سمفونية رائعة تحت سماء صافية وجو بديع فوق أرض سندسية منبسطة لا نتوء فيها ولا عوج ، ولا يمنع البصر من الوصول الى الافق البعيد عود شجر • تسير القافلة وقد اكتنفها المحاربون من الرجال الاشداء وسبقها الفرسان من الشبان يتقدمون الموكب ويحرسون أجنابه من مسافات بعيدة •ولقد علمتهم قسوة الحروب أن يظلوا ممتطين جيادهم ثلاثة أيام دون أن يحلوا سروجها أو يتبلغوا بطعام

أما الاولاد فعليهم صيد الاسماك من المستنقعات والجداول التى يمرون بها ، كما عليهم مطاردة الذئاب ورعى الماشية والخيل ورد ما شرد منها ، هذا بالاضافة الى واجبهم الغريزى الذى يجعلهم مسلطين حدقاتهم دائما صوب الافق البعيد أو فوق قمم الجبال ، بيقظة وانتباه خشية غارات أعدائهم الغادرة •

وعلى الرغم من تلك الواجبات والمسئوليات الملقاة على عاتق

الكبار والصغار على السواء ، فما كان اللهو بالشيء النادر بينهم ، فكثيرا ما كانوا يتنافسون على السبق بالخيل والمبارزة بالسيف، والمصارعة التي تتحطم خلالها الضلوع وتتفكك منها الأوصال فاذا شربوا أسرفوا في الشراب وانطلقوا يتقاذفون أقبح الالفاظ ويتنابذون بالالقاب •

أما النساء فكن بالاضافة الى واجباتهن العاديه من تنظيف الخيمة وترتيبها وغسل الاوانى وطهى الطعام ، كن الى جانب ذلك يصنعن النعال ويرتقن الثياب ويجهزن الأباد لصنع القباب ويحلبن الابقار ويصنعن اللبن المجفف •

ويصف المؤرخون والباحثون فى مجلدات التاريخ الصعوبة التى يلاقونها فى سبيل الوصول الى حقيقة الاحداث وصدق القصص المغولية ، وما كان تسلسل سرد الحوادث هو الصعوبة الوحيدة التى يشكو منها الباحث فى تاريخ المغول ، بل ان خرافاتهم وعقيدتهم فى الروح والشياطين والقوى الخفية قد تسربت الى جميع الحوادث ، وكانت فى كثير من الاحوال هى سبب الغموض المطلق والابهام التام فى تفسير أسباب الوقائع وتعليل الامور ، ولقد جاء فى تاريخ المغول من السير والقصص والاحداث مايكاد يوصف بالمعجزات •

غير أنه وصل الى علمنا فيما وصل عنهم أن مغول « يكا » كانوا يتمتعون فى عهد كابول خان العظيم بالسيطرة التامة على شمال الجوبى ، وبوحى طبيعتهم وبحكم بيئتهم استولوا على أفضل المراعى الممتدة من بحيرة بيقول العظمى حتى جبال خنجان الواقعة على حدود منشوريا • وكانت الارض فى تلك البقعة من برارى آسيا تغطيها الاعشاب بغزارة ، أما شتاؤها فمحتمل وقطعان الماشية فيها أكثر لحما وأغزر شحما من الماشية التى ترعى فى القفار الجنوبية •

كانت تلك البقعة الواقعة عند نهر الانون والكيرولون غنية بمروجها الواسعه وجبالها التى تغطيها أشجار البتولا والتوت ، والحياة فيها أرغد ، والقنص أيسر • وكانت نساء تلك القبائل يصنعن أوتار القسى والدروع من جلود الابقار وينسجن اللبد من أصوافها ويجهزن الرماح من عظامها •

وكان كابول خان العظيم يعلم ما جبلت عليه تلك القبائل من خلق خبيث وطبع لئيم ، فبعد أن أنزل عليها بطشه وأشعرها بسطوته ترك كل قبيلة حرة مستقلة فى أرضها واشترط عليها أن تقدم كل منها عشورا سنوية ثابتة من الخيل والماشية نظير حمايته لهم وسهره على الدفاع عنهم ٠

وورث الزعامة من بعد كابول خان يسوجاى الحكيم الداهية الذى بسط سلطانه وبطشه بدوره على مغول يكا ٠ وكانت العداوة متمكنة بينه وبين قبائل التايدجوت القاطنين حول بحيرة بويور ، وهم قبائل قوية ، أهل حرب وخدعة ، فكان كل من الطرفين ينتظر الوقيعة بخصمه ويرقب حركاته ويترصد له الفرص للاغارة عليه وابادته ٠

وذات يوم بينما كان يسوجاى يتريض على شاطىء الانون بجواده حاملا صقره على ذراعه ، رأى يك شلاو من قبائل المركيت المعادية عائدا الى قومه مصطحبا عروسه الحسناء هولون ٠ لمح يسوجاى الزوجين وقد وقفا يستقيان من النهر ، واذ راح يتأملهما أخذ بجمال العروس وسحرته فتنتها ، فانطلق عائدا الى قومه ليخبر أخويه بالقصة ، فهب الثلاثه عائدين الى يك شلاو وعروسه بجوار النهر ، وقد بدت على وجوههم دلائل الشر ٠ وما كاد العروسان يشاهدان الفرسان الثلاثة حتى أدركا سوء المصير من قتل وسبى ، فاستحث المركيتي جواده عله يفلت من أعدائه أو يجد له منهم مخبئا ، ولكنه أحس من أعدائه العزم على الشر فعاد الى اليرت يسأل عروسه عله يجد عندها مخرجا من ورطتهما ولكنها نزعت قميصها وقذفته اليه وراحت تناشده بحق السماء أن يسرع فينجو بنفسه وأن يطلق اسمها على عروس أخرى ، ووعدته ان هى نجت فلابد لاحقة به ٠ وقبعت العروس فى ركن العربة تندب حظها العاثر وتنوح على طالعها السيء ، أما بعلها فقد تناول القميص ولكز جواده وأسرع لا يلوى الا على النجاة ، واستمر الاخوة الثلاث يطاردون المركيتى العاثر الحظ دون جدوى ٠ فلما يئسوا من المطاردة عادوا الى العروس وهى تنتحب ، فصاح بها أحد الاشقاء أن تكف عن البكاء خاصة وقد فر بعلها وليس من المحتمل عودتها اليه ، وأقنعها

بالتوجه معهم بعد أن أغراها بمـا ستجده عندهم من العز والمنعة • وما كانت هولون لتنقصها الحكمة ولا رجاحة العقل ، فرأت أن تساير الظروف ما دام هناك رجل مكـان رجل ، وخضعت للامــــر الواقع وعادت معهم مستسـلمة حيث تزوجت من يسوجاى • ولم تكـد تمضى بضعة شهور على هذا الزواج حتي أغار الزعيم على قبائل المركيت التى تنتمى الى سلالة أهل التندرا الاشداء والتى كانت تتأهب للاخذ بالثأر والانتقام للزوج المغبـون والعروس الاسيرة • وعاد يسوجاى غانما فى نفس الليـلة التى أنجبت له هولون فيها مولودا ذكرا ، عاد ومعه عدد من الاسرى من بينهـم الزعيم تيموجن •

تيموچين



سرت البشائر بانتصار الزعيم يسوجاى على أعدائه قبل وصول المقاتل العظيم وفرسانه الى مدينة القباب بجوار جبل دليجون بولداك وفرح القوم بعودة المقاتلين وبما جلبوه معهم من الأسلحة والماشية والخيل والأسرى الا بعض نسوة فى المدينة قد شغلن عما يشتغل فيه القوم من الحديث عن النهب والقتل بشأن يتعلق بالحياة ، ذلك أن صاحبتهن هولون زوجة يسوجاى قد اعتراها ما يعترى النسل عند الولادة ، وأصابها ما يصيبهن عادة من الألم والأوجاع،

ومع ذلك فلم يفتهن حديث الحرب ولم يغب عنهن ما يجب أن يعلمن عن أخبار النصر والغنيمة ·

وصل المقاتلون يتقدمهم الزعيم العظيم الذى لم يكد يفرغ من حفلات التكريم حتى بلغه نبأ وصول أول وليد له من زوجه هولون ، فأسرع نحو قبتها ، وهناك روت له النساء أنباء الولادة والمولود ، وذكرن له فيما ذكرن أن الولد انفلت من بطن أمه وأصابعه مطبقة على كتلة من الدم القاتم المتجمد · وسر الوالد الزعيم بالوليد الجديد وأطلق عليه من فوره اسم أسيره الزعيم تيموجن · وهنا نعود الى ما قدمنا ذكره من أنه من الصعوبة التخلص من الخرافات التى أحاطت ولابست تاريخ المغول ، وكذلك من العسير أن نقبل خرافاتهم ونردها الى علاتها ، غير أنه مما يسر ولا يضر ذكر تلك الخرافات كما وردت فى كتب المؤرخين ·

وفى لغة المغول تعنى كلمة « تيموجن » أمتن الصلب ، ولقد طابقت تلك التسمية الوليد ، فقد كان مكتنز اللحم متين التركيب وبقى كذلك حتى بلغ الشباب فأصبح مفتول العضل قوى التركيب شديد المراس والبأس ·

ظل الوليد فى أحضان أمه ترعاه حينا وتشغل عنه حينا حتى اذا بلغ الفطام تغذى على ألبان الخيل والماشية ، وشغلت عنه أمه بأخ له بدأ ينمو بين أحشائها · درج الطفل فى وسط القبة وهو يستمع الى قصص الحرب وأسباب القتال وأخبار النهب وطرق السلب والخرافات الدينية ، وتعلم بطريقة التقليد والمحاكاة تقاليد القبيلة ، فلما استطاعت قدماه أن تحملاه الى خارج المضارب والقباب كلف بحراسة الخيل ورعى الماشية واستكشاف المراعى وحل السروج وسقى الحيوانات ، وكلما درج فى النمو زادت المسئوليات الملقاة على عاتقه والواجبات التى يجب عليه أن يؤديها فكان عليه مراقبة الأفق خشية هجوم الاعداء ، وكان ذلك يعنى بقاءه مع رفاقه على حافة الجبل ليالى الشتاء القاسية وسط عواصف الثلج العنيفة ، دون جمرة تدفىء أكفهم أو مصطلى يبعث الدفء فى أوصالهم كذلك علمته مطالب الحياة أن تبقى خيله مسرجة أياما وليالى كما يفعل القوم ، وعودته الحادث أن يحتمل آلام الجوع والحرمان بضعة أيام

كان لتيموجن منذ ولادته قـوة بدنية خارقة ، ولقـد تميز منـذ صباه برجاحة العقل والمهـارة فى تدبير الأمور والقدرة على تجهيز الحملات • وكان كثيرا ما ينخرط فى حلبات سباق الخيـل وقذف السهام وحلقات المصارعة ، وكان يبدى فى كل ذلك مهارة وقـوة احتمال عظيمتين ، ولم يكن أمهر منه فى قذف السهام سوى شقيقه كاسار الذى كان يشعر بأنه أمهر من أخيه الأكبر الا أنه كان يخاف بطشه وسعة حيلته وقدرته على انزال الهزيمة بخصمه والفتك به •

وما كانت للمغول مدارس ولا د ور للعلم كما كان لجيرانهم المسلمين فى القرن الثالث عشر • كلا ، فما كانت بهم حاجة اليها • لقد كانوا قوما عمليين لا يؤمنون الا بالأمر الواقع من خير أو شر وهزيمة أو نصر وقتال أو استعداد له •

كانت الحياة ومازالت مدرسة العباقرة ، وفيها تعـلم تيموجن الزعيم الجبار ، وأى مدرسة كانت أقدر فى تعليمها وأكفأ فى مرانها من الحياة المغولية البدائية وطبيعتها القاسـية المتقلبة ؟ لقد تضـافرت عوامل الطبيعة ونظام الحياة عنـد قبائل المغول على تدريبه واكمال النقص فى تعليم الحاكم العاتى • أما الطبيعة فقد منحته من قوتهـا وقسوتها قـوته وقسـوته ، وأما الحياة فقد خبرته بأنواع الرجال ودربته على الانكماش حين الضعف وعلى البطش حين القوة ، ولقنتـه ألا حياة لضعيف ولا عيش لمغلوب، فكانت تنزع دائما أبدا الى تنمية قواه العقليـة والبـدنية • ورغم انخراطه فى تلك الأعمال العنيفة والألعاب الخشنة الا أنه مع ذلك كان يميل الى الاستماع الى قصص المنشدين ويطرب لأغانى المطربين، وكثيرا ما كان ينعزل متأملا جمال المراعى الخضراء أو الجبال المختلفة الألوان ويتملى بمنظر قـوس قزح بعد هطول الأمطار • كان يعشق الجمال ، جمال الطبيعة وجمال الغناء وجمال النساء شأنه فى ذلك شأن العباقرة هؤلاء الناس الذين ميزهم الله برجاحة فى العقل ورقة فى الحس وقدرة شاملة على انجاز ما يعجز عامة الناس عن انجازه •

وكان ينصت الى منشدى القبيلة وهم يرددون عـلى ربابهـم قصص الأقدمين والسالفين ، فكان يسمع ويستزيد الاسـتماع كلما ذكر

المنشد أن تيموجن وأباه ينحدران من سلالة ممتازة هي سلالة « البورشكيون » أو ذوى العيون الرمادية ، تلك السلالة التى كانت تنتسب الى الآلهة • وقد يعترض معترض على ذلك القصص ، ولكن اعتراضه يزول اذا علم أن أولئك المغول كانوا ومازال بعضهم الى الآن يزعمون تناسخ الروح من الفرد الى الآخر ، فان كان خيرا تقمصت روحه شخصا خيرا كذلك فتنسلخ منه بعد وفاته لتتقمص شخصا أخير منه ، وهكذا تظل الروح تتسامى حتى تقترب من روح الآلهة نفسها ، تلك هى العقيدة ، ولسنا بصدد مناقشتها ولا بصدد رفضها أو قبولها ،ولكن على أساس تلك العقيدة كان تيموجن ورجال أسرته ونساؤها وأطفالها وشيوخها مؤمنين بانتسابهم وبالتعالى على غيرهم من القبائل•وماكانت تلكالإنشودةهي الوحيدة التى أثارت مشاعر الصبى اليافع ، بل كذلك تلك الاقصوصة التى رتبت كلماتها فيما يشبه الارجوزة حتى يمكن ترديدها وتلحينها بما يلتذ له السمع وتطيب له الافئدة ، تلك الاقصوصة التى ادعى فيها منشدها ان جد تيموجن كابول خان العظيم قد جذب امبراطور الخطا من ذقنه محتقرا اياه على سطوته وجبروته وسعة ملكه •

وكانت النتيجة ان انتقم الامبراطور الذليل من كابول خان بأن دس له السم فلقى حتفه جزاء وفاقا • أما عمه طغرل خان فان المنشد يروىأنه كان زعيم القرايطة الذين هم أشد بدو صحراء الجوبى قوة وبأسا وأكثرهم حنكة وبطشا فاذا كان أبوه يسوجاى ، وعمه طغرل خان ، وجده كابول خان ، وسلالته تنسب الى الالهة ، فقد جمع تيموجن بين يديه كلا الدنيا والدين ، فهو زعيم كالزعماء ، واليوم آت آت ذلك الذى سيرى فيه نبوءة هذا المنشد تتحقق وتصبح أمرا واقعا •

وما كان تيموجن لينفق وقته مع المنشدين فحسب ، بل هناك حكماء القرية ، وهم شيوخ حنكتهم التجارب وبلغتهم أخبار الدول المجاورة وحفظوا الرواية والسير ، وهم يلقنونها من يرغب العلم ويستطيب المعرفة ، وكان هو أحد هؤلاء الراغبين ، يقصد مجالسهم ويأخذ عنهمويحاورهم فيستزيد من العلم ويستكثر من المعرفة •

ولقد قال حكيم القرية فيما قال وهو يحاور تيموجين « ان بلادنا مهما اتسعت رقعتها فلن تبلغ جزء من مائه من أرض الخطا • أما السر الذى جعلنا قادرين على العيش الى جوار تلك البلاد حتى الان فهو كوننا قوم رحل نحمل متاعنا وزادنا أينما توجهنا ، وقد أكسبتنا الظروف خبرة حربية وسعة ، فنحن اذا تمكنا غزونا ، وغنمنا ، واذا عجزنا توارينا واختفينا • أما اذا بدأنا نشيد البلدان ونقيم المدن تغيرت عاداتنا وطباعنا القديمه التى توارثناها عن أسلافنا الامجاد ، ولن تقوم لنا بعدها قائمة ولا تنسى يا بنى أن الاديرة والمعابد تورث وداعة الاخلاق وتدعو الى لين الخلق وتحبذ الرقة والهدوء ، مع أنه لن يسود البشر غير المقاتل القوى »

من مثل تلك الاقوال والحكم والمواعظ كان المغول يتخذون دستورهم فى الحياة وناموسهم فى المعيشة •

وكلما درج تيموجن مدارج الشباب استشعر القوة الدافقة بين جوانحه وأحس بحقه الكامل فى الزعامه من بعد أبيه يسوجاى خان يكا ، خصوصا بعد أن أفنى صباه فى خدمة الخيل وحراسة الافق ورعى الماشية وسن الاسلحه ، وبعد أن أصاب من العلم والمعرفة بمطالب الحرب وظروفها ما لم يصبه شاب مثله ، هذا بالاضافة الى قوته البدنية الخارقة ومهارته فى المصارعه • أدرك أبوه مهارة الشاب وحسن استعداده وفرط حميته وذكائه ، فاصطحبه فى ركبه يوما ، وكان منظرا فريدا خلابا اذ كان الوالد على فرسه والولد من خلفه فارع الطول عريض الكتف مفتول العضل • قد لفحت الشمس وجهه الغليظ الكثير التجاعيد والمطلى بطبقة من الشحم تقاة البرد القارس والريح اللاذع ولقد كان للفح الشمس وشدة الريح المحمله بالرمال السافية أثر على أجفان المغولى الشاب فاحتقنت جفونه حتى صارتا كهالتين حمراوتين تحيطان بعينيه المتباعدتين ذات اللون الرمادى المائل الى الزرقة ، واللتين استقرتا تحت جبهة عريضة مائلة ، وأما شعره الاحمر فكان مسترسلا فى جدائل طويلة وراء كتفيه ، كان منظر ذلك الشاب القوى التركيب المقطب الوجه يثير الانتباه والاعجاب ، فالشاب لم يبلغ بعد الدور الذى فيه يخرج فى ركب أبيه الزعيم ، ومع ذلك فقد اعتلى جواده واستوى فى

سرجه وبدا عليه ما يبدو على الفرسان المغاوير من سمات الرشاقة والاستهتار بالصعاب . حقا لقد كان أبوه فخورا باصطحابه فى ركبه على صغر سنه . فالشاب قد صرع أقرانه فى المصارعة وبز اخوانه فى الوثب على الخيل وفاق زملاءه فى تحصيل العلم والمعرفة وأدرك أسرار المعارك وفنون القتال .

واذ كان الفارس الشاب وأبوه يسيران ذات يوم بين مضارب قبيله أولهونود لزيارتهم وربط صلات الود بينهم قابلتهما عجوز بباب قبتها فسألت يسوجاى عن غرضه ، ولما أخبرها قالت له « ألا ان لك لولدا صبوح الوجه براق العين مهيب المنظر ، وان له فى الحياة لشأنا . لقد رأيت فى منامى البارحة أن صقرا أبيض يحمل الشمس والقمر قد حط على رسغى .. حسبى أن الحلم قد تحقق بقدومك ومعك ولدك ، ونحن أغنياء وبناتى جميلات ويصلحن لزواج الامراء ، وأما ابنتى التى تليق بولدك فهى بورتاى الفاتنة » .

ومن ثم رفعت ستر باب القبة وأغرتهما بالدخول . ودلف الوالد وولده الى داخل القبة وتعرفا على العروس، فأعجبا بها ،ولما لمح الأب هيام الولد بالفتاة وشدة حملقته فيها حاول أن يصرفه عنها ، ولكن الولد التفت الى أبيه وسأله ان كان من الممكن أن يتخذها زوجة، فاعتذر الاب بصغر الفتاة ، ولكن الولد أعاد التفرس فى فتاته ذات الشعر المسترسل والقد المائس والوجه النضير والنهد البارز من تحت جلبابها السميك ، وأخذ يدلل على محاسنها ويتكهن بأنها ستكون نعم الزوجة عندما تكبر ويتم نموها . ولقد أثبتت الايام صدق فراسة الشاب اذ أمست بورتاى أحب الزوجات الى قلبه . ولم يسع الوالد الا أن يخلف ولده فى بيت حميه ليتعرف على خطيبته وأسرتها .

عاد يسوجاى الى قبيلته ، وفيما هو عائد بالطريق وقد قرصه الجوع وأنهكه العطش اذ مر بقباب قوم معادين له ، وكانوا فى احدى حفلاتهم الصاخبة . وكان من واجبات الادب واللياقة التقليدية عندهم أن يترجل عن جواده ويشاركهم الطعام والشراب غير أنه اثر أن يستمر فى طريقه متجاهلا الاصول المرعية ، وما كاد يبتعد حتى ألح عليه الجوع وضايقه العطش فقفل راجعا الى القوم

الذين أظهروا له المودة والترحاب بقدومه ، وكما هى عادتهم فى التخلص من أعدائهم دسوا له السم فى الطعام ، ولم يكد يغادر قباب أعدائه حتى انتابته الاوجاع وصار يئن ويتأوه حتى بلغ حدود قبابة بعد رحلة دامت ثلاثة أيام مضنية وسقط فاقد النطق موصيا أحد أصدقائه برعاية زوجه وعياله •

كان تيموجن عند حميه مونليك يرتب أمور زواجه من حبيبته الحسناء عندما فوجىء القوم بفارس لا تكاد تمس حوافر جواده الارض وهو يصيح مندفعا بين القباب مناديا تيموجن ومعلنا أن أعداء أبيه قد دسوا له السم ، وأنه يغالب النزع الاخير ويود لو يرى ولده قبل مفارقته الحياة •

قفز تيموجن الى جواده وانطلق بسرعة تسبق السهم ، والفارس الرسول فى أعقابه ، وما أن وصل تيموجن مدينة القباب أو « الاوردو » حتى وجد أباه قد فارق الحياة •

فى تلك اللحظة شعر تيموجن بثقل التركة وعظم التبعة وحرج الموقف • فقد انحلت القبيلة وتفككت الاسرة ، وتخلى عنهم الاتباع ، وتركت الام وأولادها بلا حام ، ولا معين ، وازداد الموقف خطورة بعد اجتماع زعماء العشائر والقبائل عقب وفاة أبيه واستقرار رأيهم على انتخاب رجل منهم ينصبونه زعيما على القبيلة ، فهم لا يقرون تسليم أملاكهم ودوابهم ونسائهم وأولادهم وأرواحهم لشاب غرير مثل تيموجن • لقد كانوا من قبل يخضعون لسطوة رجل جبار هو يسوجاى ، « أما الان وقد نضب معين الماء العميق وتحطمت الصخرة الصلدة فما حاجة القوم الى امرأة ضعيفة وأطفال مساكين • » كذلك قال أحد الزعماء ، وعلى أثره انفض الاجتماع وتفرقت القبائل •

لقد عمت الفوضى بين مغول يكا وانتشر الاضطراب بينهم ، فمنهم من هاجر الى زعيم أقوى يلتمس لديه الامن ، ومنهم من بقى ينتظر انجلاء الغمة وعودة النظام فيخضع لمن سيئول اليه الامر ، ومنهم من بقى مخلصا للخلف كما كان مخلصا للسلف وان كانوا قليلين •

مرت أيام شغل الشاب فيها بخطيبته حينا وبالعداء المستحكم بينه وبين قبيلته وغيرها من القبائل حينا ، وبالنزاع بينه وبين

أنداده من الشبان حينا آخـــــر ، وكثيرا ما كان يثقل عليه هم الفكر ويضنيه التفرس واستكناه عالـم الغد الخفى المخيف ، فيسـعى فى دجى الليل الى حلقة النيران حيث يجلس الى شـيوخ القبيلة فيأخـذ عنهم الحكمة ويتعلم منهم عـــله الامور وحل المشاكل ، أو يـــلم بمنشدى القبيلة الذين يسرون همه ويزيلون حزنه بمدحه وامتـــداح أجداده الامجاد بأصواتهم الجافة .

فاذا ما عاد الى قبة أمه وأخوتـه ووجدهم على حالهـــم من البؤس والفاقه ألمت به أمه الماما يســيرا وأخذت تلقى على مسـامعه عبارات الثأر والانتقام ، وتبين له مـا كان على الاصدقاء آن يفعلوه بعد وفاة أبيه وما كانوا يفعلونه فى حياتـه خشية بطشه وتزلفا الى جاهـه . كانت تروى له من القصص مـــا أشعل جذوة كرهه لاعدائه وأثار فى نفسه البغض والحقد على أولئـــك الكافرين بنعمة سيدهم يسوجاى ، الغادرين بعهود الوفاء ومواثيـــق الاخلاص لزعيمهم الراحل .



فى ذلك الوقت الخطيـــر حيث هاجر الاصحاب وغـدر الاصـدقاء وانفصل الحلفاء ، نفذت بصـــيرة تيموجن الى الاعماق ، فعـلم بوحى طبيعته أن الموقف على خطــورته والحال على شــدته ، فلابد من يوم تنصلح فيه الامور وتستقيم الاحوال وما كان تفكك القبيلة ولا غـــدر الاصدقاء بالذى يقلق باله أو يغير مجرى تفكيره ، انما هى الحاجـة الى القوة ، انما هو الافتقـــار الى الامن والطمأنينة ، انما هو الشعور

بالمسئوليه لحفظ كيان الاسـرة المكونة من أم وجملة من الاطفـال ولا عائل لهم سواه ولا حامي لهـم الاه ، فالتبعة جسـيمة والواجب شاق ، والعبء ثقيل ، فبالقـوة سينال أغراضه ويحقق ماآربه ، وأهون الامور عليه أن يلم شـعث الاسرة المفككة وتلك العشـيرة المنحلة ويلوذ بالفرار • ولكن تلك الفكرة على بساطتها لم تراود مخيلة تيموجن العنيـد بل ولم تشـغل أدنى حيز من عقله الكبير ، وانمـا كان كل تفكيره منصبا على من من الاعداء الذى سيهاجمه أولا ؟ ومتى وأين سيغير عليه ؟ كان القـلق وغموض المستقبل يقضان مضجعه وكان همه كله هو توفيـر الامن والطمأنينة لاسرته البائسة ، فكان لا يفتأ يذكر ويعدد أعداءه القدامى وخصومه الجدد ، وكان لا يمسى الا مفكرا فى الوقت الذى سيغير عليه أعداؤه فيه ، وكم من الرجـال والسلاح المتبقى لديه ، ومتى وكيف ينازل المغيرين والمعتـدين ؟ كانت فترة عسيرة الا على محارب أمثـل ومقاتل قدير ، فحتى أولئك الذين ظلوا على ولائهم للزعيم احترامـا لابيه وجده ورضاء بالامر الواقـع كانوا مترددين بين التعاون معـه أو الاستقلال بأنفسهم ، حتى هؤلاء المستضعفين امتنعوا عن تقديـم العشور التقليـدية من الدواب وانتشروا فوق رؤوس الجبـال يرقبون الافق خشية اغارة الاعداء، واستعدوا للرحيل عند أول تهديد

كانت أمه واخوته يعيشون فى فقر ومسغبة ، ويحيط بهم جـو مسمم بالعداوة والكراهية • ومـع ذلك راح الزعيم الناشىء يعد نفسه للواجب الضخم ألا وهو الدفاع عن أمه وأخوته ولم شـعث الاسرة وحمايتها واسترجاع مركزه الحقيق به وحقه المسلوب منه ، غير أنه حدث فى ذلك الوقت أن **خـرج تيموجن** وشـقيقه كاسار لصيد السـمك من نهر أنون المجاور برفقة أخوتهما غير الاشقاء بايكتار وبلجوتاى أبناء يسوجاى من زوجة أخرى ، ومـا كاد تيموجن يمسك بسمكة ضخمة حتى انتزعها منه بايكتار وبلجوتاى فذهب تيموجن مع كاسار الى أمه وقال شاكيا « أماه ، لقد اصطدت اليوم سمكة ضخمة أخـذها منى بايكتار وأخوه » فقالت الام « ولماذا تتنازعون وما جدوى الخصـام ؟ فصحابنا اليوم قليل وأحبـاؤنا ندرة وقد تخلى الجميع عنا ، ولـم تعد اليوم غير ظلالنا تلازمنـا ، وليس بوسعنا بعد ، أن نقهـر

أعداءنا التايدجوت ، فاذا كان الامر كذلك ألا ترون معي أن الاتحـــاد قوة والاتفـاق غنيمة حتى نحـرز الغلبة على الخصوم ؟ »

استاء تيموجن من رد أمه فقـد كان يتوقع منها أن تنتصر لـــه وتقتص له من بايـكتار المعتدى ، واذ خذلته رد قائـــلا « بالامس أصبت طائرا استولى عليه بايكتار واليوم سطا مع شقيقه على سمكتي أيضا ، فاذا كان هذا دأبهما معى فكيف العيش معهما والتعاون مع أمثالهما ؟ »

وما كاد يفـــرغ من رده حتى انسحب مع أخيه غاضبا ، واذ بلغا الجبل شاهدا بايكتار يرعى الخيل فتسلل تيموجن من الخلف وزحف كاسار من الامام ، وحينما فطـــن بايكتار الى وجودهما كان كلاهمـا يصوب سهمه تجاهه فصاح فيهما مناشدا « وحق السماء إن كنتما تبغيان قتلى فاحقنـــا دم أخى ولا تقتلاه » ثم جلس القرفصاء منتظرا مصيره فأفلت تيموجن وكاســار سهميهما فخر صريعا لتوه • وعند عودتهمــــا الى هولون أدركت من ملامحهما ما حدث فصـــاحت فى تيموجن مؤنبه « أقتلت أخاك ؟ لا عجبَ أن يصدر ذلك الفعل عنك ، فقد ولدت وملؤ قبضتك حفنة من الدماء • مثلك مع أخيك كالـكلاب الجائعة تنقض على كل ما تلقـاه ، والأفاعى تزدرد ما يقـابلها حيا ، والذئاب تنهش ما تصـــادفه حتى خلال العاصفة • ان الجـرح الذى أحدثه بنا التايدجوت لم يندمل بعد يا تيموجن ، أما كان الاولى أن توجها تلك السهام الى صدور عدوكم ؟ »

ولـكن أنى لهولون أن تعلم أن ولدها تيموجن ما كان ليمتنع حتى عن قتل شقيقه كاسار اذا كان ذلك يدنيه من تحقيق أطماعه ، فهو من بدء حياته حتى نهايتها كان يتخلص من أعدائه بنفس السـهـولة التى يلقاها المدرس اذ يتناول خرقة يمحو بها ماعلق بالسبورة من حروف وأرقام

كان حلمه الاول القضـــاء على التايدجوت ولذلك كان عليـــه أن ينظم عائلته ويكبح جماحها ويدربها اذ كان واجبه الاول هو اعـــداد مملكته الصــغيرة أعنى أسرته • هكذا تميز تيموجن بوحدانيـــة الهدف وقوة الشكيمة وصـــلابتها بل بالحكمة اللازمة لبناء امبراطورية

ذلك النوع من الحكمة الشبيه بغريزة النحل اذ ينشيء خليته وببصيرة العصفور اذ يجمع المواد اللازمه لبناء عشه ٠

لقد استهل تيموجن مجده عمليا وياله من استهلال ، استهله بأن صوب سهم أخيه الشقيق الى صدر الاخ غير الشقيق فأصبح فيأفقه الضيق سيدا دون منازع ، ولكم حاول كاسار الذى اشتهر « بسيد القوس » أن ينازعه تلك السيادة فذهبت محاولاته أدراج الرياح ، فأنى لكاسار المحدود الافق الضيق التفكير أن ينازع ذكاء تيموجن الوقاد ومكره المتأجج !!!

ولعل أعسر ما واجه تيموجن فى تلكالفترة هو ظهور تارجوتاى زعيم قبيلة التايدجوت أشد خصومه حقدا عليه ، ومناداته بنفسه خانا على كل مرتفعات الجوبى وهضابها وما كان بوسع تيموجن المسكين أن يتفادى الضربه ولا كان بوسعه الصمود لها ٠

وكان تارجوتاى قد استعد لذلك اليوم من قبل ، اذ راح يؤلب العشائر على تيموجن ويثير أتباعه عليه ، واحتضن منهم من احتضن واشترى ضمائر من اشترى ثم انقض على مدينة القباب التعسة وزعيمها الشاب انقضاض الوحش

دب الذعر فى مدينة القباب وكذلك فى مخيم هولون وأولادها البؤساء اذ لمحوا فى الافق جمعا من الفرسان ومقاتلى التايدجوت يسرعون الخطو ويثيرون النقع متقدمين نحو مدينتهم ٠ وفى لمح البصر دبر تيموجن أمر الفرار من الخطر الداهم ، وأسرع يقود الاسرة نحو شعاب الجبل ، وهناك اختفى فى أحد الكهوف ولم يعثر له على أثر ٠ خرج تيموجن من مخبئه فى أحد كهوف الجبل وتوجه الى قرص الشمس عند المغيب وعلق نطاقه فى عنقه وأخذ يضرب صدره تسع مرات وبعد كل مرة ينحنى تضرعا وخشية للآلهة خالقة السماوات والارواح ، وبعد أن ابتهل الى السماء صب شيئا من اللبن على الارض ونذر نذره الكبير ، « لقد أنقذ الجبل حياتى المتواضعة ولسوف أقدم قرابينى هنا وأولادى من بعدى » ٠ أما بلجوتاى فقد أخفى الاسرة خلف ربوة وأخذ يقطع الاشجار بطريقة علمتها له الحياة ، وجعلها تسقط في طريق الفرسان حتى تعطلهم ، بينما اتخذ كاسار

« سيد القوس » ركن الربوة حصنا يرسل منه سهامه القاتلة على العدو الزاحف ٠

وراح تارجوتاى يبحث عن مخبأ الاسرة ، وقد أرجعته سهام ولدها كاسار وما كاد يلمحها حتى صاح « انما أريد تيموجن فحسب ، أسلمونيه فأرحل ٠ » واذ أعلنت الاسرة أن سيدها غير موجود بينهم وأنهم لا يعلمون مستقره ، حاصرت جموع التايدجوت شعاب الجبل تسعة أيام خرج بعدها الزعيم واهن القوى من الجوع والظمأ وأسلم نفسه لعدوه وللاقدار ، وما كاد يقبض على تيموجن حتى وضع أعداؤه فى عنقه نيرا ثقيلا وقيدوا رسغيه ، وسار الزعيم الذى انتفت عنه صفة الزعامة حينذاك خلف الفرسان المنتشين بالنصر والغنيمة ومن ورائهم جموع الدواب التى سلبها أعداؤه من قبيلته ٠

مكث تيموجن فى سجنه تحت حكم آسرية مقيد الحركة منقطع الاسباب ، غير أنهم لم يستطيعوا تقييد فكره القداح ولا سلبوه عقله الدائب العمل ، فراح يفكر فى أسرته ، وكلما أمعن فكره وخياله فى حالهم وما أصابهم من ذلة وهوان بعد مصرع والده العظيم ، وحرمانهم من حمايته وانقطاع أسباب الرزق عنهم كلما قويت لديه الرغبة فى اللحاق بهم ، ومن ثم أصبح دائب اليقظة ، يراقب حركات حراسه وسكناتهم متحينا فرصة الهرب ، مترقبا لحظة الفرار ، غير مبال بما سيصيبه اذا هم اكتشفوا نيته المبيتة ، ولم يمكث غير قليل حتى سنحت له الفرصة فى أحد أعيادهم ٠ فقد مضى القوم الى الاحتفال وتركوه لحارسه الوحيد ٠ واذ أقبل الليل ولف المعسكر فى الظلام ، وانتشى القوم بالخمر غافل المغولى الصغير حارسه ، وضربه بالنير فصرعه لتوه وفر هاربا متسربلا بالظلام ، غير أنه ما كاد يبتعد عن القباب حتى بزغ القمر مرسلا شعاعه الفضى على الغابة ٠ فأخذ الهارب الكسير يلجأ من مخبأ الى اخر اذ شعر بأعدائه يتابعونه بعد أن اكتشفوا جرمه ثم قذف بنفسه الى جدول ماء ولم يهتد مطاردوه الى مكمنه بينما هو يرقبهم فى سكون وحذر عجيبين ٠ وفيما هو يرقب أعداءه فطن الى أن أحدهم قد اكتشف مخبأه وميزه جيدا ولكنه آثر التستر عليه ٠

حمد تيموجن ربه أن عاد الفرسان خائبين ، والان عليه أن

يتابع الفرار حتى يبلغ أهـــله فى أقرب وقت ، غير أنه ما زال مقيدا والنير ثقيل والقيد عسير ، وليس من المحتمل أن يسير دون أن يراه أحد أعدائه فيفشى سره أو يشى به • وتجلت بعض فطنته وسرعة خاطره وجسارته التى تكاد توصف بالجنون فقد قدر أن ذلك الفـــارس الذى تستر عليه يمكن الاعتماد والالتجاء الى عونه ، فخرج من مكمنه متابعا الفرسان على مخيمهم ولمح المحارب الذى أنقذه داخلا قبة عاينها جيدا وما كاد الفرسان يتفرقون ويشغلون عن المطاردة والحرب بمشـــــاغلهم الخاصة حتى تسلل الى خيمة ذلك الرجل ووقف وعيناه تبديان ما فى قلبه من استجداء واستعطاف ، غير أن الرجل ملأه الرعب وسرت فى بدنه الرعدة وكاد يهم بالصـــياح للنجدة ، الا أنه عاد فتمالك أعصابه وتقدم من الاسير الكسير وأحرق النير وفك القيد ثم همس لــه « لا أخالك تجهل أنهم لو وجدوك الآن لخمدت نيران قبتى الى الابد » ثم قاده الى عربة تكدست بالصـــوف وأمره أن يختبىء فيها بعد أن زوده ببعض اللبن الخاثر والطعام وقوس وبضع سهام •

وكان القوم ما زالوا يظنـــون الاسير الصغير مختبئا فى ناحيـــة ما من المعسكر ، ففتشوا الغـــابة تفتيشـــــا دقيقا ، وكذلك أركان المعسكر والعربات والخيام وأكوام القش ومرابط البهائم ، حتى تلك العربة التى اختبأ فيها الاســـير أخذوا يفحصونها بطعن الصـــوف برماحهم مما سبب جرحا أليما فى ساق الاسير كان له أثر كبير عليه فى مستقبل حياته •

وما كاد الفرســـان يبتعدون عن العربة ، وما كادت العـــربة تنتحى ناحية حتى هب تيموجـــــن وفك جوادها وقفز اليه منطلقـــا بأقصى سرعة نحو موطنه ليجده خاليا من أهله ، فراح يبحث عن أسرته حتى وجدها مختبئة فى أتعس حـــال ، ذلك أنهم بالكاد كانوا يســـــدون رمقهم بما كانوا يصـــــطادون من أسماك النهر ، وفئران الجبـــــل ، ولم يتبق لهم سوى تسعة جياد • وحتى تلك الجياد التسع لم تلبث منذ عودة تيموجن غير قليل حتى هاجمها بعض لصـــوص التايدجوت وسرقوها جميعا عدا جـــواد كان يحمل بلجوتاى فى شعاب الجبـــل لصيد الفئران ، وباتت الاسرة وهى لا تملك غير جواد واحد ، ومعنى ذلك أنه فى حالة تهديد عدوهم لهم فان واحدا فقط هو الذى يستطيع

النجاة فوق جواده بينما يصبح الاخرون تحت رحمة المغيرين ، وليس معهم من المال أو العتاد ما يمكنهم من شراء جياد أخر • فلابد اذن من استعادة الخيول بأى ثمن وبأى تضحية • ولم يكد بلجوتاى يعود ويسمع الخبر حتى اندفع محاولا استعادة الخيول ، غير أن كاسار عارضه بشدة مدعيا أن ذلك هو واجبه وأنه كفيل بها ، وما كاد يهم بالذهاب حتى كان تيموجن قد قر قراره على أن يذهب بنفسه ليؤدى تلك المهمة الشاقة •

وتزود بقطعة من اللحم المجفف وضعها بين السرج وظهر الجواد وأنطلق فى رحلة استمرت ثلاثة أيام ، وما كانت مهرته المتقاعسة لتعينه على تلك المطاردة لا سيما أن التايدجوت كانوا يغيرون خيولهم المنهكه بأخرى جديدة نشطة بعد كل مرحلة •

فاذا كان اليوم الثالث قابل تيموجن شابا يحلب فرسا ، فسأله ان كان قد رأى بعض الفرسان يسوقون معهم أربعة أزواج من الخيل وصف له لونها وأشباهها وأخبره أنهم سرقوها منه ، فأجابه الفتى وهو يتأمل الشاب المغولى الغريب بأنه رآهم فعلا وأنه على استعداد ليدله الى الطريق وأنه كذلك على استعداد تام لمرافقته فى البحث حتى يعثر عليهم • وقدم له الفتى نفسه باسم بورشو ونزل تيموجن من على ظهر جواده ليقوده الفتى الى المرعى ثم أسرج جوادا أبيض أعطاه لتيموجن ومضى الصديقان سويا يتتبعان أثر اللصوص ، ولم يكد تيموجن يلمح خيوله الثمانية ترعى فى العشب بالقرب من مخيم التايدجوت بعد رحلة استغرقت ثلاثة أيام أخر حتى اندفع وزميله نحوها • وبسرعة فائقة ومهارة لا تسبق استخلص الصديقان الخيول الثمانية ، وساقاها أمامهما قافلين من حيث أتوا • ولكن التايدجوت تنبهوا لهما فانطلقوا من ورائهما يقودهم أحد الفرسان فوق جواد أبيض كان ممسكا بحبل ينتهى بأنشوطه محاولا القبض عليهما • وأهاب الصديق بتيموجن أن يسبقه بالخيل بينما يظل هو لتعطيل الفرسان المطاردين ، ولكن تيموجن صمم على مواصلة الفرار سويا وتابعا سيرهما حتى مالت الشمس الى المغيب • وكان الفارس يقترب رويدا رويدا حتى اذا أصبح منهما على مرمى السهم وبات تيموجن يخشى على زميله ، قفز فى الحال الى أول ربوة صادفته وأحكم سهمه

فى القوس وأطلقه على خصمه العنيد فأرداه لساعته • ولم يكد تابعوا الفارس الصريع يشهدون مصرع زعيمهم حتى لووا أعنة خيلهم ولاذوا بالفرار • واستمر الصديقان فى رحلتهما حتى وصلا قرب الفجر الى مخيم بورشو الذى راح يصف لابيه مخاطرته مع التايدجوت لمعاونة المغولى الغريب • وأكرم الاب وفادة المغولى ، وزوده بالطعام وقربة من اللبن ، وما كاد يبتعد عائدا الى أسرته حتى لحق به بورشو وأعطاه فراء من جلد السمور هدية له •

وعاد تيموجن بالخيول الثمانية الى الاسرة ، وسرى خبر جرأته ومخاطرته مسرى النار فى الهشيم وبدأ الناس يستعيدون الثقة فى الزعيم وشرعوا يعودون الى مخيم القبيلة ، وراحت شوكة القبيلة تنمو من جديد بعودة المحاربين الذين سبق أن تخلوا عنه بعد وفاة أبيه ، ومضى تيموجن يتردد على مضارب القبيلة وقبابها مطالبا رعاياه بدفع العشور التقليدية ليقدمها الى أمه • وكان فى عرفهم ان الدواب والأسلحة ملك لأصحابها أما اذا ادعى الخان ملكيتها فعليه حمايتهم من الأعداء قبل ذلك الادعاء ، فكان على تيموجن أن يثبت لهم تلك القدرة وهذه الكفاءة • وكان حادث الخيول هو أول الحوادث • وظل تيموجن يرقب من حوله من الناس وما يحيط به من أحداث بعين فاحصة وحس يقظ ونظر عميق بعيد وحكمة تامة مما جعل كل القبيلة تلتف حوله وتؤيده وتخضع لاوامره ، ومن ثم بدأت القبائل المجاورة تحس بأن عصبة تيموجن واخوته قد اشتد ساعدها ونمت شوكتها وأصبح لها من الخطورة ما يجب الحيطة منه •

وكان تيموجن لم يتردد على بيت خطيبته بورتاى منذ جاءه خبر وفاة أبيه وهو عندها ، ولقد كانت ذكراها تشغل فكره المكدود • ورغم كل تلك الاحداث الجسام كان لا يفتأ يذكر أنها ما تزال تنتظره • ولا يزال يصر على أنه لابد محتضنها يوما الى جانبه • وكانت عجلة الزمن قد دارت مع الاعوام فلفت أربعا منها ، وبورتاى قد بلغت الثالثة عشر فتكور نهداها وتجلت أنوثتها حتى تكشفت عن مفاتن العذراء الجميلة • ولقد كانت بورتاى تتسمع أخبار الزعيم الشاب الجرىء فتارة تستثيرها جرأته وفطنته وتارة يخيفها بطشه وشدته ، وأحيانا تمسى فخورة به رضية بقوته وقدرته وأحيانا تمسى ولهى عليه قلقة على مصيره

لقد انتظرت بورتاى عودة بطلها الزعيم الشاب المتقد العاطفة المتألق الفطنة من حروبه المتصلة ، ولقد كانت حيرى ، ترى هل سيرجع لها ذلك البطل الفتى أم سيولع بغيرها أم يغلبه أعداؤه الكثيرون المتقلبون ؟

ولقد عرف المغول بميلهم الشديد الى المرح والأخذ بأسباب اللهو ، ولا غرو فان صعوبة الحياة وقسوتها بما حوت من كد متواصل وما كانت تتطلبه من عناء شديد كانت تجعل اللهو والمرح أمرا لابد منه وأداة فعاله للترفية تخفف من وطأة العيش خلال تلك البرارى الموحشة • فاذا ذكرنا تيموجن وأهله المغول حق علينا أن نذكر أنهم أهل نكتة ومزاح ، مزاحا كان يبلغ أحيانا حد التطرف ، مثله فى ذلك مثل قسوتهم ، وكانت مناسبتا الدفن والزفاف مجالا خصبا لطبيعتهم الصاخبة ، ولذلك ما كادت الامور تستوى قليلا والسلام ينشر جناحه على مدينة الخيام حتى خرج تيموجن الى مضارب أهل عروسه بورتاى على رأس موكب هائل قوامه مئات من شباب الفرسان الذين تحلوا بأجمل ثيابهم الجلدية الفضفاضة متشحين بفراء الاغنام وقد زينت صدورهم بدروع من الجلد المقسى الملون بألوان زاهية مثيرة ، وتدلت على جانب الخيل القرب المملوءة بالماء • أما الرماح فقد شدت الى ظهورهم وجعاب السهام الى جنوبهم • وكان الوقت شتاء ، فطلى الفرسان وجوههم بطبقة الشحم المعتادة تقاة الريح والبرد • وسار الموكب فى نظام بديع ومنظر خلاب تتقدمهم طبول الفرح على فرس ملونة •

واذ وصل الموكب الى مخيم بورتاى خرج والدها لاستقبال الفارس الجرىء ولقد عمه كما عم الاسرة الفرح ، ولم يستطع الوالد أن يخفى سروره بالغازى الشاب فقال له « لقد كدنا نفقد الامل فى رؤيتك حيا اذ سمعنا عن الحقد الدفين الذى يكنه لك عدوك » • حقا انه لاستقبال جدير بزعيم باسل وترحيب حوى أسمى معانى التقدير •

وترجل أتباع تيموجن وتركوا أسلحتهم مع سروج خيلهم ، وأسرع الخدم ورجال قبيلة العروس يقودون الخيل الى المرعى ، ودخل الفرسان الى السرادق المنصوب لهم وجلسوا صفوفا بجوار شيوخ القبيلة

يشربون ويستنزيدون من الشراب ويمزحون فيجذب أحدهم صاحبه من أذنيه حتى لكأنه يريدان يوسع من حلقه ليستوعب أكبر قسط من اللبن الخاثر وخمر الارز • وبعد ذلك ينطلقون فى رقص بربرى تتجلى فيه طبيعتهم الصاخبة ، ولقد أجاد المؤلف الموسيقى الروسى العظيم ألكسندر بورودين تصوير مثل هذه الافراح والرقصات الاسيوية فى مقطوعته الخالدة « رقصات بولوفتسيا » • أما نساء القبيله فقد اصطففن فى جلسة تقليدية يغنين ويعزفن على كمان ذى وتر واحد ، كل ذلك والخدم ومن يكلف من أهل العروس يفتكون بالخيل والماشية ويجهزون الطعام • واستمر القوم يشربون ويطعمون ويمرحون يومين • وفى اليوم الثالث جلست العروس بجوار والدها وقد تزينت بثوب العرس الفضفاض وتدلت القطع الفضية والتمائم الدقيقة من جدائلها ، وشدت خصرها الدقيق بنطاق أزرق زاد فى ابراز النصف العلوى من جسدها النحيل • أما رأسها فقد تحلى بما يشبه التاج المقلوب من لحاء شجر البتولا المكسى بالحرير المطرز • وأجريت مراسيم الزواج على عادة القوم • وما كاد يحل موعد الرحيل حتى انطلقت العروس تعدو بين الخيام وتيموجن فى أثرها منحيا أخواتها اللائى كن يقاومنه بطريقة تقليدية مصطنعة حتى لحق بها فاختطفها ورفعها على جواده وقفل راجعا الى مخيمه ومن خلفه فرسانه فى زينتهم وفرحهم بالحفل الجميل الذى طعموا وارتووا فيه كما يرغبون ، أما أتباع بورتاى فقد أحاطوا بالفارس وعروسه وهم يحملون رداء ثمينا من فراء السمور هدية من أهل العروس الى أم تيموجن •

لم يكن تيموجن بالرجل الذى يهجع بعد طول شقاء ويهنأ بقرب حبيبته بعد ما عاناه من العذاب والحرمان • لقد كانت له حاسة الحيوان يتحسس الشر قبل وقوعه ويتوقع الاخطار قبل حدوثها ، ذلك أنه قدر أن أعداءه لابد عائدين للاغارة عليه خصوصا وأنهم لم ينسوا بعد حادث خطف أبيه لامه من خطيبها المركيتى ، وتارجوتاى زعيم التايدجوت العنيد الذى أغار على تيموجن ففرق شمل الاسرة ، ثم أسره وفراره منه بعد أن قتل الحارس وقائد السرية التى ذهبت للبحث عنه • كان تيموجن يحس بشدة حاجته للامن ويدرك ضخامة

الواجب الملقى على عاتقه للمحافظة على قبيلته ، فأصبح يقدس القـوة ويحترم أقوياء الرجال وأشـــدهم بأسا وأمهرهم فى الحرب وأحذقهم فى الخديعة • كان همه الاول هو انشاء جيش من المغول يذود به عن أسرته وقبيلته وأنى له ذلك وهـو لم يزل بعد زعيم قبيلة صـــغيرة ما زال بعض أعضائها وعشائرهـا منصرفين عنه •

تدبر تيموجن أمره فرأى أنه من حسن الرأى أن يجدد الصـــداقة القديمه التى كانت بين أبيـــه يسوجاى وطغرل خان زعيم القرايطة الاشداء الذين ينحدرون من الاصل التركى العنيد ، تلك الصداقة التى مزجت بالدم حتى تكون خالـدة • وما كان تيموجن ليذهب الى طغرل خان مســـتجديا • كلا ، ولا كان ليذهب اليه مستضعفا ، انما هو يذهب له ذهاب الصـــديق الى الصديق وذهاب الابن لابيه • ذهب زائرا وقدم اليه فى وسط حرسه وفرسانه وقد تحلوا فى أحلى زينة وأبهى زى ، وقدم لطغرل خـان الفراء الثمين الذى أهدته قبيـلة زوجته بورتاى هديه لأمه •

تذكر طغـــرل خـان العلاقات الودية المتينة التى كانت بينه وبين يسوجاى ، ولقد أعجبه ذكاء الابن وجرأته وحكمته وسخائه مثلمـا أعجبته تلك الصفات فى أبيه من قبـل • عرض عليـــه تيموجن استعداده لمناصرته فأعلن طغـرل خان بدوره أن محاربيه من القرايطة تحت امرته متى شاء •

عاد تيموجن وقد كسب نصـرا سياسيا وحربيا لا يقدر ، فهو فى قلة من الجند وعزلة من الاصدقاء ، وها هو طغرل خان القوى يصادقه ويعاهده بامداده بمدد لا يفنى من أجرأ الشجعان وأمهر الفرسان ولن يخشى تيموجن بعد الآن الهزيمـــة من قلة • ونتيجـة لذلك التحالف أمن تيموجن شر أعدائه الغربيين من قبائل النايمان واليوغور والاتراك اذ أصبحت بلاد طغرل خان حاجـزا بينه وبينهم •

ولقد تحقق حدس تيموجـــن وصدقت فراسته اذ هبت قبل فجر أحد الايام هوركشين خادمة هولون العجوز منذرة سيدتها أن العـــدو قد زحف عليهـم بخيـل تفـوق الرمال عدا • أنهـــا تظن انهـم التايدجوت عادوا لينكلوا بهم مرة أخرى • فزعت هولون من فراشها وأمرتهـا أن توقظ الاولاد وباقى الاسرة • ولم تكد تصبح الخـــادم

صيحة الحرب ولم تـــكد تتجاوب أصداء الفزع والخطر ، حتى اندفع تيموجن واخوته نحو مرابط الخيل وفي اثرهم أمهم هولون تحمـــل ابنتها تيمولون ، غير أن تيموجـن لم يجد سوى جواد واحـد مسرج قفز اليه بغريزة المحافظة على النفس وأسرع بالفرار مخلفا وراءه أسرته وزوجه ، واهتم الجميع باسـراج الخيول وهم الجميع بالفرار . انهم المركيت وقد استطاعوا آسر بورتاى وأخذوها فانتقموا لانفسهم وأسلموا الاسيرة لاحد اخوة ذلك الخطيب المغبون الذى سلبه يسوجاى خطيبته هولون

عاد المركيت فرحيـــن بنصرهم وبأسيرتهم ، وتركوا تيموجن يتلمظ غيظا ويتحرق للانتقام واستـرداد الشرف المثلوم ، ولكن ما العمـــل وليس له قبل بجحافل المركيت . فليستعن بعمه طغرل خان ، فذهب اليه عارضا عليه الموقف طالبـــا العون بالرجال ، فأسرع طغرل خان ملبيا النداء وانحدرت مع تيموجن ركبة قوية من الفرسان القرايطة تؤازر فرسانه المغول نحـــو قرية المركيت واكتسحوا جميعـا قباب القرية ، وصاح تيموجن تحت ضوء القمر ينادى زوجته التى لبت النداء وأسرعت نحو ركاب الجواد فحملها الى جانبه وانطلق عائدا وهو يصيح فى رجاله أن يعودوا بعد أن تحققت أمنيته .

كان لصدى تلك الغزوة أثـــر بعيد فى نفوس المغـــــول الذين يقدسون الشجاعة ويزنون الرجال بميزان القوة والفروسية ، فانضمت اليه القبائل ولجأت اليه كثير من العشائر فأصبحت قوة جيشــــه ثلاثة عشر ألف فارس أخذ يدربهم على فنون الحرب ويعلمهم أسرارها وينتخب لهم أشجع القواد وأقدر الضباط .

ولكن أنى تقف مـكائد جيرانه ومتى تنتهى تلك المعارك الداميــة بينهم . فبينما هو فى رحلة الصيف مهاجرا بقبيلته ألى مرعى جـــديد والقافلة تسير بعرباتها المشدودة الى بعضها ومعها ثيرانها وخيولهـا وباقى ماشيتها والنساء فى شغلهن والاولاد فى لهوهم والفرســان من حولهم والكشافة على رءوس الجبال يراقبون الافق بعيونهم الحـــادة الفاحصة ، حتى اذا وصـــلوا الى واد ممتد جاءه نبأ طلائع العدو من التايدجوت وهم ينحدرون عنـــد الافق مقبلين نحو القافلة بقـــوة وسرعة هائلة . أنه تارجوتاى خصم تيموجن العنيد العتيـــد ، انه

تارجوتاى على رأس ثلاثين ألفا من فرسانه المغاوير ، لقد سلحهم وأعدهم لتلك الركبة المفاجئة الكاسحة • ياله من مأزق خطير ، فقد وجد تيموجن نفسه بين أمرين أحلاهما مر • اما الفرار بروحه ومعنى ذلك تضحيته بنساء القبيلة وكل ما لها من ماشية ومال ، واما أن يحشد قوته ويواجه عدوه ولا يعنى ذلك الا فناء محققا • هنا تجلت عبقرية تيموجن العسكرية التى ابتكرت خطة فذة فريدة

أعمل تيموجن فكره بسرعة فجمع عربات القبيلة فى شكل مربع مفرغ حشد فيه الحيوانات والنساء والاولاد وأمرهم بقذف السهام والنبال على العدو من خلف العربات وكان على أحد الاجناب غابة كثيفة لا يمكن للفرسان اختراقها • وضع تيموجن كل فرسانه فى الارض الفضاء التى بين الغابة والعربات ، وقد رتبها بحيث جعلها فى ثلاثة عشر كتيبة عمق كل منها عشرة صفوف وكل صف مائة فارس ، وبذلك ضمن للدفاع عمقا يستطيع الصمود لهجوم العدو مهما اشتد وأعد للهجوم اذا حان وقته حشدا مركزا يخترق أى دفاع ، وذلك بفصله قوة من الفرسان جعلها على أهبة التحرك لشن هذا الهجوم • أما عدوه فكان متقدما فى ستين كتيبة تتكون كل منها من خمسمائة مقاتل اصطفت فى خمسة صفوف متتالية ونظمت بحيث يكون الصف الاول والثانى من الفرسان الثقيلة المدرعة بصفائح الحديد المجدول بشرائط من الجلد وتحمى رؤوسهم خوذات من الصلب تتدلى من قمتها خصلات من ذيول الخيل وممسكين بحراب طويلة ثقيلة تتدلى من رؤوسها مثل تلك الخصلات، كذلك درعت الخيول بكساء من صفائح الحديد المجدول بالجلد علقت فى صدورها وأجنابها ، أما الصفوف الثلاثة التالية فكانت من الفرسان الخفيفة حمله القوس والسهام ، وأهم أسلحتها سرعة المناورة •

وخرجت صفوف الفرسان الخفيفة من التايدجوت من بين صفوف الفرسان المدرعة وتقدمت تناوش فرسان المغول الذين أصلوهم وابلا غزيرا من النبال اضطرهم الى التراجع يضمدون جراحهم ويعيدون تنظيم كتائبهم •

فى تلك اللحظة زحفت فرسان التايدجوت الثقيلة المدرعة فقابلهم تيموجن بهجوم مضاد كان قد أعد له عدته عشرة صفوف تنقض

كالمطرقة على قوة التايدجوت الثقيلة الحركة القليلة العدد الرقيقة السمك فانجلى الهجوم عن هزيمة مدرعات التايدجوت ، ورأى تيموجن أن الفرصة سانحة لسحق الفرسان الخفيفة الذين لم يفيقوا بعد من الهزيمة الاولى والذين أصبحوا بعد تحطيم مدرعاتهم الثقيله بلا حام ولا نصير ٠

انبرى لهم بكل قوته ، فاضطرت كتائب التايدجوت الى التفرق فى الوادى فى غير نظام ، غير أن كتائب تيموجن تبعتهما من كل صوب تتقدمها ألويتها وتصيح صيحة الحرب الوحشية وتطلق سهامها من كل جهة ، فلما التحموا بالعدو استخدموا سيوفهم القصيرة ببراعه وسرعة وأخذوا يجذبون أعداءهم بالحبال من فوق ظهور الخيل أو بالرماح المركب فى أطرافها الخطاطيف ٠

استمرت المعركة طول النهار فى أعنف صورها وأقسى مظاهرها حتى اذا خبت آخر ضوء للشمس أقبل الليل يحمل النصر الحاسم المتجلى فى عدة آلاف من جثث التايدجوت مبعثرة فى بطن الوادى

وجمع الاسرى ومن بينهم سبعين من أمراء التايدجوت استعرضهم تيموجن وكان قد بلغ به من الحنق والثورة النفسية ما بلغ ، أثر غدر التايدجوت المتوالى ٠ ولم تكن تلك الثورة النفسيه ولا حدة الطبع المتأصلة فيه قد هدأت عندما قدموا له الامراء الاسرى وسيوفهم مدلاة من رقابهم ٠

نظر تيموجن والشرر يتطاير من عينيه ، تذكر تارجوتاى عندما نادى بنفسه سلطانا على أعالى الجوبى ، وتذكر عندما أسروه وعذبوه وسرقوا خيوله ٠ لقد كانوا أشد أعدائه بأسا عليه وبطشا به ، انهم هم الذين حرموه حقه فى الزعامة الكاملة ، ولقد انتصر عليهم اليوم انما بعد جهد جهيد ، ولقد سحقهم ولكن بعد أن بذل من روحه وعرقه الكثير ، فلينتقمن لنفسه وليثأرن من هؤلاء القساة الغلاظ بمثل قسوتهم وغلظتهم ، اذن فليلقوا فى مراجل الماء المغلى ٠

وقيعة



لقد خاض الزعيم الشاب جملة حروب خرج منها ظافرا محققا أغراضه الواضحة التى كان يمليها عليه الوقت أو يدبرها بحكمته وحصافته ، وكانت أولى معاركه الحاسمة الفاصلة هى انتصاره الساحق على قبيلة انتايدجوت القوية الشكيمة الكبيرة العدد .
لقد أصبح بذلك النصر الحاسم هو السيد الاعلى المطاع على كل

شمال الجوبى ، ولقد حق له الان أن يحمل الصولجان العاجى ويمتطى الجـــواد الابيض رمز الزعـامة والسيطرة ·

انفسح الوقت قدرا لتيموجن كى يدير شئون الزعامة الحقيقية وينظم الارث القديم · فكان همه الاول هو تعزيز الجيش المغولى فأخذ يدبر له أشـــجع القـواد وأمتنهم ، فهـو يقدس القوى البشرية ويعزو اليها كل أسـباب النصر والنجـاح · وبنظره الثاقب رأى أن تلك الحروب القائمة بين التتر والمغول والقرايطة والنايمـان والمركيت والتايدجوت وغيرهم من القبائل القاطنيـن فى صحراء الجوبى ما بين جبـــال آسيا الوسطى وسور الخطا ، لن يزول أثرها الا اذا سيطرت قبيلة واحدة على كل تلك القبائل ، وعلى تلك القبيلة تنظيم أمور القبائـــل الاخرى والنظر فى منازعاتها وحماية أراضيها وأهلها وأملاكهـا · لقد كان تيموجن يسعى الى توحيـــد الجنس المغولى فى وسط آســـيا ، ولكن من من القبائل أحق بالسيادة من قبيلته ، ومن من الزعمـاء أولى بالزعامة من نفسه ؟ أليس هـــو سليل الزعماء والحكماء المنحدرين من صلب الآلهة ؟ · ولـكن كيف يحقق تلك الاغراض وينال هـذه المطامع ؟

كان تيموجن يقلب وجهه باحثا عن الرجـــال الذين يعينونه على تحقيق أهدافه ، كان يتفرس فى الناس فاحصا قلوبهم وقدراتهـــم ليختار منهم اللائق للعمل بجانبه ، كانت قوة الفرد وقدرته على القتال هى المقياس الذى يزن به الرجال · والى جانب المهارة الحربيـــة كان يحسب للاخلاص والوفاء بالعهـد حسابا كبيـــرا ، وكان يبث فى رجاله تلك الروح وينتخبهم عـلى هـــذا الاســـاس · كان يحس بوحدانيته وقلته وضعفـه ، فكان يلجأ الى القوة الاســـمى والقـدرة الاعلى ، كان يلتجىء الى ربه ذلك الخـالق القـوى الـذى يسـير الرياح ويطلق الرعد يسأله العون بالرجال الاوفياء الاشداء ، فـكان يصعد الى قمة جبل يتعبد فيـــه ويعتقد أنه مأوى الارواح ، ومـــا كان دعاؤه ولا كانت صـلواته الا للغوث بالرجال والغوث بالأقوياء كان يقول « أيتها السماوات التى لا حد لها ، حنانيك وعطفـــك ، وحقك أرســـلى أرواحك العليـا لتصادقنى ، أما على الارض فيكفينى أن تمدينى بالرجال يشدون أزرى »

جلس تيموجن على سرير الخان وأصبح بحق خانا على مغـــــول يـــكا ، فأخـــذ يوزع ألقـــاب الشرف على قواد جيشه وأتباعه من الشجعان مراعيا كفاءة كلا منهـــم وما يصلح له ويناسبه ، واجتمـع حوله بلاط من رجال الحرب لا من أهل القول والنصيحة ، فمنـــح بورشو صديقه الكريم الحصيف الرأى شرف الجلوس بجانبـة فى المؤتمرات التى يعقدها بحضـــور زعماء القبائل ، ويكون أيضـــــا ضمن الجوقة التى يحق لها حمـل جعبة الخان وقوسه فى الصـــــيد والحفلات • أما كاسار سيد القوس ذو العقلية المتواضعة واليد الثابتة القوية فقد منحه شرف حمل سيفه • دعونا نســتمع الى تيموجن فى معرض الحديث عن أحـــد قواده « لست أعرف من هو أشـجع من يسوتاى أو من يفوقه فى مزاياه • أما وقطع المسافات الطوال لا تنهكه أما وأنه لا يحس الجـــــوع ولا يستشعر العطش ، أما واعتقـاده بأن ضباطه وجنوده لا يعانون مـن هذه المشاق ، لهذه الاسباب مجتمعة لا أخال الرجل كفئا للقيـــــادة • فالقائد الناجح هو من يضع مشاكل الجوع والعطش والانهاك ومـــدى احتمال الطاقة البشرية نصب عينيه حتى يكون بوســعه ادراك متاعب جنده ، كما عليه أن يريح جنـــده وخيله كلما اســـــتطاع الى ذلك ســبيلا » •

فى تلك الفترة من الزمن الـــتى شغل فيها الخان بمهام الحـــــكم تشرف الزعيم مونليك والد بورتاى بزيارة الخان ومعه أبناؤه السبعة وأتباعه لتهنئته • وكانت فترة هانئة فى حياة المغولى الشاقة تبودلت فيها الهدايا وانخرط الضيوف فى الحياة المغولية الصاخبة • ومع أن أولاد مونليك كانوا جميعا على خــــلق حسن الا أنه كان من بينهم ولــــد يدعى الكهانة هو تبتنجرى له حيل وأفاعيل كان لها أثر السحـــر فى نفوس الناس • وكان يدعى قدرته على طرح الروح من الجســـــد والتحليق بالروح فى الفضـــــاء والاطلاع على الاسرار والاســــباب وأحوال الغيب •

وذات يوم اذ هو فى قبة أحد زعماء القبائل مع اخوته وكاســار أسرف الاخير فى الهزء من ادعـاء تبتنجرى مما أثاره واخوته فانقض الكاهن وأخوته يضربونه بالعصى واللكمات • وما كاد الشــــــجار ينفض حتى ذهب كاسار الى تيموجن شاكيا فأومأ اليه تيموجن مستهزئا

وقال « طالما تباهيت بقوة بدنــك وشدة ساعدك فكيف تدع تــلك الحفنة من الرجال يضربونك وتأتى شاكيا مستضعفا ؟ »

حز الالم فى نفس كاسار فقــد ضربه ضيوف أخيه وأهانوه فلمـا شكاهم اليه لم ينصــفه • اذن فالفرقة خير والابتعاد غنم ، فيمم شطر الحى الذى يقيم فيه بأقصى المدينة وظل وقتا بمنأى عن أخيه

استغل الكاهن الدعى فرصــة القطيعة ، وهو يعلم مبلغ ما عنـد الخان من الخوف على ملكه والقلق على مركزه ، فدخل عليه بمثل مـا عوده أن يدخل عليه به من الشعوذة والحيل • وأوحى اليه أن روحــه التى تستطيع التحليق فى السماء قد سمعت ورأت مالا يرضى الخان ولا يسره • لقد قالت الســماء أن تيموجن سيحكم مغول يكا لفترة لا تطول • ولقد رأت الروح فيمـا رأت أن كاسار سيغتصب السلطة من أخيه • وانتظر الكاهن فتــرة ريثما تثبت الصــورة فى مخيلة الخان القلق ، ثم بصوت تحمــل نبراته معنى النصيحة وتدل بحته على عمق الالم قال الكاهن « عليــك بكاسار •• ضع حدا لحياته يسلم عرشك المكين » •

ولم يكد الدعى يتم حديثــه المشئوم حتى اعتقد تيموجــن أن الآلهة الرحيمه التى انحدر مــن أصلابها قد أرسلت ذلك الكاهــن لتحذره غدر أخيه • فأسرع الخان فوق جواده يتبعه حرسه الخاص الى قباب كاسار حيث أمر فقبض عليه وأمر فنزعت قلنسوته ونطاقه وأمر فجثا الاخ المســكين تحت قدمى أخيه الذى اتقد الشــرر من عينيه •

علمت المدينة بما حدث بين الخان وأخيه ، وضربوا فى الظنون كــل مضرب • قالوا أنه أزمع التآمر على حياة الخان فهو يستحق المــوت • وقالوا أنه تآمز مع بعض أعدائــه عليه ، وقالوا فيما قالوا انه يستأثر بالقنص ويخفيه عن الخان • وفى الحقيقة لم يصل الى مسامع الخان كل تلك الاقاويل ، انما كان كل ما أثار نفسه على شقيقه وهيج حفيظته عليه انما هو خديعة تبتنجــرى وسحر حديثه •

وصلت الاخبار الى هولون التى ما كادت تسمع تلك الانباء المهوشة حتى أمرت باعداد مركبة يقودهــا أسرع الجمال • وأمرت السائقين

أن يغذوا السير الى قباب ولدهـا كاسار . وما أن وصلت حتى دلفت من باب القبة لترى كاسار راكعـا أمام شقيقه فى ذلة وحسرة والثانى يتلمظ ويكاد يأمر بوضع حد لحياته

تقدمت الام الى ولدها وهى تولول ففكت أسره وناولته قلنسـوته ونطاقه وأمرته بالوقوف ، واتجهت الى تيموجن وقد كشفت عن صدرها تذكره بأنهما قد أرضعا لبان ذينك الثديين ، وأن كاسار هو ساعده الايمن وعضده الذى لا يـكل . « أليس هو الذى وقف من دونـك يصلى عدوك سهامه الحـادة حتى ردهم عنك ؟ »

أخذ الخان بموقف أمه وحديثها .. وظل صامتا يفكر فى أمر نفسه وأمر أخيه ، وأخذ يقلب الامـور ويزنها بميزان العقل دون العاطفة فوجد أنه قد ظلم أخاه وأنه كاد يقع فى خطأ جسيم لم ينقذه منه الا أمه فغادر المخيم وهو يقول : « لـم يدفعنى الى اقتراف ذلك الجرم الا خوفى ، أما الان فلا أشعر غيـر الخجل والندم » .

مضت تلك الحادثة بخيرهـا وشرها . وما كاد الناس ينسونها حتى احتك تبتنجرى مرة أخرى بأصغر اخوة تيموجن واسـمه تيموجو فاستثاره ثم انقض عليـه بأتباعه يضربونه ويهددونه بالقتل ثم أرغموه على السجود أمامهـم . بلغت الذلة والهوان بنفس تيموجو مبلغا عظيما حتى أنه لم يسـتطع أن يبلغ أخاه عما حدث . غير أن الخان اليقظ بلغه تفاصيل الحادث وحقيقته ، فثارت نفسه للـكرامة المهدرة . ولكن تبتنجرى هو ولد مونليك والد زوجته وزعيم احـدى القبائل القوية ، ولقد عاونه كثيرا فى حروبه ، فكيف ينتقم من ولده خصوصا وأنه بصفته الخان ، عليه الفصل فى المنازعات ولكن تيموجن فى ثورته لكرامته استدعى أخـاه الاصغر وأوعز اليه أن يفعل مـا يشاء بتبتنجرى فى اليـوم الـذى سيستدعيه الخان فيه فى قبتـه ، رغم أن التقاليد تمنع حـدوث أى مشاغبات فى قبة الخـان أو فى حضرته .

وفى الميعاد المحدد لزيارة مونليك للخان فى قبته كان الخان يجلس وحده . وحضر مونليـك وأولاده السبع ، فقابلهم الحـرس الخاص عند مدخل الخيمة ، وأبلغوا الخان بحضور الزوار فأومأ اليهم بدخولهم

فتركوا أسلحتهم لدى الحــــراس ودخلوا من باب القبة منحنيـــن . وتبودلت التحايا وجلس الجميـــع على يمين الخان . ولم يـــكد يبدأ الحديث حتى اندفع تيموجن داخل القبة فسجد أمام الخان ثم قاممووليا وجهه شطر تبتنجرى المتـــكهن وأمسك بخناقه صائحا « لقــــد أرغمتنى على السجود لك بالامس ، واليوم لى معك شأن آخر » .

وفى لمح البصر كان الاثنان فى صراع عنيف هب له اخوة تبتنجرى من فورهم واقفين . أما تيموجـن فقد أمر الخصمين بالخروج مــن القبة وليتصارعا خارجا . وحسب التدبير الذى دبر ماكاد الخصمان يخرجان من باب القبة حتى قابلهما ثلاثة من الرجال الاشداء اجتمعــوا على الكاهن فصرعوه وقصموا لــه ظهره ثم تركوه قتيلا بجوار احــدى المركبات .

ودخل تيموجن بعد أن انتقــم لنفسه ولكرامته ، على أخيه الخان وقـــال بعد ســجوده : « بالامس أرغمنى تبتنجرى على السجود له فحنيت له ظهرى ثم قمت ، أمــا اليوم فقد ارغمته على الســـجود وقصمت له ظهره ولن يقــــوم أبدا » .

هب الاب العجــوز وأولاده من خلفه يلقون نظرة على فقيدهم ثــم عادوا والأسى يحز فى نفوسهم وقال الاب للخان « أهذا جزاء من أخلص لك الولاء حتى اليوم ؟ وكان يعنى بقوله هذا القطيعة والاســـتعداد للقتال . واســـتعد الاولاد الست للانقضاض على الخان الذى نهض واقفا استعدادا للخروج من بــاب القبة الوحيــد والذى كان أعداؤه واقفين بازائه ، فصاح فيهم بصوت يهــــز الجبـــال ويزلزل الارض « أفسحوا الطريق فانى خارج » .

ذهل الاب وأولاده من قـــوة الصوت وشدته ، فانفرط عقدهم وتخلوا عن مدخل القبة ، فتوجــه الخان بخطا وئيدة نحو مخيـــم حرسه الخاص ، وما كاد ينفـــرد بمونليك حتى صــاح فيه مؤنبـــا « أى حماه ، مع تقديرى لك لشـد ما آسف على انك لم تلقــن أولادك الطاعة مع فقرهم اليها ، لقد أراد ولدك الكاهن آن يضع نفســه فى مرتبتى فوضعت حدا له ، أما أنت فقد وعدت أن أحميك ، فلنصفح عن الماضى » .

تدبر الخان فيما سيتناقله قومه وأعداؤه من الاخبار المشينة بقتله

ولد ضيفه فى قبتـــه • ولابد مـــن خرس ألسنة الناس قبل أن تصل تلك الاخبار الى الاعداء فتكون دعاية سيئة له وهو ما زال فى بدء مجده فعمد الى الحيلة وهو سيدها ، ذلك أنه أمر بأن تنقل قبته وتوضـــع فوق جثه الساحر القتيل ثم يغلق بابها فلا يفتح قط ، وبعد ثلاثـــة أيام زاد فيها الهمس واللغط أمـــر اثنين من أتباعه ان يدخـــلوا من كوتها العليا التى يتصرف منهـــا دخان الموقد ، وأن يسحبا جثـــة الكاهن فيخرجاها منها • ثم أمـــر بعد ذلك بفتح باب القبة • وقال لمن حوله « لقـــد حاك تبتنجـــرى المؤامرات ضد اخوتى واعتدى عليهم فآثرت السكوت غير أن الســـماء التى لا تخفى عليها خافيـــة أرادت فانتقمت لى فقبضت روحه الشريرة وسحبت جسده •

عاد مونليك وأولاده تاركين جثة فقيدهم التى سحبتها الســـماء الغاضبة الى وطنهم ، وقد عزمـــوا على القطيعة والحرب • ولم يـــكن هنـــاك مفـــر من الصراع الوحشى الدائم بين مقاتلى الجوبى ، ذلـــك الصراع الذى قوامـــــه التخريب وغايته السلب والانتقام

لم تلهه تلك الحروب والغـــارات بينه وبين أعدائه بعد أن اســـترد ارثة المغصوب ونصب نفسه زعيما على شمال الجوبى يحمل الصولجان العاجى ويمتطى الجـــواد الابيض ، ولم ينسه ما يحف به من الحراس والقواد أينما سار ولالواءه ذا ذيول الوعول التسع الذى يرفع أمـــام قبته فيرفرف على ما ينوف عن المائة ألف قبـــة تضـــم الفا من الاسر المغولية • لم يلهه كل ذلك ولـــم ينســـه الفـــكرة التى اختمرت فى ذهنه الحاد وهى انه لا بد من جمع كلمة القبائل المختلفـــة • وتوحيد العشائر المتنافرة وصياغتها جميعا فى قالب اتحادى واحـــد ، أى أن يحيل خصومه رعية له ، فكان يردد فى مجلسه دواما « لقد علمنا كبارنا أن القلوب المتنافـــرة والعقـــول المختلفة لن تجتمع فى جسد واحد غير أنى عازم على تحقيق هذه الغاية بعد فرض سلطانى على ما حولى »

مضى الخان يحقـــق مشروعه الضخم الذى لن يستطيع القيام به الا عبقرى مثله تارة بالسياســـة والـــكياسة ، وتارة بالدهاء والمكر وبالحرب والقتل تارة أخرى يؤآزره الصبر وتدفعه الجرأة ويوجهـــه عقل ذكى كبيـــر •

چنكيزخان



كانت علاقة تيموجن بعمه طغرل خان ، الذى أصبح بمنزلة الوالد طيبة ، غير أن هناك من بين بلاط الخان العظيم من يحقد على تيموجن ويحسده على مركزه ، وخاصة أقاربه من البورشيكون الذين كانوا يعملون على التفرقة بينه وبين الخان الكبير ، فكان دائم الحذر منهم ، كثير التشكك فى أعمالهم ، ولقد علمته ممارسة السياسة فن الخداع والمكر · واستطاع ببصيرته النفاذة أن يدرك ويفسر المظاهر السياسية بحقيقة ما تعنيه من الخديعة وبقدر ما تحمله من

دهاء • ولقد علم تيموجن بواسطة عملائه فى بلاط الخان وبواسطة بعض نفر ممن يميلون اليه ويعجبون بفعاله وخلقه مكامن الخطر ومواطن الضرر • فقد أبلغه حرس طغرل خان الخاص أن أعداءه فى بلاط الخان قد استعدوا مرارا للقبض على الزعيم المغولى والفتك به ، ولكن طغرل خان كان يرفض دائما كما أن الكثير من هؤلاء الاعداء قد عرضوا عروضا كثيرة للزواج من أسرة تيموجن اتضح زيفها فيما بعد وأخصها ذلك العرض الذى طلب فيه زواج جوشي بن تيموجن بعروس من أسرة طغرل خان •

ولقد سبق الحديث عن ذهاب تيموجن الى عمه طغرل خان وعرضه التعاون معه بقوله فى لغة السياسة والأدب « أبتاه •• لا اخالنى بمستطيع العيش دون حمايتك ، تذود عنى وتنكل بعدوى ، كما لا أظنك بمستطيع العيش بسلام دون صداقتى القوية ، أهب مدافعا عنك وأهب حياتى فى سبيلك • ان الصداقة الحقة والثقة المتبادلة هى الطريق الى الفوز والسلطان ، ألم يخامرك الشك فى نوايا أخوتك الزائفين ؟ وأبناء عمومتك المنافقين؟ وحق الرابطة المقدسة انهم لن يحجموا عن غزو بلادك وتوزيع مراعيك الخصبة فيما بينهم ، ويغتصبون السلطان من ولدك الغر بعد أن يسلبوه الحياة •• »

ولقد أحس الخان الكبير صدق تيموجن وأدرك حكمته فرحب به وبمحالفته • ونجح المغولى الشاب وأخلص فى صداقته ، اذ غزت قبائل الغرب من المسلمين والبوذيين بلاد القرايطة الذين يتزعمهم حليفه طغرل خان فأرسل جيشه القوى وعلى رأسه قواده المستهترين بملك الموت ليعاونوه فى محنته •

وفى ذلك الوقت كانت قبائل التتر توالى غاراتها على أراضى الخطا قادمين من قرب بحيرة بويور • أولئك التتر الذين يقطنون المساحات الشمالية عند جورزا وبارجو ، ولم تكن لهم مدن مقامة ولا حصون مشيدة ، بل كانوا يعيشون عيشة المغول يتخلقون بنفس الخلق ، فهم دائموا الحروب ، كثيروا الشغب يميلون الى العنف والقسوة ويعيشون على السلب والنهب والفوضى ، غير أنهم كانوا يتمتعون بنضرة السهول وجودة المرعى ووفرة المياه من الانهار الثلاث •

ولم تكن ترهبهم حكومة ولا يحكمهم سلطان ، انما كانت السيطرة كل السيطرة للحـــاكم ذى البطش والرهبة •

راح التتر يغيرون على حـــدود امبراطورية الخطا ، ويزعجـــون امبراطورها من سباته العميــق ، وصحا الامبراطور يوما فاذا التتر عبر حدوده يهددون ملكه وسلطانه فأعلن قيام حملة قوية يقودهـــا شخصه الامبراطورى ليزيل بهـــا التتر من الوجود • غير أنه مـــا كادت طلائع الجيش الكبير تتراءى للتتار الذين بلغهم التهديد والوعيد حتى امتطوا خيولهم السريعة وفروا الى مـكامنهم بينمـــا كان جيش الامبراطور ما زال يجد السير على أقدامه الكليلة •

واذ بلغت محنة الامبراطـــور مسامع تيموجن ، رآها فرصـــة سانحة كى يجرب حظه فى مضمار السياسة ، فأرسل الى الامبراطور يبلغه أنه يضع جيشه تحت تصرفه ونادى طغرل خان أن يشـد أزره بفرسانه القرايطة فى حربه ضــد التتار الـذين سبق أن قتلوا أباه يسوجاى ، فلبى الخان العجـــوز النداء وانحدر جيش تيموجن وجيش القرايطة نحو التتر ، بينمـــا ثبت جيش الخطا الذى كان يقوده قائد من قبل الامبراطور فى ظهر التتار والتحمت جموع الفرسان وكانت معركة رهيبة انتصر فيها المغول على التتار انتصارا ساحقا سيقت على أثره أعداد لاحصر لهامن الاسرى التتار وزعت على القبائل المغولية المقاتلة وبقدر ما أتت به نتائج النصر من الفخـــر لتيموجن جاءته جمـوع المحاربين يتدفقون اثر بعضــــهم لتنضم الى صفوفه • ولقد منـح الامبراطور تيموجن لقب « القائد ضد الثوار » وأهـــداه سريرا من الفضة مغطى بنسيج من الحرير الموشى بالذهب ، كما منح طغــرل خان لقب « وانج خان » أى سيد الملوك •

انتهت الغزوة ولم يبهر تموجن النصر ولم تلهه الهدية ولا اللقب ، وأرسل تيموجن الى طغرل خان ينبئه بما لقيه من النجاح وما وصل اليه من المجد برسالة قال فيها « ان للمغول اليوم زعيما عظيما يستطيع أن يجمع شملهم ويحارب عدوهم ، فنظر طغرل الى تلك الرســـالة نظرة حسد وحقـــــد ووجد فى تيموجن حجر عثرة فى ســبيل تحقيق اطماعه • وأخذ تيمـوجن يفحص الموقف بينه وبين القرايطة فاذا الخفاء يبين والمستور يفتضح ذلك أنه أرسل طلائعـــه ذات يوم

تستكشف الطريق بينه وبين القرايطة ، وكان قد اقترب من أراضيهم فى موسم الصيد الذى يخرج اليه كل عام ، فلم يعد من رجاله غير آثنين فبلغا الخان فى حلكة الليل يحملان له أسوأ الانباء عن رجاله وأخطر الاخبار عن القرايطة فقد قتلوا رجاله وملأوا الطريق بالحرس ، واستعدوا بجموع من المحاربين لا قبل لتيموجن بهـا ، اذن فقد وطد القرايطة العزم على التخلص من تيموجن بالغدر أو بالحرب • أما وقد أفلت تيموجن من كل شراكهم ، فالحرب هى الحد النهائى لهذا الزعيم العنيد ، وسعى أشد رجال القرايطة دهاء وأعلمهم بفنون القتال يتدبرون ويقررون أحكم الخطط لابادة تيموجن ورجاله • وكان من بين هؤلاء شاموكا الداهية وتوكتا بك زعيم المركيت الذى يحمل أبغض الضغائن لتيموجن ، وكذلك نجل « وانج خان » زعيم القرايطة ، وحتى أعمام تيموجن نفسه اجتمعوا كلهم ضده ، وبعد أن عينوا شاموكا قائدا لحملتهم المشتركة ذهبوا الى الخان العجوز يحاورونه تارة ويتملقونه تارة أخرى حتى وافق على الانضمام اليهم •

اذن فقد فشلت سياسة تيموجن اذ كان يسعى الى جعل القرايطة فى حرب مستمرة مع قبائل الغرب الاتراك ، بينما يقوى نفسه فى الشرق ، وأن يحتفظ بطغرل حليفا ريثما يشتد ساعد قبائله فى الشرق ويصبح بوسعها مجابهة القرايطة مجابهة الند للند •• لقد كانت سياسة حكيمة ولا شك غير أن دهاءه قوبل بدهاء أشد ثم بأبغض صفة الى قلبه ، الخيانة •

لقد انجلت الغشاوة ووضحت النوايا فللحرب كلمة الفصل بينه وبينهم • ولكن ما الحيلة والقرايطة يقاربون أبواب معسكره ويستعدون بخيلهم ورجالهم للانقضاض فيذبحونه ورجاله ذبح النعاج ؟ نظر فاذا لديه ثلاثة آلاف مقاتل فحسب • لم يضع الوقت سدى ، فبعث من فوره رجال حرسه الخاص يوقظون الناس من غطيط منتصف الليل وينذرون القواد المحاربين ، ثم أمر الدعاة بالخروج فى الحال بالماشية والدواب ونشرها فى السهول بقدر المستطاع ، اما المركبات الخفيفة فأمر بتحميلها بالنساء والاولاد وأخف المتاع وبشد الجمال اليها للفرار بهادون جلبة الى موطنهم ، اما الرجال

فقــد قفــزوا الى خيولهم المسرجة دائما واجتمعوا فيسكون منتظرين أوامر الامــير ٠

وأمر تيموجن بترك الخيـــام والمركبات الثقيلة فى محـــــلاتها وأرسل بعض فرسانه وجملة من الرجال للاحتفاظ بالخيام موقدة حتى الفجر ، خدعة ما زال يلجـأ اليها عظام القادة حتى الآن ٠ وبعد أن اطمأن الى أن جميـــع تعليماته قد نفذت حسبما أراد أصـــــدر أوامره وتحذيراته النهــــائية ، وامتطى صهوة جواده وعاد مـــع رجاله مستترا بأطراف ســـتائر الظلام حتى يستر الانسحاب العام واستمرت القافلة يحفها حرسها ، ومن خلفها القوة الساترة بقيــادة تيموجن ، مضت تزحف نحـــو موطنها فيصحراء الجـوبى حتى قطعت تسعة اميال بلغت فى اثرها سلسلة من الجبال من أســـفلها جدول ما كادت تعبره حتى أمــر تيموجن رجاله باراحة الخيل ونشر القافلة فى التلال بعد أن اســـتبقى قوة ضاربة فى الضفة القريبة من العــدو ٠

وخلال ذلــك الزحف هاجمت جموع القرايطة ، وقـــد تقمصتها روح الشر وامتلأت نفوسها برائحة الغدر ، مخيم تيموجن المهجـــور قبل أن يفضح بياض النهــــار غارتهم الغادرة السوداء ، وأسرعوا يرشقون سهامهم فى خيمة الزعيم اذ فطنوا الى أنالقوم نيام ٠ ولكن سرعان ما تبينت لهم خــــدعة تيموجن وسبقه فى الوقيعة بهم ٠ دهش الخونة ودب الارتبـــاك فى صفوفهم ، ولكن ما هى الا لحظـة حتى وضح لهم أن كل الخيـــام ما زالت تتقد نيرانها وقرب اللبن ما زالت مدلاة منسقوفها ٠ وحتى الاوعية والفراش والاثاث ما زالت كما هى تدل على أن القوم وقـــد أخذتهم رهبة الهجوم تركوا متاعهم وفروا بلا نظام ولا تدبير ، أو هكذا خيل اليهم ٠ فأسرع القواد يعلنون فى النفير أن من الاصوب ملاحقـــة الفارين وابادتهم وعلى ذلك طرقت حوافر الخيل ســــطح الارض فى نقـــرات تدل على مدى سرعة الفرسان فى تتبع الزعيم الفـــار ليأسروه أو يقتلوه هو وقبيلته ٠

أبلغت طـــــلائع تيموجن عن اقتراب العـدو فى بياض الفجر ، فأسرع يأمر الفرسان بعبـــور الجدول والانتشـــار فى الوادى استعدادا لملاقاة العدو بينمـــا يستمر الركب في انســـحابه ٠

وأبادت طلائع تيموجن طلائع العدو الذى كان متقدما فى كتائب ، كل قبيلة يتقدمها لواءها الذى يرتعد نسيجه من سرعة الريح • ان تيموجن فى حياته المليئة بالمغامرات لم يصادف موقفا أشد حرجا • لقد كان وقتذاك فى مسيس الحاجة الى قواده المحنكين الذين اطلق عليهم اسم « السيول الثائرة » يكتسحون العدو ويزيلون آثاره من فوق الارض • كان هناك شيبه نويون المستهتر الفظ الطباع ومعلم ولده جوشى ، وسابوتاى اليورانخى الداهية الجرىء الذى ينتسب لرعاة الرنة ، ويسوتاى الذى لا يكل ، وبورشو الوفى • كان فى أشد الحاجة الى فرسان اليورت الاشداء وشجعان المانهوت البواسل ، كما كان أحوج ما يكون الى هدوء عشيرته واحتفاظها بالسكينة ورباطة الجأش •

ولم يكد القرايطة يعيدون تنظيم قواتهم بعد أن عطلتهم طلائع تيموجن ، وبعد تلك الركبة الطويلة حتى استهلوا هجومهم العنيف الذى لم يواجه تيموجن خلال كفاحه الطويل أعنف ، ولا أرهب منه • كان حليفه الخائن وانج خان يقود العدو ، ولقد كان لذلك القائد العجوز أثر السحر فى نفوس رجاله الاشداء القساة • ولم يستطع تيموجن أن يقوم بعملية « التولوغما » أى عملية الالتفاف حول العدو حتى يأخذه من خلفه، تلك العملية الحبيبة الى نفسه والتى لا يجيدها غير قائد محنك قدير • أصر تيموجن ، على أن يخوض المعركة مواجها خصمه المتفوق عليه فى العدد والعدة • كان صراعا عنيفا ، صراع الحياة أو الموت ، ما تكاد قوات تيموجن تحمل على عدوه حملة صدق حتى تعود فتتكسر ازاء مقاومة أشد منها عنفا وأصدق منها قوة •• وما تكاد قوات القرايطة تحمل حملتها حتى يصيح القواد والمنادون بالثبات والصبر والكفاح فى سبيل القبيلة والخان • وما زالت المعركة بين مد وجزر ، وتيموجن يستنجد بالسموات وأرواحها العليا أن تمده بقوتها ، ويفحص بعينه الثاقبة الفتحات فى خطوط العدو لينفذ منها •

وما كادت الشمس تنحدر نحو مغربها حتى لمح تموجن كلا الهزيمة والنصر • اما شبح الهزيمة فقد بدا له فى تلك الحملة العنيفة التى قام بها القرايطة لنهو المعركة قبل المساء • واما ملك النصر فقد اشار له من فوق تل « جوبتا » الذى تركه القرايطة من خلفهم عند

حملتهم الاخيرة على المغول • هب تميوجن ينادى جولدار أفرس الفرسان وأشجع الشجعان وزعيم المانهوت ، فأمره بالالتفاف حول القرايطة ودق اللواء فوق قمة الجوبتا •

صاح جولدار « وحقك لاشطرن بسيفي من يقف أمامى ، ولاكتسحن من فى طريقى حتى أدق لواءك فوق الجوبتا وليتناقل الرواة شجاعتى ، ولى ولدان عليك رعايتهم » •

وصاح جولدار فى فرسان المانهوت الامجاد فاصطفوا خلف زعيمهم والسيوف مشرعة والخيل تسابق الريح ونفير الحرب يدوى، وبلغ جولدار الجوبتا مع مغرب الشمس ودق اللواء فى الوقت الذى كانت قوات المغول قد تفرقت فيه وتبعثرت نتيجة خروجه من بينهم ونتيجة الحملة العنيفة عليهم من العدو الجبار • وما كاد العدو يتيقظ للمناورة حتى دب الذعر فى صفوفه وحل الارتباك فى خطوطه، ولا غرو فقد أمسى العدو من خلفهم ومن أمامهم، وابن زعيمهم الجرىء قد اصابه سهم شج وجهه ، انها السماء مرة أخرى تلبى دعاء تيموجن الذى طالما هتف له على قمة الجبل فأرسلت أرواحها الى جانبه وآلى جانب سيوله الثائرة تخوض اللحظة الفاصلة فى تاريخ المغول •

ولقد بدأت خيوط الليل تنسج ستارها، وحل اليأس عند القرايطة محل الامل ، والهزيمة والاسر بدل الغنيمة والنصر ، وشرعوا يلمون شعثهم وينسحبون رويدا رويدا من ميدان المعركة •

ولقد قالت أساطير المغول وما زالت تروى الى اليوم كيف قام جولدار بالتولوغما الخالدة وحمل اللواء فوق جوبتا •

تمت هزيمة العدو ، وبقى تيموجن يستر انسحاب جولدار العظيم من فوق تل جوبتا ، ثم مضى يجمع فرسانه الجرحى ومن بينهم ولدين له وراح يكدسهم فوق خيل العدو الماسوز ، وأسرع متجها نحو الجوبى حيث عشيرته الحبيبة الى قلبه بعد ان أرهقت تلك المعركة القاسية أعصابه وتفكيره • حقا لم تكن نتيجة المعركة فى صف تيموجن بالمعنى المفهوم • ولكن حسبه أن خرج منها وراسه بين كتفيه وصفوة محاربيه الى جانبه وعشيرته سالمة •

ولقد ندم وانج خان على فعله بعد أن رأى ما حل بقواته وما

أصابه من خزى بعد هزيمتــه وخيــانته فقــال « لقـد قاتلنا رجلا ما كان يجــدر قتاله » . حقيقة لم يستحق تيموجن القرايطة لقلة عدد رجاله ولكنــه دحرهم على أى حال ورد كيدهم عنــه بقوة وعنف اضطروا من بعــدها لعمل الف حســاب له ولغضبه . أما وقد حنث طغرل خان بيمينه وخلف وعده واســتبانت مكامن الشرفية ، فالحرب سجال بينهما حتى يفىء أحدهما أو يباد ، ومن ثم أرسل تيموجن الى طغرل خان كتابا طويلا ذكره فيــه بتلك الايام التى كان يعاونه فيها على خصومه ويقدم له أسلاب الحرب دون أن يأخذ منها شيئا لنفسه او لرجاله، وفكره بالعهد الذى أخــذاه عــلى نفسيهما بجوار النهر الاسود بألا يستمع أحدهما لوشاية عن الآخر، وأن يسويا أمورهما سويا فيمــا بينهما ، وأفهمه أن العلاقة وقــد انقطعت والصداقة وقــد انحلت فانه لم يعد بعدمين يستطيع الخان الاعتماد عليهم .

التفت تيموجن الى جيشــه . تلك الآلة الضخمه المتينة التى كان يلجأ اليها كلما تحزبت الامور ، فهم باعادة تنظيمه وتسليحه ووضــع قواعد جديدة للسير عليها حــتى يكون تحت أمرته فى كل لحظــة مستعدا للقاء عند كل خطر .

وأرسل يســتدعى الخانات من كل حدب وصوب فلبوا النــداء مسرعين وجلسوا عنــد اجتماعهم الكبير على جانبى الخان ، وقــد افترشوا بسط اللباد وعقــدوا أذرعتهم حــــول ركبهم ، والقى الزعيم حديثه فى هــدوء وعرض عليهم الموقف بينه وبين القرايطة الاشداء . وأخذ الزعماء كل يدلى برأيه ، ولقد تضاربت الآراء فى كل الموضوعات الا موضــوع واحد اتفقوا عليه جميعا ، ذلك هوتولية الخان قيادة قوات المغول أجمعين وتسليم الصولجان اليه .

وما كاد تيموجن يعــرب عن قبوله للفكرة حتى اشترط عليهم فى صوت قوى رزين أن أوامــره يجب أن تطاع طاعة عميــاء بين جميع القبــائل ، وأن له حق توقيع الجزاء على من يستحق . ثم عاد الى هدوئه وقال « طــالما ناديت أن الارض بين الانهار الثلاث قد باتت فى مسيس الحــاجة الى رجل قوى يحكمها ويسوسها فلم تفهمونى ولم تلقوا بالا الى . أمــا الآن وقد خفتم أن يذيقكم وانج

خان نفس الكأس التي اذاقنيها ، أراكم تنتخبونني لاكون زعيمكم : حسنا ، لقد انتويت المحافظة على أرض اسلافنا وتقاليدهم وسأجلب لكم رأس طغرل خان وولده • »

كان الخان تيموجن يتزعـــم القسم الشرقي من صحراء الجوبي عند حدود بحيرة بيقول • وكان ينوي أن يوجه آلته الحـــربية لتوسيع تلك الرقعـــة من الارض على حساب امبراطورية الخطا في الشرق ، ولكن وجود القرايطـــة الاشداء في القسم الغـــربي من الجوبي ، ثم غـــدرهم به وضربهم له في موســـم القنص ، كل ذلك أفسد من خططه واضـــطره الى الاقتناع بوجـــوب التخلص منهم أولا ، او على الاقل وضع حد بينه وبينهم يجعله في مأمن منهم ، وكان تيموجن قد اعتاد الاحتفـــاظ بالقسط الاكبر من الصـــيد هدية لطغرل العجوز ، فـــلا عجب اذا ضاق المغول ذرعا بأولئك القرايطة فان أغلب الغنائم تذهب لقمـــة سائغة لرجال طغرل خان ، فحزت تلك المعاملة في نفوس المغـــول وأوغرت صدورهم ضد حلفـــائهم القدامى •

ولذلك جمع جموعه من الفرسان وأسرع قبل انتهاء الشتاء وذوبان الثلوج فوق الوديان ، فتحيلها الى انهار وجداول تعـــرقل تحركاته السريعة المفاجئـــة ، أقول أسرع تيموجن زاحفا بجموع الفرســـان نحو معسكر القرايطـــة الذين لم يكونوا من السذاجة ولا الغباء حتى يتركوا معسكرهم دون حراســـة قوية ، ودون أن يضعوا طـــلائعهم تكتشف الطرق وتفحص خطوط الافق • لذلك عمـــد تيموجن الى دهائه ومكره العميق فأرسل أحد قواده الشـــجعان ســـابوتاي اليـــورانخي الذي دخـــل على القرايطة فرارا من جيش تيموجن وهو يشكو سوء المعـــاملة وبؤس الحال ، وأخذ يخبرهم عن جيش أعدائهم أنهم ما زالوا بعيـــدين في الشرق لم تتجمع وحداته بعد •

وبطبيعة الحال لم يأخذ القرايطة قول المقاتل الفار قضية مسلمة ، فأرادوا تمحيص ما يقـــوله من الصدق وأختبار قدر ما يرميه من الحقيقة ، فأرسلوا بضع فرســـان معه لتحقيق الأخبار •

وما كاد الفرسان يبتعدون عن معسكرهم قليلا حتى لمح سابوتاي

الحاد البصر لواء تيموجن يرفرف على طرف الهضـــبة التى كانوا يرتقونها فقفز من فوق جواده ، وانحنى يفعل شـيئا بحـافره ، فالتفوا اليه يسألونه ، فأخبرهم بأن جواده يعرج وهو بسـبيل بحث السبب فعادوا جميعا اليـه وانشغلوا بالحديث والمسامرة حتى اذا وصـلت طلائع تيمـوجن بالقرب منهم فلمحوهم أحاطوا بهم وأسروهم بما فيهم سابوتاى الحكيم الداهيـة الـذى صـاح مخاطبا تيموجن « سأدرأ عنك خصمك كما يدرأ عنك اللباد لفح الريح »

كانت هذه الخدعة هى القسم الاكبر من خطة المعركة ، فان ماتلا ذلك هو هجوم تيموجن علىمعسكر عدوه ونشوب قتـال مرير حتى غروب الشمس • وكان يوم أفل فيه نجم القرايطة وجـرح وانج خان وأبنـه بجراح داميـة وفر يصحبهما شاموكا بعد أن كتبت عليهم الهزيمة نحو الغرب • غير أن شرذمة من فرسـان تيموجن مكثت تطاردهم بقوة وعزم، فسأل وانج خان شاموكا عنهم ، فقال له « أولئـك هـم كـلاب تيمـوجن المتوحشـين الـذين يطعمون لحم البشر ، ويتبعـونه أينمـا ذهب مقيدين بسلاسل من حديد ، لهم جماجم من نحاس وأسـنان قدت من الصـخر وقلوب من فـولاذ ، وتقذف أفواههم الحمم ، وتشرب خيلهم الندى ، لهـا أجنحة تطير بهاكالريح • وتتغذىء خلالالمعركة على لحم البشر ، وهىالآن محلولة العقال » •

ولما كانت العـدوآة والمنازعات دائمـة بين القرايطـه وجيرانهم النايمان من الأتراك ، فانه ما كاد يلجأ وانج خان وابنـه الى تلك البلاد حتى قتلهمـا رجال تلك القبائل ، ولقـد طليت جمجمتاها بالفضـة وظلتا فى خيمة الزعيم تيموجن •

دخل تيموجن بعدنصرهالساحق معسـكر عدوه المكدس بالثروات والطنافس ، فأمر فأطلقت أيدى رجاله تنهب ما شـاءت من متاع القرايطة الفاخر وثرواتهم الطائلة وأسلحتهم التركية البديعة • ولم ينس تيموجنحينتم نصرهوهدوء ثائرته أن يكافىء الحراس الذين أنذروه بزحف القرايطة عنـد تل جوبتا بمنحهم كلمافىقبة وانخان من مال ومتاع •

لم يركن تيموجن الى الراحة بعد ادراكه النصر ، بل أسرع يطارد عدوه المنسحب حتى لحق بعضه بالطريق فأحاط به وخيره بين الانضمام لفرسانه والاخلاص له وبين القتل ، فانضم اليه من بقى من فرسان القرايطة ، ثم واصل المسير حتى « قره قرم » أو « الرمال السوداء » فى قلب الصحراء • وهناك أحضروا له ابن عمه شاموكا ، فسأله « أى مصير تنتظر بين يدى ؟ » فقال شاموكا « نفس المصير الذى كنت أسوقك اليه لو وقعت بين يدى ، الموت البطىء » •

وكان شاموكا يعنى طريقة القتل بتقطيع الأطراف بالتدريج يوما بعد يوم ، غير أن تموجن لم يشذ عن تقاليد المغول التى تتبع فى اراقة دماء الزعماء المنحدرين من عنصر رفيع ، فأمر بشنق شاموكا بخيط رفيع من الحرير أو أن تخمد أنفاسه بين وسائد اللباد •

كان استيلاء تيموجن على بلاد القرايطة هو بمثابة تكوين نواة مملكته التى كان يحلم بها • ولقد كانت بلاد القرايطة هى أولى المدائن التى قام أهلوها بفلاحة الأرض وتشييد المبانى من الطين والآجر • ولما كانت رغبات تموجن لا تنتهى عند تلك النهاية ولا كانت أطماعه تقف عند هذه الحدود ، فانه ما كاد يتم له الاستيلاء على تلك البلاد الغنية حتى دفع قواته من فورها نحو وديان الغرب حيث الأتراك النايمان واليوغور أعداء طغرل خان زعيم القرايطة السابق والذين قد رأوا قوة الحاكم الجديد وسطوته فلابد أن يتفقوا جميعا للاغارة على بلاده وكسر شوكته •

مضت قوات تيموجن يقودها « سيوله الثائرة » ويدبر حركتها عقله الخصب الكبير من نصر الى نصر ، مضت تمرح وتجول بين سلسلة الجبال التى تكسوها الثلوج فى الشمال وبين سور الخطا العظيم ، وانطلق فرسانه بخيلهم خلال المدن القديمة العريقة بشبالك وخوتن وغيرهما •

وكان تيموجن على سطوته وقوة بطشه وقدرته وسعة سلطته لا يتعرض لأهل الأراضى التى يغزوها بسوء مادامو يخضعون اليه ويقدمون آيات الولاء لسلطانه وكان يترك حامية صغيرة من جيشه

فى بلادهم ثم يمضى قدما فاتحا مدائن جديدة ، حتى اذا رأى الناس مدى انتصاراته وشدة قوته وقدرته على حمايتهم انضموا الى لوائه وخضعوا لسيطرته ورضوا بحكمه . ويقول ماركو بولو أنه « لما تجمع حول تيموجن الجند الكثيف شرع يفكر فى غزو الجزء الباقى من العالم .

أما عن رؤساء القبائل المعادية وزعمائها فانه ما يكاد يكسر شوكة القبيلة ويرد سيفها فى نحرها حتى يجمع كل أفراد الأسرة الحاكمة ويعدمهم عن بكرة أبيهم ، ويضم المحاربين الى جيشه ، أما السبايا فيهديهن الى قواده المحنكين وجنوده الشجعان ، وتسرع نساء المغول فيتبنين الأطفال وصغار الأولاد ، وأما أملاك القبيلة فيستولى عليها الملاك الجدد .

ولم يلبث تموجن أن جمع مجمع الخانات وعقد مجلس الكورلتاى » أى المؤتمر العام كى ينتخب رجلا واحدا يحكم وسط آسيا كما كان يريد من قبل وأرسلت الرسل تبلغ الخانات انباء انعقاد المجمع ومواعيده وهم الخانات بتلبية النداء لحضور الاجتماع ، وجاءوا جميعا من أطراف الجوبى الى المؤتمر بجوار جبل دليجون بولداك ، واصطفوا جميعا على جانبى الخان وقد تزيوا بستراتهم الطويلة وتحلوا بالمناطق المرصعة بالذهب والفضة ، ووقف تموجن بجوار اللواء ذى ذيول الوعول التسع يخطب فى الزعماء الذين قدموا يظهرون له الولاء والاخلاص فقال : « لقد استقر رأيى على أن أدعو أولئك الذين آلوا على أنفسهم مشاركتى سرائى وضرائى ومقاسمتى كل ما يحدث من حلو الأمور ومرها ، أولئك الذين بلغ اخلاصهم نقاء البللور ، أقول قد عزمت أن أدعوهم شعب المغول ، وان غاية ما أتمناه هو رفع شعبنا الى مرتبة السيادة فى العالم » . واستمر تيموجن فى خطبته بلغة بليغة فصيحة أثارت مشاعر القوم وأخذت بمجامع قلوبهم ، فصاحوا معلنين موافقتهم ورضاءهم التام عن كل ما جاء فيها من الآراء والعروض .

ولقد عرض تيموجن فيما عرض من خطبته وصيته باختيار رجل

منهم يتصدر الزعامة ويكون سيدا للجميع • وسرعان ما انتخب المجمع تيموجن ليكون ذلك السيد الآمر المطاع على كل قبائل الجوبى • ولم يكتف المجمع بذلك بل قرر منحه لقبا مناسبا لمركزه الجديد ، فنهض أحـد العـــرافين وأعلن أن الاسم الجديد هو « جنكيز خان » أعظم الحكام وامبراطور البشر أجمعين

طـرب المجلس للقب مرحبـا ، وازاء اصرار الاعضاء مارس تيموجن لقبه الفخم الجديد • ولقد أصبح تيموجن أو جنكيز خان سيدا على قبيلة البورشيكون وقد اتحدت مع قبائل التتر الوحشـية وامتزجت بحكمة قبائل اليوغور ، وشجاعة القرايطة ، وبسالة قبائل المركيت المتنقلة ، وصلابة سـكان التندرا الجليدية • لقـــد ضم كل تلك القبائل المختلفة والعشائر المتنافرة وجمـع كلمتهم ووحـــد قيادتهم فجعلهم قبيلة واحدة متساندة هو زعيمها وسيدها يوجهها اينما شاء متى شاء ليجعلها هى الاخرى سيدة على العالم أجمع •

وفى غمرة الحماس التى جرفت شعب المغول ، وفى خـلال نشوة النصر اعتقد الشعب اعتقاداً جازما بأن الخان ينحدر من سلالة الآلهة « البوجدو » الذى وهبه نصـيبا من الحكمة وقدرا من السلطان •



أصبح جنكيز خان بعد مجمع الكورلتاي سيد الملوك وامبراطور البشر أجمعين ، يحكم أقاليم آسيا من صحراء الجوبي حتى حدود منشوريا الحالية شرقا الى دولة الخطا السوداء غربا ثم شمالا حتى سيبريا • كانت تلك الاقاليم تتميز عن بعضها باختلاف المناخ ، وتباين التضاريس ، وتعدد الشعوب والاجناس ، وتفرق اللغة ، وتنوع الاديان وتضارب الطباع والعادات • فكان على جنكيز خان

ان يجمع تلك القبائل تحت قبضته ويخضع تلك المساحات الشاسعة من الارض تحت سيطرته . ولم يكن ذلك الامل الذى داعب فؤاد الخاقان بعيدا عن التحقيق فقد سبق لتلك القبائل أن اتحدت تحت زعامة أسرة هيونج نو عندما اغاروا على مملكة الخطا ومكثوا يواصلون غاراتهم للنهب والسلب حتى شيد سور الصين العظيم .

وكما بدا لنا تيموجن قائدا فذا من الطراز الاول ، فهو بالمثل أيضا حاكم سياسي من طراز فذ يستطيع أن يسوس شعبا ضخما وأملاكا شاسعة ، فاستنبط تنظيمه العسكرى لجيش المغول ، ثم وضع « الياسة » التى هى القوانين العامة والخاصة للمغول . ولقد أنتج تلك القوانين عقله الراجح الزاخر بتجارب الحياة وعبرها ، رتب فيها أحكاما وحدد فيها حدودا ونقشها فى صفائح الفولاذ ، وجعلها شريعة لقومه ، وأمر أن تحفظ فى خزانته تتوارث فى أعقابه ، وأن يتعلمها صغار أهل بيته .

اذن كانت الياسة هي شريعة المغول، ضمنها جنكيزخان خلاصة تفكيره الخاص وصفوة تقاليد القبائل . ولو تدبرنا قوانين الياسة لوجدنا أنها تهدف الى تمكين سيطرة جنكيز خان ، وبسط سلطانه على البلاد ، واخضاع القبائل وتوحيد كلمتهم وربطهم ببعض بعلاقات ونظم لا يشذون عنها ولايختلفون عندها « فليساعد الواحد منكم الآخر ولنقض على بقية الاجناس» هكذا قالت الياسة .

وأما الهدف الاخير فهو توقيع الجزاء على المخطىء حتى لو كان قائدا أو أميرا .

ان الامبراطور المغولى الحكيم وهو الخبير بطبائع قومه والعليم بمكنونات نفوسهم ما كان ليترك مئات الالوف من رعاياه كاملى العدة والتسليح دون شاغل يشغلهم أو لهو يلهيهم به ، وقد انتشروا فوق ما ينوف عن المليون ميل مربع من السهول والجبال ، والا عادوا الى طبيعتهم الاصلية يقتتلون فيما بينهم ويختلفون ويسلبون . واذن فليوجه تلك القوى الكامنة ، وليستغل هذه القدرة خارج صحراء الجوبى ليوسع سلطانه وليجلب لهم الخير والمتاع وأجمل السبايا .

وكان جنكيز خان يتمتع بفصاحة وطلاقة لسان تثير المشاعر فلم يفته أن يستغل هذه الميزة أحسن استغلال ، فراح يصور لقومه المغول الحياة الهانئة والثروة الطائلة فى البلاد المجاورة لهم ، وما سيعود عليهم من الغنى والبسطة فى الرزق بعد غزوهم لتلك البلاد . وعمد الى جيشه يحشده وينظمه بما أوتيه من الخبرة والمهارة فى ادارة الحروب وبما وضعه الله فيه من حسن البصيرة بطبيعة البشر ومكامن قوتهم ، مستغلا فى ذلك شريعة الياسة الخالدة ، فحرم على أى مقاتل أن يتخلى عن زملائه أو جماعته المكونة من عشرة رجال أو أن يخلفوا وراءهم جريحا كما حرم مغادرة مسرح المعركة قبل انسحاب اللواء ، أو الانتقال من القتال الى السلب والنهب قبل أن يسمح بذلك القائد المسئول .

وما كان جيش المغول مجرد جموع من القبائل ، أو شراذم من الفرسان الفارين من قبائلهم قد التأم شملهم حسبما اتفق ، بل أسس له جنكيز خان قواعد وأصول لتنظيمه ، ونظم أخرى لتدريبه وقوانين صارمة تسرى عند القتال .

فالوحدة المقاتلة فى جيشه الرائع العظيم هى « الجماعة » وعددها عشرة رجال « والفرقة » أو « الطومان » عددها عشرة آلاف يقودها « النويون » أما الجيش فيتكون من بضع فرق ويقوده « الارخون » . ومن الارخونات العظام سابوتاى المعصوم من الخطأ، وموهولى العجوز المحنك وشيبة نويون النارى الطبع العنيف الملتهب الحماس ، وغيرهم من الارخونات الذين شنوا الهجوم واكتسحوا البلاد والمماليك مسافة لا تقل عن التسعين خطا من خطوط الطول بين الشرق والغرب .
وكانت أسلحة الجيش من حراب ودروع ثقيلة تحفظ بمخازن أنشئت خصيصا لذلك الغرض ، ويشرف عليها ضباط مسئولون عن حفظها ونظافتها وصقلها ، فاذا نشبت الحرب وزع المسئولون الاسلحة على الجنود الذين ما يكاد يتم حشدهم حتى يأتى « الجرخانات » يستعرضونهم ويفتشون عليهم بل عليهم أن ينظروا حتى فى الخيط والابرة ، ومن وجد مقصرا عوقب . أما نساء الجند فكلفن بالقيام بالرعى وما على الرجال من السخرة والكلف حتى يعودوا من الحرب .

ولكى يشرف الخان بنفسه على قوة جيشه ومدى كفاءته وتدريبه ، ولكى يشغل تلك القوات عن الاقتتال والانقسام فيما بينها ، رأى أن يسوقها جميعا الى اختبار واحد تتحد فيه أغراضهم ، وتأتلف له قلوبهم ، وينسون به أحقادهم المستعمرة • ذلك الاختبار هو «موسم الشتاء» حيث يبقى الناس فى خيامهم حول مدافئهم ، فتدور بينهم الفتن والضغائن التى يتبعها القتل والاقتتال • وموسم الشتاء هو موسم القنص على أوسع نطاق ، والعدو فى أثر التياتل والظباء والغزلان والحمير الوحشية البرية • ولقد ادرج جنكيز خان هذا الموسم ضمن منهاج الياسة فحدد بدءه بهطول الجليد ونهايته بظهور الحشائش •

واذا حل الربيع عقد مؤتمرا عاما يحضره كافة القواد والضباط العظام ليتناقشوا فيما يعرض عليهم جنكيز خان من المواقف السياسية والمطالب الحربية ، وكان يحذرهم من التغيب عن مجلسه فيقول « ان كل من تحدثه نفسه بالبقاء فى مخيمه بدلا من المجىء الى المؤتمر للاستماع لاوامرى فمصيره مصير الصخر يلقى به فى قاع البحر أو السهم فى وسط الغاب » •

هكذا ضمن الامبراطور القدير أن يدرب جيشه سنويا تدريبا موحدا ، وأن يمنع الفتن والقلاقل بين رعاياه • واستمر يعالج أمور جيشه المنظم من الفرسان الثقيلة القادرة على الانتقال بخفة وسرعة بين مرتفعات آسيا وسهولها وهضابها ووهادها ، وعلى عبور أنهارها وبحيراتها ، تلك الجحافل التى لم يكن فى التاريخ مثلها الا جحافل الفرس، غير أن هؤلاء كانوا يفتقرون الى مهارة المغول فى استخدام القوس مقرونة بشجاعتهم الوحشية • ولقد كان قيصر والاسكندر مدينين بالكثير لاسلافهما ، فقد أتقن الرومان فن تنظيم الكتائب المعروفة «باللجيون» وابتدع المقدونيون كتائب «الفالانكس» • أما امبراطور المغول فقد أنشأ بنفسه جيشه وأداته الحربية •

•

لقد استطاع جنكيزخان بحكمة الياسة وقوة الجيش أن يسوس رعاياه وأن يؤلف منهم امبراطورية خلدت مئات السنين من بعده ، ثم

اتسعت أرجاؤها وامتدت رقعتها حتى شملت الصين شرقا وأسوار فيينا غربا ٠

وحدث ذات يوم أن دخل عليه رجل من اليوغور كان فى خدمة أحد زعمائهم وكان يضم قبضته على شيء غريب مصنوع من الذهب ، فلما سأله عن ذلك الشيء قال أنه خاتم مولاه الذى لا يمكن تحصيل العشور الا بأوامره ممهورة بهذا الخاتم دلالة على صفتها الملكية ، فأمر جنكيز خان بصنع خاتم له فى الحال ٠

ولعل أغرب قوانين الياسة ، ذلك القانون الاول الذى استهل به شريعته اذ يقول «الله واحد خالق السماوات والارض مانح الخير والشر والغنى والفقر واليسر والعسر واهب الحياة والموت يفعل ما يشاء ٠ الله القوى ذو القدرة الشاملة المطلقة من كل القيود »

كان جنكيز خان يدين بوحدانية مطلقة ولكنه لا يتبينها الا فى السماء وقوة الروح العلى التى تسير السحاب وترسل البرق والرعد ومع ذلك فقد كان المغول يتمتعون بالحرية الدينية المطلقة فكل من انتحل مذهبا لم ينكره عليه أحد ، لكل اله يعبده كيف شاء متى شاء ٠ وكان جنكيز خان يعظم رجال الدين ورؤساء الملل ويقدم احتراما خاصا لهم حتى أنه أعفاهم من ضريبة العشور وأسقط المؤن والكلف عن الرؤساء الدينيين والعلويين المتصلين بروح الله وعن الفقهاء والزهاد ، وبذلك منع فوارق العقائد الدينية بين رعاياه وأخمد جذوة العداء المذهبى المستحكم فى النفوس ٠

وكان جنكيزخان يستطلع الغيب بواسطة العرافين قبل دخول المعارك ومع ذلك كان يمضى قدما حسبما قرر لنفسه دون الاستماع لتحذيرهم ٠

قالت الياسة :

« تسقط المؤن والكلف عن الرؤساء الدينيين والعلويين والفقهاء والزهاد والمؤذنين والاطباء وأرباب العلوم على اختلافهم ومغسلى الموتى ومن جرى هذا المجرى ٠

« ويعاقب بالموت كل من حاول أن ينصب من نفسه امبراطورا مهما كانت شخصيته الا اذا كان قد سبق انتخابه بواسطة الامراء والخانات والضباط ونبلاء المغول في جمع عام » ٠

« ويحرم على زعماء الشعوب والقبائل التابعة للمغول أن يحملوا ألقابا ، كما أنه غير مسموح بمهادنة أى ملك أو أمير أو شعب لم يخضع للمغول » ٠

وكان المغول من أعظم شعوب العالم فى طاعة سلاطينهم وأمرائهم لا لمال أو لجاه بل ذلك دأبهم ٠ فاذا كان أمير فى غاية القوة والبطش وبينه وبين السلطان ما بين المشرق والمغرب ثم بعث السلطان يستقدمه أو بعث رسوله اليه ليعاقبه فان ذلك الامير يلقى بنفسه بين يدى الرسول ذليلا ليوقع عليه الجزاء حتى ولو كان القتل ٠ ومن عاداتهم وتقاليدهم أن لا يتردد أمير على باب أمير آخر ولا يتغير عن موضعه المعين له فى مجلس الخان أو عند استعراضه الجند ومن يفعل ذلك يقتل أو يعاقب ٠

ولقد طالما أعلن الخان سخطه على كل ابن عاق لوالديه ، أو أخ صغير خارج عن طاعة أخيه الاكبر ، أو عن زوجة لا تخضع الخضوع المطلق لزوجها ، أو عن غنى لا يمد يد المساعدة للفقير ، أو عن أحد من العامة لا يحترم القادة والزعماء ٠

وجاء أيضا « تستمر قواعد تنظيم جنود الجيش الى عشرات ومئات وألوف وعشرات الالوف كما هى نافذة المفعول حيث أن هذه القواعد تساعد على تعبئة الجيش فى زمن وجيز » ٠

« وعلى كل جندى أن يتسلم أسلحته من الضابط المنوط به حفظها بمجرد اعلان النفير ، كما عليه اعداد أسلحته للحرب وعرضها على ضابطه للتفتيش عليها قبل المعركة » ٠

« ويعاقب بالموت كل من يشرع فى نهب العدو قبل ان يصدر القائد العام الامر بذلك ، على إن يصبح لكل جندى نفس الحق الممنوح للضابط بمجرد صدور الامر فيحق لكل جندى الاحتفاظ بما استولى عليه ما دام قد قدم نصيب الامبراطور من الغنيمة ، فقد جعل

على الجند اذا قدمت من القتال كلفة يقومون بها للخان » . ومع ذلك كان جنكيزخان سخيا يجزل العطاء لقواده الذين وقفوا معه فى محنته وأوقاته العسيرة ، فمنحهم رتبة الطارخان ، ورفع رتبهم فوق جميع الرتب ،وصرح لهم بالدخول عليه فى بلاطه وقتما شاءوا دون الاجراءات الرسمية ، كما أعطاهم حق اختيار نصيبهم من غنائم الحرب قبل غيرهم ، وأعفاهم من العشور ، وتم سخاؤه عليهم بترك الحرية التامة لهم فى اختيار ما شاءوا من الاراضى التى يكسبونها من العدو ليتملكوها هم ومن جاء من بعدهم من أولادهم حتى الجيل التاسع . وكان من أثر هذا السخاء والبذل الكثير أن التفت قبائل آسيا وأشد عناصرها قوة وصلابة حول الغازى الكريم متناسين أحقادهم وقد تآلفت قلوبهم فى سبيل رضائه وانتظروا ما تأتى به الاحداث لهم !

واذ كان موسم الصيد ابان فصل الشتاء بغية المحافظة على مستوى التدريب بالجيش ،أصبح محرما على كل مواطن أن يقتل الغزلان والوعول والايائل والارانب البرية والحمير الوحشية وبعض أنواع الطيور ما بين شهرى مارس واكتوبر .

« ولذبح الحيوان تلف قوائمه ويشق جوفه ويدخل أحدهم يده الى قلبه فيمرسه بيده حتى يموت أو يخرج قلبه ، ومن ذبح الحيوان من رقبته ذبح المسلمين ذبح ، كما أحل للجميع شرب دم الحيوان وأكل أحشائه ، وكان ذلك محرما من قبل ويبدو أن الغرض من سن هذا القانون هو توفير الطعام وقت المجاعة » .

« وكل رجل لا يشترك فى القتال عليه أن يؤدى للامبراطورية خدمة ما دون مقابل لفترة معينة » .

« وكل من يضبط متلبسا بسرقة جواد أو عجل أو مايماثلهما يكون جزاؤه الموت ويقسم بدنه نصفين . اما السرقات الاقل قيمة فيكون جزاؤها بقدر قيمة الشىء المسروق عددا من الاسواط يبدأ بسبعة ويصل الى سبعمائة ، وان كان من الجائز استبدال العقاب البدنى بدفع تعويض يبلغ تسعة أضعاف قيمة الشىء المسروق » .
« ولا يصح لاى مواطن فى الامبراطورية ان يتخذ مغوليا

خادما أو عبدا له . وعلى كل رجل أن يؤدى الخدمة العسكرية الا في بعض الاحوال الشاذة النادرة » .

« ومن وجد أسيرا أو هاربا أو عبدا ولم يرده قتل . ومن أطعم أسير قوم أو سقاه أو كساه بغير أذنهم قتل » .

« وكل رجل له حق شراء زوجة ، وله أن يتزوج من أختين ويتخذ أكثر من محظية . وواجب النساء العناية بالاملاك ، ولهن مطلق الحرية فى بيعها او شرائها . أما الرجال فينحصر عملهم فى الصيد والقتال ، والذرية التى تنجبها المحظيات هى ذرية شرعية .. ولنسل الزوجة الاولى مكان الصدارة بين بقية الاولاد ، ويكون لهم وحدهم حق الارث » .

« وأما الزانى والزانية فجزاؤهما الذبح » .

واذا شاءت أسرتان الاتحاد عن طريق الزواج وكان الطفلان المزمع زواجهما ما زالا صغيرين فهذه الزيجة شرعية سلمية ما دام أحد الطفلين ذكر والاخر أنثى . فاذا مات أحد الطفلين استمر عقد الزواج سارى المفعول » .

« ومن وقع حمله أو قوسه أو شىء من متاعه وهو يكر أو يفر فى حالة القتال وكان وراءه أحد فان عليه أن يترجل ويناول صاحبه ما سقط منه فان لم يفعل قتل » .

« ولا يأكل أحد من يد أحد حتى يأكل المناول منه أولا حتى ولو كان اميرا ومن كان يناوله أسيرا » . وواضح أن مثل هذا القانون هو من باب الحيطة والحذر بين قوم جبلوا على الغدر والخيانة

« ولا ينفرد أحد بأكل شىء وغيره يراه بل عليه ان يشركه معه فى أكله ، ولا يجوز أن يتمتع أحد بالشبع على حساب أصحابه بل يقسم الطعام بالتساوى ، ولا يجوز أن يتخطى أحد نارا أو مائدة أو طبقا يؤكل عليه ، ومن مر بقوم وهم يأكلون فله ان ينزل ويؤاكلهم من غير اذنهم وليس لاحد منعه »

« ولا يدخل أحد يده فى الماء بل يتناول الماء بشىء يغترفه به » ويظن أن هذا القانون قد استن مما عرف عن عادة المسلمين فى الوضوء ومحافظتهم على طهارة الماء .

« ويحرم غسل الثياب بل يجب أن تلبس حتى تبلى . وجميع

الاشياء طاهرة وليس ثمــة شيء نجس • ومن بال فى المـــاء او على الرماد قتل • ومن اعطى بضـاعة فخسر ثم أعـطى ثانيا فخسر ثم أعطى ثالثا فخسر قتل » •

« ان مثل الرجل الســكران كمثل من يصاب بضربة عـلى أم رأسه سرعان ما تغــادره حكمته وتفارقه كفـــاءته ، فاياك اياك وشرب الخمر اكثر من ثلاث مرات فى الشهر ، وان كان الافضـل الا تجرعها على الاطلاق ، ولكن من ذا الذى يقدر على ذلك ؟ »

وكان المغـول يخشون الرعـد ويرتعدون منــه فرقا حتى أن الخوف كان يبلغ بهم حدا يجعلهم يقذفون بأنفسهم الى الانهــار والبحيرات لاتقاء غضب السماء ، ولهذا السبب نجد الياسة تحرص على تحريم الاستحمام او مجـرد لمس الماء خلال العواصف المصحوبة بالرعد والبرق ••

ومع أن جنكيز خان نفسه كان يثور ثورات عنيفة كلما استـولى عليه الغضب او استفزه أمر من الامور ، نراه يحرم شـعبه احلى هـواية يتعـلق بهـا وأعنى بهـا « العنف » فحرمت الياسة القتال بين المغول وبعضهم البعض •

حقا لقد كانت الياســة شريعة لتنظيم العلاقات بين الناس أكثر منها قانونا لتنظيم شئون أملاكهم •

فكان المرء لا يدان الا اذا ضبط متلبسا بجـــريمة ، اللهم الا اذا اعترف • وكان الصـــدق ديدن أولئك المغـــول الاميين ، وكانت كلمتهم فيما بينهم مقدسة ، لهـا جلالها وتقديرها • فكثيرا ما كان المغولى يعترف بجرمه من تلقـــاء نفسه اذا ما ووجه بالتهمــــة المسندة اليه • وحدث فى أحـوال كثيرة ان قصد احــد الرعايا الى الخان ليطلب اليه توقيع الجـزاء عليه نظير جرم قد اقتــرفه ولم يضبطه احد متلبسا به •

وكان بالمغـول ازاء غيرهم من الشعوب كبر وغطرسة لا يحتملان ينظرون الى من سواهم من البشر مهما ارتفعت طبقاتهم نظـــرة الاحتقار والازدراء • ولـذا كان ذبحهم لغيرهم من البشر من وجهة نظرهم امرا جد بسيط بل جزاء عادلا ••• !

نحو الشرق



كان تيموجن رغم سيطرته على ربوع الجوبى وتسميته باسم جنكيز خان فى مجمع « الكورلتاى » كان مايزال يحمل لقب « القائد ضد الثوار » ذلك اللقب الذى منحه اياه امبراطور الخطا الذهبى ٠

ولقد كانت الفوضى والاضطراب سمة الأقاليم الشرقية من آسيا خلال القرن الثاني عشر ، وظلت الأسرات المختلفة تتبادل عرش الصين بالقوة حتى سادت أسرة سونج مقاطعات الصين ووحدتها فيما بين عامى ٩٦٠ ، ١١٢٧ م ٠ وكانت أسرة سونج فى أواخر

أيامها في حالة انحلال شديد وتدهور مطلق مما أطمع فيها قبائل الخطا القاطنة في جنوب منشوريا والاقليم المعروف باسم لياو أو كوريا الحالية ، ففرضوا على أسرة سونج الجزية السنوية واستولوا على الجزء الشمالى من بلاد الصين، وأرغموا أسرة سونج على السماح لهم بالسكنى جنوب سور الصين العظيم ، وتسمت تلك الأسرة باسم « لياو » أى الحديد • غير أن أولئك البدو البدائيين سرعان ما انصرفوا الى اشباع شهواتهم وملذاتهم بعد انغمارهم فى تيار المدنية الذى جرفهم حتى أفقدهم شدتهم وأضعف روح القتال فيهم، فانتابهم الخور والاستكانة في حين بدأت قبيلة « الكين » أى الذهب تظهر شوكتها وبطشها ، وكانت تسكن احدى مقاطعات منشوريا وتدين بالطاعة لأسرة لياو • وبحكم العادة انقلب الكين على أسيادهم من أسرة لياو واستولوا على دولة الخطا عام ١١٢٥ م وخضعت لهم بالمثل أسرة سونج وراحت تدفع لهم الجزية التى كانت تدفعها لأسرة لياو من قبل•

وأما كلمة « الخطا » فمشتقة من كلمة « خطاى » وهو الإسم الذى أطلقه التتار على الصين • ومازال سكان وسط آسيا وروسيا يطلقون على الصين اسم الخطا حتى الآن •

وكان من المتبع لدى ملوك الخطا أن يفرضوا الضرائب على البدو القاطنين خارج السور العظيم • وكان هؤلاء البدو يدفعون تلك الجزية صاغرين اذا أحسوا قوة الحكومة وبطشها ، وكانوا يتناسونها أو يقومون باغارة على السور العظيم اذا استشعروا ضعف الحكومة وخورها ، فيروح هؤلاء الحكام يستميلون البدو بالهدايا والهبات من الغلال والمنسوجات الحريرية والفضة والخمر المعتقة • وهكذا كانت الحال بين البدو وحكام الخطا فى شد وجذب ، لا يعدم حكام الخطا الوسائل التى يرغمون بها البدو على دفع العشور ، ولا ينسى البدو تلك الهدايا الفاخرة التى كانت تصلهم من حكام الخطا كلما أشعروهم البطش والسطوة •

كان بدو شرق الجوبى من رعايا الامبراطور الذهبى اسما ، ذلك الامبراطور الذى كان يولى مندوبا من قبله ليحكم تلك الربوع التى أصبح جنكيز خان خاقانا عليها بقوة السيف ودهاء السياسة •

اذن فقد صار جنكيز خان بالتبعية أحد أتباع الامبراطور الذهبى بعد أن كان حليفه يوما من الايام ·

ترصد جنكيز خان أحوال امبراطورية العاهل الذهبى وأخذ يفحص الموقف السياسى ، فوجد أن الامبراطور الذهبى فى حرب عوان مع بيت « سونج » العريق فى القسم الجنوبى من الصين · وفى فورة من الفورات استنجد الامبراطور بالمغول ، فأرسل الى جنكيز خان يطلب منه العون ، ولبى الأخير النداء واستجاب لطلب الامبراطور ، وأمده ببضع فرق مجهزة على رأسها شيبه نويون ، ذلك القائد المغوار الجوال ولقد أبلى فرسان المغول ما استطاعوا البلاء فى أرض الخطا التى أذهلتهم ثروتها وجمال نسائها ، والتى فحصت عيونهم الشاقبة طبيعة أراضيهم ومداخل مدنهم ومخارجها ، وطرقت حوافر خيلهم طرقاتها وممراتها ووديانها وهضابها · لقد كانوا بدوا رحلا يقدر ثراؤهم بعدد قبابهم ، أما أهل الخطا فكانوا أهل علم وحضارة ومدنية · كانت الأمور خلف السور العظيم تختلف اختلافا بينا عما هى فى خارجه ·

انتهت المهمة بخيرها وشرها و عاد الفرسان وعلى رأسهم قائدهم الصوال يحملون قصصا عجيبة وأخبارا مثيرة · فقالوا أن للقوم هناك بحيرات تسمى بحيرات المتعة نصبوا عليها عربات من الخشب ذات ستائر ودسر، والقوم يكثرون التأمل ويطيلون التفكير ولهم حكمة وكياسة ، ويدمنون الشراب على أنغام أجراس من الفضة يوقع أنغامها الشجية أفتن القيان · وهم يلبسون الحرير الموشى ويمتلكون العبيد الذين يعدون حفاة بكسائهم القطنى أمام أسيادهم وهم يحملون لهم المظلات اتقاء الشمس ·

أما قصصهم عن الحرب والقتال فكانوا يقولون أن للقوم فيهما باعا وعلما كبيرين · وذلك أنه منذ القدم والقوم يجيدون تصويب السهام ورياضة الخيل ، ولكن ما أن تكاثر الناس حول المدن حتى أقاموا الأسوار لحماية أنفسهم وركنوا الى الدعة والحياة الرغدة ، فقسموا أنفسهم الى طبقات ، منهم الموسرون والعلماء والتجار والصناع والعبيد والسحرة والنبلاء والحكام والفلاحون والجنود وعلى رأس الجميع الامبراطور « ابن السماء » يحيط به بلاطه « سحب السماء » ·

وكان لأهل الخطا عربات للقتال تجرها الخيول السريعة ، غير أن تلك العربات كانت عديمة النفع ، انما كان لهم أقواس بلغت من قوتها وشدتها أنها تحتاج لعشرة رجال يشدونها ليطلقوا سهامها الثقيلة الجبارة ، ذلك بالاضافة الى ذلك الجهاز المعقد العجيب التركيب الذى يقذفون به الأحجار ، وذلك الجهاز الآخر قاذف اللهب والحمم ، واكتشافهم سر صناعة البارود واستخدامه فى القتال • لقد كانت آلات الحرب عندهم تقوم على دراسة علمية واسعة حتى أنهم ابتكروا تلك العربات المدرعة التى صالت وجالت فوق برارى آسيا فعجمت من قبل عود المغول الثائرين والبدو المغيرين وكان من عاداتهم عند الخروج للملاحم أن يقيموا معبدا فى كل معسكر يعتكف فيه القائد العام ليضع خططه وينسق تدابيره للحرب دون أن يعكر صفو تفكيره أحد •

كانت قوة جيوش الخطا تكمن فى حسن تدريبها واحكام تعبئتها ، أما نقطة الضعف فيها فهى الامبراطور الذى لزم عاصمة ملكه « ين كنج » تاركا أمر القيادة لأتباعه ، بينما قوة البدو خارج السور آخذة الزيادة والعنف تحركها عبقرية قائدهم الفذ •

وروى الفرسان العائدون فيما رووا وصف تلك الطرق المرفوعة على عمد من الحجر ، والمدن المحاطة بأسوار عالية لن تتطاول الخيل الى اجتيازها ، وبدلا من نظام المنشدين المعروف لديهم كان لدى أهل الخطا شعراء من الشبان يقومون بتسلية الأمراء والحكام والأثرياء ، لا بترديد أساطير السابقين ، انما بوشى كلمات لطيفة عن وصف جمال النساء وجاذبيتهن على ستر من الحرير • حقا ان بلاد الخطا لعالم مغر عجيب •!

أثارت تلك الأقاصيص والأوصاف شوق ضباط المغول وفرسانهم الفقراء القائمة حياتهم على السلب والنهب الى رؤية تلك البلاد وجلب ما يشتهون منها • وكثيرا ما سعوا لدى جنكيز خان ليغيروا على تلك البلاد ليجلبوا منها المال والنساء والخيل ، غير أن القائد المحنك ما كان ينقاد وراء شهوات رجاله المتوحشين وينساق لها ، فلو فعل وهزم جيشه في الشرق لكان ذلك ايذانا بتدهور

سمعة جيشه الرائعة ، ذلك بالاضافة الى أن مثل تلك الهزيمة ستغرى أعداءه بالهجوم عليه وغزوه فى عقر دولته الناشئة ٠

ولقد كانت الجوبى كلها ملك قبضته ، ولكن خصومه كانوا يحيطون به من الجنوب ، حيث « مملكة هيا » مملكة اللصوص وقطاع الطرق غريبى الأطوار التى يعيش أهلوها فى جوف هضاب التبت ومغاورها ، ومن الغرب حيث « مملكة الخطا السوداء » وهى امبراطورية جبلية أطلق أميرها عليها اسم « الخطا » ، وأضاف المغول كلمة « السوداء » علامة البغض والكراهية ، وكانت تضم قبائل التركستان وتقف حاجزا يفصل العالم الاسلامى عن قبائل المغول فى الشرق ، أما وراء الخطا السوداء فتكمن جيوش القرغيز المتجولين التى ظلت بمنأى عن قبضة المغول القاضية ٠

بدأ جنكيز خان يتجسس أخبار أعدائه ، ويتحسس مكامن القوة فيهم ، ويتلمس مواطن الضعف بهم ، فأرسل جيوشا ثلاثة أحدها بقيادة شيبه نويون ، والآخر برئاسة سابوتاى ، والثالث دفعه هو نفسه نحو مملكة هيا الهمجية ، ففاجأهم بثلاث غارات عنيفة عجم فيها عودهم وأرغمهم على الخروج له طالبين الصلح ، ولما كانوا من نفس الجنس فقد صالحهم وأخذ فى نهب العدو قبل أن يصدر عليهم العهد والمواثيق بالاتفاق والتآزر وتزوج باحدى فتيات الأسرة الحاكمة فيهم ، أما جيوشه الأخرى فقد تصالحت هى الأخرى مع القرغيز والخطا السوداء ٠ وهكذا نجد أن شدة خوف جنكيز خان من غدر جيرانه كما هى العادة عندهم جعله يلجأ لتلك السياسة العنيفة حتى يكتسب صداقة جيرانه والتحالف معهم والاطمئنان من جانبهم ٠ ولم يدفع جنكيز خان الى تلك المعارك الثلاث خوفه فقط ، أو رغبته فى تأمين اجنابه ، بل أيضا لكى يتيح لجيوشه فرصة للتدريب واكتساب الخبرة بطبيعة البلاد المجاورة وطرق القتال فيها ، هذا الى أن تلك الحرب محك يستطيع به أن يدرك صلابة قواته ومقاومتها فى القتال ٠

ولقد خرج جنكيز خان من تلك المعارك بحلفاء جدد وجنود كثر أعجبوا ببسالته وبسالة قواده فانضموا اليه وتطوعوا لإفتدائه بأنفسهم ٠

وشاءت الاقدار أن يقضى امبراطور الخطا نحبه ويولى ولده الوسيم الطلعة البهى البزة الأرستقراطى النزعة عرش أبيه ، عرش « الكين » فاتخذ لنفسه لقبا مهيبا لا يتناسب وشخصيته المغرورة أو كفاءته المنقوصة ٠ كان يهوى النقش واللهو والدعة ، أما الصيد فكان يهواه لا لأنه يغرس فى النفس النزعات الحربية المثالية ، ولا لأنه يخلق فى المرء روح الجهاد والمثابرة والنضال ، ولكن لانه مضيعة للوقت وتغيير فى نظام الحياة المتواتر الرتيب الممل ٠ هكذا كان « واى وانج » أو « ابن السماء » الغر التافه ٠

وقام الحكام من فورهم كما هى العادة يجمعون الضرائب للملك المهيب ، وأرسلوا رسلهم الى كل البلاد الخاضعة لنفوذه الرهيب ٠ ولقد أرسلوا فيمن أرسلوا رسلا الى جنكيز خان الحاكم القابع خارج السور العظيم والذى يحمل لقب « القائد ضد الشوار » ٠ ارسلوا له يطالبونه بالضرائب للملك الجديد ٠ ووصل الرسول وهو أحد ضباط الجيش الى جنكيز خان فى مخيمه بهضاب الجوبى ٠ وكان جنكيز خان قد علم بوفاة الملك الذى كان قد تحالف وعقد المواثيق معه ، وتولى ولده الغرير . وليس بينه وبين ابنه عهود وليست بينهما أدنى مواثيق فهو فى حل من الخضوع له ، وان له لحقا فى عدم طاعته بل والخروج عن سيطرته لا سيما وهو مخلوق غير جدير باحترامه ٠

نزل الرسول من فوق صهوة جواده وسلم جنكيز خان اعلان اعتلاء الملك الجديد العرش ومباشرة سلطانه ٠ وكان فى عرفهم اذا ما جاء رسول من قبل الملك أن تقدم لذلك الرسول كل واجبات الاحترام والاجلال التى تقدم للملك وكان على جنكيز خان أن يستقبل الرسول بالركوع فوق ركبتيه وأن يتوجه بوجهه نحو الجنوب خضوعا واجلالا ، ولكن المغولى المتمرد لم يكلف نفسه ان ينحنى الى الرسول بل تناول منه الكتاب وبادر بسؤاله عن نفسه ثم عن امبراطوره فلما سماه له قال جنكيز خان هازئا « أن شخصا أبلها مثل واى وانج ما كان يستحق اعتلاء العرش ، ومثلى لا يخضع له » ٠

كان ذلك القول يعنى المبالغة فى احتقار ابن السماء ويعنى كذلك الحرب والوقيعة حتى يفىء أحدهما للآخر • وما لبث جنكيز خان ان ارسل يستدعى قواده لدرس الموقف وتقرير السياسة الواجبة ازاء ابن السماء • وكان أفق الغازى أوسع من ان يركز عداوة ابن السماء عليه وحده فدعا حلفاءه الجدد ليحضروا نفس المؤتمر ، وتدارس المجمع الموقف وقرروا خطتهم التى أجبرتهم على التعاون مع جنكيز خان ضد الامبراطور ابن السماء •

وفى اليوم التالى أستدعيت بعثة واى وانج أمام الخان فأعطاهم رسالة الى سيدهم ، رسالة قاسية اللهجة صريحة الاهانة ، وعادت البعثة بالرسالة الى امبراطورهم الذى استدعى الحاكم الرمزى للربوع الغربية خارج السور العظيم وسأله عن المغول فأجاب الحاكم « انهم يا مولاى يصنعون السهام ويجمعون الخيل، وطبيعتهم القتال وشيمتهم الغدر» ثارت ثائرة الامبراطور اللين العريكة واشتد به الغيظ وبلغت به الفورة حدا جعله لا يخلص من كرب نفسه الا بقذف الحاكم فى غياهب السجن •

علم جنكيز خان بثورة ابن السماء وتوقيع العقاب بالحاكم الرمزى للربوع الغربية فتوجس منه خيفة وأرسل رسله وهداياه يستميل بها صاحب الخطا •

وكان جنكيز خان على علم بمجريات الامور ، وعلى بينة بطبيعة الاحوال فى الصين بأقسامها أو ممالكها الثلاث ، فلما أرسل رسله الى أسرة لياو « الحديدية » ذكرهم بما كان بينهم وبين أباطرة الخطا من أسرة الكين « الذهبية » وتبودلت البعوث ، واتفق سفراء جنكيز خان لدى أسرة لياو على أن يتحالفوا ويتعاونوا سويا ضد الخطا ، وعاهد السفراء اعضاء الاسرة على ان يمنحهم جنكيز خان كل ممتلكاتهم القديمة ، ووقع عقد الاتفاق باسالة دم المتحالفين ومزجه ببعض ثم تكسير السهام على عادة القوم •

غير أن ذلك لا ينسينا أن الامبراطور ابن السماء فى ثورته على كتاب جنكيز خان أمر بخروج بعض القوات المسلحة لقتال ذلك الحاكم السفيه المتمرد وتأديبه • فأرسل جنكيز خان قواته لتناضل

قوات الخطا جيدة التسليح ، وكان قد بلغ جنكيز خان ما بلغه من الاخبار عن مناعة السور العظيم ، وأدرك بما قدر له الادراك قيمة ذلك الحاجز المنيع المقام من الصخر الصلب والآجر المتين القديم . فذهب يتحسس أبراجه الشاهقة الحاكمة على مساحة واسعة من الفضاء ، واخذ يتجول مقاربا السور حتى يلامسه تارة ويفارقه حتى يختفى عنه تارة أخرى . كان يتحسس قوة بواباته ويتلمس صلابة حوائطه ، فأدرك أنه لا قبل له باقتحام ذلك السور العظيم ، ولا قدرة له على اختراقه ، فالولوج من بواباته هو أسلم الوسائل وأضمن الطرق للنفاذ الى حيث قلب أعدائه .

لم يهم جنكيز خان بقتال عدوه المتحضر الجيد التسليح بكل قواته كما كان يفعل من قبل بل نراه يبعث جواسيسه من التجار ، والفرسان الذين ادعوا الفرار من ظلمه ، ورجاله الذين سبق لهم القتال فى داخل السور العظيم لمعاونة الامبراطور السابق ضد أسرة سونج . بعث جنكيز خان بكل أولئك فقبضوا على بعض الجنود واخذوهم أسارى ليستدل منهم جنكيز خان عن مدى قوتهم وتسليحهم وأسرار سياستهم وطرق النفاذ من السور العظيم ، وغير ذلك من الامور التى تهم القائد معرفتها حتى يكون على بينة من أمره قبل وضع الخطة واحكام الخدعة . ثم اتبع ذلك بموجة من الجنود الكشافة كل زوج أثنين اثنين انبثوا امام مواجهة جيش جنكيز خان . تقدموا حتى حدود السور العظيم وهم يبلغونه اولا بأول عن طبيعة الارض ووديانها وخيراتها ونهيراتها وممراتها والنقط الحاكمة فيها ، ثم ارسل فى أعقاب تلك القوة ثلاث فرق هى مقدمة قواته ، وبلغت قوة المقدمة وحدها ثلاثين ألفا من أفرس الفرسان وأجود الجياد ، لكل فارس جوادين على أقل تقدير ويقودها كلها موهولى الحكيم وشيبه نويون الجرىء وسابوتاى القدير .

تحسس الكشافة مواطن الضعف فى السور ، واشترى الطابور الخامس ضمائر حراس بعض البوابات ، فما كادت المقدمة تصل حتى عبرت الحاجز المنيع دون مقاومة . وفى أعقابها دلفت القوة الرئيسيه مكونه من جناحين ، كل جناح منهما خمسون ألفا من

الفرسان . وقلب يضم مائة الف من رجال قبائل يكا التى يتزعمها جنكيز خان ، ويضاف الى تلك المائة الف ، ألف أخرى هم حرس الخان الخاص وكلهم فرسان من أشجع الشجعان يركبون جيادا سوداء ، وقد عزموا الا يموتوا الا دفاعا عن الخان . ولقد تولى الخان قيادة القلب واتخذ ولده ياورا يتعلم منه الفن الحربى ويتلقى عنه التجربة وينمى فيه ملكة القيادة وادارة المعارك .

وقد يثير القارىء ذلك التنظيم الدقيق المتين القائم على أصول الحرب وفن القتال السليم . وقد يعجبه أن يسبق جنكيز خان العالم فى تنظيمه وتعبئته للجيش بسبعمائة من الاعوام ، ولكن الذى يزيد من عجبه واعجابه هو أن الخان رأى بخبرته أن الطبول والابواق يضيع صداها فى حومة الوغى ، كما أن العدو قد يفهم ويفسر معانيها فيفعل ما يضادها ، لذلك أدخل جنكيز خان نظام التخاطب بالاعلام وبالسعاة المتطين أفضل الجياد . فكان الاتصال محكما بين الكشافة والمقدمة ، وبين المقدمة الاساسية فى القلب ، وبين القلب والجناحين . كان الجيش كله يعمل كوحده واحدة . ثم أن مطالب الحروب الحديثة المضنية انشاء قواعد التموين والامداد والاعاشة على طول امتداد محور التقدم للجيوش المقاتلة غير أن الخان لم يعبأ بل لم يفكر فى تلك القواعد ، وظنى أنه لم يكن هناك ما يبرر انشغال ذهن القائد المحنك حتى بمعنى تلك العبارة ، فقد كان كل فرسانه يقتاتون على اللحم المجفف واللبن الخاثر الذى يحملونه تحت السروج وعلى أجنابها، وكذلك على ما ينهبونه أو ما يصيبونه من الحيوانات .

دلفت القوة داخل السور فأباد الفرسان جموع العدو من الجنود المشاة الذين كانوا يدافعون عن السور ووطئوهم بالخيل ، فانهار ول خط دفاعى بأسرع مما كان يتصور الناس وفى وقت أقصر مما كان يتخيله قواده الغائبين فى مراكز قيادتهم الخلفية الآمنة . أصاب الفزع والهلع القوات خلف السور فانسحبوا الى مدنهم المسورة فى الداخل كما هى عادتهم منذ الازل اذ كلما دهمهم عدو أسرعوا الى مدنهم الداخلية وكمنوا خلف سوارها ورحو يصلون عدءهم وابلا من السهام من خلف السور ويطلقون عليهم الحمم من قاذفات اللهب حتى يستسلم عدوهم أو يعود أدراجه .

هكذا انسحب المدافعون خلف السور الى المدن الداخلية وقد عقدوا العزم على الدفاع حتى آخر رمق ، فقد حز فى نفوسهم قسوة عدوهم الوحشى وشدة بطشه .

غير أن جواسيس المغول وفرسانهم المتنكرين كانوا قد بثوا الذعر فى قلب الناس وزعزعوا ثقتهم فى قوادهم وقدرة جيوشهم، فحل الهلع فى القلوب وحط اليأس فى النفوس ، وزاد الطين بلة تلك الاخبار التى تواترت عن ذلك الجيش الذى بعثه الامبراطور وقد عين له أحد القواد المشهود لهم بالسمعة الطيبة لصد الغزاة أنه قد ضل طريقه الى حيث يتجمع المغيرون ، فاما علم شيبه نويون بأمره طفق يبحث عنه فى تلك المنطقة التى كان قد سبق له رؤيتها والجوس خلالها ، فهو مازال يذكر طرقاتها وممراتها ومابرح يلم بطبيعتها ومخابئها ، فبعث جواسيسه وكشافته ليدلوه على مكانه ، وسرعان ما وصله الخبر اليقين عن محل عدوه ، فأسرع قاطعا المسافة بينه وبين عدوه الضال فى حلكة الليل . ومع بزوغ الفجر كان الداهية قد أحاط بالجيش التائه وقائده اليائس فأطبق عليه من خلفه وجنبه ، وأباده عن آخره ما خلا بضع شراذم من الفرسان فرت طائشة يائسة نحو داخل البلاد تحمل فى مظهرها جراثيم اليأس وتدق سنابك خيلها علامات الذعر والرعب ..

صعق القوم من الاخبار السالفة وجزعوا من الاخبار اللاحقة ، وحل بهم اليأس ومضوا فى اثر بعضهم يتسابقون نحو مدنهم الداخلية المحصنة ، والمغول يتجولون وينتقلون من بلد الى آخر مكتسحين البلاد ، مدمرين المدن ، زارعين بذور السخط والنقمة ، وتجمع الناس وراء أسوار المدن الداخلية يحتمون بها ويتلمسون النجاة من خلفها .

واستمر المغول فى زحفهم داخل البلاد ، وكلما توغلوا شعر القائد باتساع الميدان وانفساح الارض وقلة قواته وضآلة جيوشه ، فكان فى غارته على المدن ينسفها اذا أحس فى أهلها الخور والضعف، أو يحاصرها بشرذمة من جنوده معتمدا على ما يثبت لدى القوم

من الاوهام والافكار عن مدى بطشهم وخشيتهم وما بنه فى نفوسهم من الخوف والهلع من عنفهم وقسوتهم •

وأصبح الخان ذات يوم فاذا به يوا جه تايتونجفو أكبر مدن الغرب وقد تحصنت صفوة قواتها خلف أسوارها وصمدت تقاومه بعزم وعناد ، وكذلك فعلت ين كنج العاصمة التى التجأ اليها أهل الصين وخيرة جيوشها للدفاع عن امبراطورهم وأم مدنهم ، كما لاحظ الخان أن حاميات تلك المدن تتزايد وتتضاعف يوما اثر يوم بالقوات التى تتدفق اليها من المدن الشرقية والجنوبية التى لم تصل اليها بعد سهام المغول ولم تخضد شوكتهم جحافلهم المدمرة الكاسحة •

لكل هذا ولحلول الخريف بزوابعه وعواصفه الثلجية قرر الغازى أن يعود بقواته الى الجوبى صحراءه الفسيحة الحبيبة الى قلبه حيث قبيلته وعشيرته وأهل بيته من الزوجات الحسان، وحيث تستريح خيوله ويسترد فرسانه قواهم ويتزودوا للغزوة القادمة •

ماكاد يصل المغول الى صحرائهم حتى أخذ أهل الصين يقوون حصونهم ويزيدون أسلحتهم ومجانيقهم ، وجلبوا القوات من كل حدب ، فلما هل الربيع التالى ونفذ اليهم جنكيز خان وجدهم قد سددوا سهامهم على خطوط تقدمه وصوبوا مجانيقهم على الطرق الموصلة الى أسوارهم • كان الغازى يعتقد ان الاسوار وحدها هى العقبة الكؤود فى سبيل فتح تلك البلاد ، أما وقد رصد له العدو كل تلك القوات وجهزها بكل تلك الاسلحة فهى مشكلة عقيمة الحل ، ولبث الغازى محاصرا تايتونج فو ومضيقا عليها الحصار يوما بعد يوم ، ومكررا الاغارة عليها الكرة اثر الكرة حتى اضطر الامبراطور الى ارسال بضعة جيوش لفك الحصار عن تايتونج فو أو لتخفيف الضغط عنها على الاقل ، ولكن الغازى القدير انفتل لكل جيش على حدة فدمره تدميرا وانزل الرعب فى قلوب أهل الصين وجعلهم يؤمنون بأن النجاة والامان آنما يكمنان وراء الاسوار فقبعوا خلفها وجلين

وهبت أولى زوابع الخريف ونسماته الباردة عندما أصيب الغازى بسهم فى ساقه فحمله قومه عائدين به وئيدا نحو صحراء الجوبى بعد ان اقتنع أن لابد من زيادة قواته زيادة ضخمة حتى يتمكن من الاستيلاء على تلك الجدر المحصنة .

وبينما أخفق جنكيز خان فى الاستيلاء على تايتونج فو نجد قائده المحنك شيبه نويون يفلح فى الاستيلاء على مدينة لياويانج فى اقليم لياو ، ذلك أن أهل لياو ومنشوريا الجنوبية كانوا محاصرين بجنود الخطا التابعين لاسرة الكين ، ولقد اشتد عليهم الحصار حتى اضطروا الى الالتجاء الى جنكيز خان ليعاونهم فى محنتهم ، فأنفذ اليهم شيبه نويون الذى حاصر بدوره مدينة لياويانج التى كان يحاصرها جيش الكين وأصبحت المدينة وحولها حلقتان، الاولى من الكين والتالية لها من المغول .

ولما وجد شيبه أن حصاره لم يجد فتيلا انسحب امام أعدائه فجأة تاركا مضاربه وخيامه وثيران عرباته ، واستمر انسحابه يومين بليلة ، ففرح جنود الكين بفرار المغول وفتحوا البوابات وانصرفوا الى نهب معسكرات المغول المهجورة .. وفى الليلة التالية امتطى المغول خيولا نشطة وعادوا الى معسكرهم الذى تركوه من يومين قاطعين الرحلة فى ليلة واحدة مطلقين الاعنة لجيادهم . ومع انبلاج الفجر وصلوا الى معسكرهم ، وما كادوا يفعلون حتى أشرعت السيوف القصيرة فى الايدى وصاحوا صيحة الحرب واندفعوا يذبحون ويفتكون ويعصفون بكل ما يلاقونه أمامهم . كانت مذبحة فظيعة فنى فيها جيش الخطا وبعض أهل لياو ، وفى أسرع من اللمح اندفعت القوات المغولية خلال البوابات التى كانت مفتحة ولم يغلقها حراسها من هول المفاجأة وروعة الصدمة .

كانت قوة الصين تكمن فى تلك العقيدة الراسخة والمبدأ الثابت لديهم وهو الدفاع عن الامبراطور وافتدائه ، وكذلك فى الحوائط ومناعتها . وما كان جنكيز خان ليستطيع ترك حاميات تحاصر مدن الخطا المنيعة ، فهى بالاضافة الى مناعتها كثيرة العدد متباعدة المسافات مما يستلزم عددا عظيما من القوات وكمية هائلة من المعدات ومقادير عظيمة من التموين . فاستمر جنكيز خان يشن غاراته

المتوالية على المدن الصينية ليثير أعصاب الامبراطور ويقلق بال القوات المدافعة ، وليهد الروح المعنوية فى هذا الشعب المثابر العنيد . وكانت الاحوال التي يعيش فيها أهل الصين غاية فى السوء وقتذاك ، وكانت الاسرة الحاكمة مشتبكة فى صراع عنيف مع عصابات الفلاحين ذوى الاردية الحمراء التي كانت تهدف الى انقاذ عامة الشعب اليائس من طغيان الفئة الحاكمة ، فئة مصاصى دماء الفقراء ومبتزى أموالهم ، حتى لقد قيل انك قد تشم رائحة اللحم والخمر اذا مررت بأحد القصور ، بينما تصادفك عظام رجل قد قتله البرد وآخر مات جوعا وأنت فى نفس الطريق ..

ولكن ما كاد عام ١٢١٤ يحل حتى صمم جنكيز خان على غزو ين كنج والتخلص من حروب الخطا الطويلة الراكدة خلف الاسوار ، فأرسل ثلاثة جيوش ، كل له وجهة مستقلة . أما الجيش الاول فيقوده جوشى ابنه اخترق به جبال خنجان الوعرة المانعة وانضم الى جيوش لياو تنج التى كانت جيوش الخطا قد عاودت حصارها وتضييق الخناق عليها ، بينما ذهب اولاد الخان بالجيش الثانى صوب الجنوب وتوغلوا فى الاراضى الصينية ، أما الجيش الثالث فيقوده الخان وكان غرضه أن يأخذ ين كنج من خلفها ، فتقدم مكتسحا ما امامه من البلاد حتى أصبح بجانب المحيط .

تقدمت الجيوش الثلاثة مكتسحة ما امامها من البلاد بعنف يتضاءل امامه عنف السيول ، وسرعة تفوق سرعة العاصفة ، ففتحت أكبر البلاد ابوابها ، وأخذ المغول يسوقون أسراهم أمامهم قبل الهجوم على مدن جديدة ، فكانت هذه تفتح لهم ابوابها وما يكادون يدخلون حتى يكون فرسان المغول فى أعقابهم يقتحمون الابواب ويقتلون الحراس .

كانت جيوش المغول تمضى قدما كالسيل الجارف او العاصفة المدمرة فأبادوا البشر حتى شبع وحش الحيوان وجارح الطير ، ونهبوا المحصولات وأحرقوا الدور والمخازن المغلقة وسلبوا الماشية وأسروا النساء . نشر ملك الموت جناحه على أهل الصين ونعق بوم الخراب على مدنهم وأطلالها ، فكانت الفوضى والمجاعة والخراب

هى بقايا معارك المغول الصاعقة • ومع ذلك فقد ظلت ين كنج سليمة خلف أسوارها آمنـــة من وراء حوائطها • فجمع جنكيز خـــان قواته وعســـكر بالقـــرب من أســوارها ، وســعى قواده وكبار ضباطه اليه يلحون عليـــه ويزينون له القيام بهجوم خاطف يقتحم فيه أسوار المدينة فيخلص منها وتخلص له قبل حلول موسم الخريف ، ولكن المغولي الحـــكيم وجد أن المرض يفتـــك برجاله وخيوله، وقوته قد قلت، والانهاك يذبل خيلة التى لم تهـدأ من بدء الموسم الحالى • وما كان بوســع الغازى ان يقتحم ين كنج الحصينة بجيشه المنهك وخيله المتعبة ، ولم يستطع أن يقاوم اغـــراء قواده المتحمسين بالهجوم على عدوه • فاستدعى كاتبه واستكتبه رسالة الى الامبراطور يطلب منه أن يمنح قواده الثائرين ما يرضـــيهم من الهدايا قبيل رحيله عن بلاده • وما أن وصلت الرسالة حتى هم أمراء الخطا ووزراؤها يســـتفزون الامبراطور ضد الخان ويغـرونه به ، خصوصا وقد فتكت الامراض بجنوده ووهنت قوى خيله غـير أن الامبراطور وبه ما به من الهلع والرعب ما كاد يتلمس معـــانى الرسالة حتى أمر بارسال قطيـــع كبير من الخيول الاصيلة ، وأحمال من الذهب والحرير ، وعدد ضخم من الاماء الصينيات الفاتنـــات ؛ وعدد بلغ الخمسمائة من الشبان• وأرسل مع هذه الهدايا رسالة الى الخان يطلب منه الهدنة متعهـدا بعدم مقاتلته لحلفاء الخان فى لياو•

غير أن جنكيز الخبيث أرســل الى الامبراطور يطالبه بعـــروس تجـــرى فى عروقهـــــا الدماء الامبراطورية كرباط وثيق وشرط أكيد لقبول الهدنة •

واذ أجاب الامبـــراطور طلب الخان وبعث العـــــروس يحفها الحراس ومن خلفها الهدايا والاماء، جمع الخان قواته وعاد الى رماله المحببة اليه ، وفى الطـــريق اليها وعلى حافتها من الشرق ذبح كل أسراه ليتخـــلص من متاعبهم فى أراضيه القفر ، ولا غرو فهم قوم لا يتحملون قسوة الصـــحراء ولا عنف طبيعتها ••

وبينما كان الغازى فى طريقـــه الى قبيلته بالغرب كان الامبراطور فى الشرق يأتى أعمالا لا توصف الا بسوء التصرف المتولد من الرعب، ذلك أن الامبراطور ترك العاصـــمة مخلفا وراءه أحد أبنـــائه فيها ، ملتجئا الى عاصمة الجنوب • وما كاد الشعب يعلم ما فعله الامبراطور

حتى قام الاهالي بثورة عامة سرت نيرانها بين صفوف الجند الذين التجأوا بضباطهم الى المغول • وقام الامراء والحكام يتعهدون الحال في ين كنج وأقسموا يمين الولاء للعرش وصمموا على ادارة دفة الحرب • وعاد النظام والسكينة الى البلاد مرة أخرى وسمت الروح المعنوية وخرجت القوات برؤوسها عارية تحت وابل المطر لتثبت صدق عزيمتها وثباتها وولاءها لصاحب العرش • غير أن الامبراطور عاد فأرسل يطلب حضور ولى عهده الى عاصمة الجنوب ، فانبرى الحكام والامراء والنبلاء يحذرون ولى العهد مغبة هذا العمل الأن تصميم الامبراطور جعل ولى العهد يرحل اليه بين الخزى والعار •

كانت الحماسة والروح المعنوية قد بلغت أقصاها فى نفوس الشعب بعد ثورته الاولى ورغم فرار الامبراطور وولى عهده المشين • فراح الشعب يهاجم نقط المغول وحامياتهم ، كما ارسل حكام ين كنج جيشا كاملا معدا اعدادا جيدا وقد ملأته الحماسة ودفعته روح جبارة الى بلاد لياو أوقع بحلفاء المغول هزائم عنيفة متكررة ذهل لهولها المغول انفسهم •

أسرع سعاة جنكيز خان يبلغونه الحوادث الواحدة تلو الاخرى ويحيطونه أولا بأول بتطورات الموقف فى الشرق ، فأوقف رحلته الى وطنه الحبيب وضرب معسكره على حدود البلاد بالقرب من السور العظيم وانتظر اخر الانباء ، حتى اذا علم بوصول الامبراطور صوب الجنوب أنفذ اليه جوشى يقود أفضل فرقة ليأتى بالامبراطور أو يقضى عليه • وأسرع الجيش المطارد فى أعقاب الامبراطور الفار الذى ما كاد يعلم بتتبع المغول لخطواته حتى عبر النهر الاصفر ملتجئا الى أسرة سونج التى كانت بينه وبينهم عداوة وحروب • توغل المغول فى أرض الخطا متخطين الجبال التى تكسو قممها الثلوج ومجتازين الجداول والانهار فوق عائمات من الاغصان والرماح التى ضمت الى بعضها بضفائر من لحاء الشجر اللين والحبال •

وكاد الجيش المطارد يقع فريسة فى أيدى قوات أسرة سونج التى لجأ اليها الامبراطور لولا أن أسرع القائد المغولى بالقيام بحركة

التفاف واسعة سريعة حول مدائن سونج حتى اذا بلغت النهر الاصفر الذى تجمدت مياهه عبـرته دون الحاجة الى العائمات .

وفى نفس الوقت الذى بعث فيه الخان ولده جوشى خلف الامبراطور الفار ، بعث سابوتاى ذلك القائـد المتجـول الى الصـين لينظر ما يستطيع أن يفعله بها ، فأخـذ يتجول فيها بضع شهور استطاع خلالها أن يطوق خليج لياو ويفتح كوريا ويخضعها لحكم المغـول ثم ترك بها حامية مغولية وحاكما من قبـله .

ومضى سـابوتاى يستكشف آفاقا جديدة . وكانت تلك الرغبة الدفينة فيه الى التجوال التـواقة الى الاستكشاف اذا ما خول قيادة مسـتقلة هى التى بثت الذعر والرعب فى ربوع أوربا فيما بعد .

أما ين كنج فقد كلف موهولى الحكيم بالاستيلاء عليهـا ، وكان يتخذ أحد أمراء لياو معـاونا وصديقا له فى غزواته . ولقد افاد موهولى من خبرة هـذا الامير بطبيعة البـلاد وأسرارها . مضى موهولى نحو الشرق ومعه خمسة آلاف من فرسان المغول .وهـو عدد لا شك قليل بالنسبة للواجب المطـلوب . وكان أهل الصين وضواتهم قد يئسوا من اصـلاح حكومتهم ونفضـوا أيديهم عن التعاون معها ، فلجأوا الى الجيش الغـازى يزيدون عدده وعدده ، وعسكر الجيش خارج المدينـة المسـورة .

وجاء سـابوتاى على جنب موهولى يحميه ويقـدم له أقصى ما يمكنه من المعاونة اذا لزم الامر . ورغم ما كان بالمدينة كما سـبق الوصف من كثرة المحاربين ووفرة السلاح الا أن الفوضى وانعـدام الثقة وفقد الروح المعنوية نتيجـة فرار الامبراطور وولده من بعده ، كل ذلك يسر على المغولى الداهية أن يدلف ببعض قواته داخـل السـور ثم تدفقت جميعها فى ضواحى المدينة ونشب قتال عنيف أنزل من الرعب فى قلب قائـد الجيش ما جعله لا يألو جهـدا فى الفرار مخلفا وراءه قصر الامبراطور ونساءه . وسرعان ما بدأ المغـول ينهبون ويسـلبون ويقتـلون . وتسلم ابن القائد الفار القيادة من بعد أبيـه ، وهـو أمير من أسرة الكين حاول أن يفعل شيئا يعيـد به الامن الى نصابه والهـدوء الى قلوب الهالعين ، والنظام الى ربوع

المدينة المنكوبة التى سادها النهب والسلب لدرجة ان حراس القصر الامبراطورى كونوا عصابات للسلب وأخذوا يسـطون على ممتلكات القصر وينهبونها تماما كما يفعـل أعداؤهم المغـول ٠

حاول القائد الصينى ان يفـرج عن المجرمين ويرفع رواتب الجند غير أن كل ذلك لم يجد فتيلا فى بلد عمها الذعر وسادتها الفوضى، فلم يجد مخرجا من هـذا الموقف المشين الا الموت ٠ وعلى ذلك حرر كتابا للامبراطور يعتـرف فيه بجرمه كما تقضى التقاليد ، ويقرر استحقاقه الموت ثم دعى خـدمه ووزع عليهم ثروته وتجـرع كأس السـم وذهب الى حيث يرتاح ضميره ويصان ماء وجهـه تاركا ين كنج تشـتعل لهبا ويرتعـد أهلوها فزعا ورعبا ومخليا السبيل أمام موهولى ليجمع ما شـاء من الكنوز والهدايا والاسرى للخـان العظيـم ٠

ولقد كان أعظم ما أهداه به هو أحد الامراء من أسرة ليـاو كان يعمل فى جيش الكين ، وكان لهذا الرجل من بعد أسره شـأن وأى شـأن ٠

ولقد كانت جيوش الصين ذات مجد وحضـارة قديمتين ، وكانت بلادهم مهد العلم والحكمة ، عنى أباطرتهم وملوكهم بتقوية جيوشهم وتسليحها وان كانوا قـد أهملوا تدريبها ، فبنوا القلاع وسـوروا لمدن ونصبوا عليها قاذفات اللهب والمجانيـق ودرعوا جنـودهم وسلحوهم بالسـيوف القاطعة والرماح الطويلة والسهام بعيـدة المدى ٠

ولا ننسى كذلك أن علمـاءهم كانوا قد اكتشفوا البارود قبـل ذلك بزمن واستخدمته قواتهم فى الحروب العديدة ضد المغول ٠ ومع ذلك نجد أن جيوش المغول الاضعف تسليحا والاقل عددا قـد قضت على تلك الحصـون الواحد تلو الاخر وهزمت جيوش الصـين ودوخت امبـراطورهم وقواده ونشرت الرعب فى قلوب النـاس فلم تغن اسـلحة الصـين ولا حصونها ولا كثرة عددها شـيئا أمام قوة المغول الكاسحة ٠

كانت الفكرة التكتيكية عنـد محاربى الصين هى اتخاذ الحصن

مدافعا عن الجنود ، بينما قامت فكرة المغول على خفة الحركة والسرعة والهجوم الخاطف لمفاجأة العدو وشل قواه المفكرة من هول الصدمة • كانت الهجمات الصاعقة هى الدرع الاساسى لحمايتهم من اسلحة العدو • وكانت مهارتهم وحسن تدريبهم وتغلب روح القتال وسيطرة طبيعة البطش على نفوسهم ، تلك الصفات التى قال عنها كلاوزيفتز انها اسمى الصفات التى يتحلى بها المقاتلون ، هى أهم الاسباب التى جعلت ذلك الشعب البدائى الذى تجول فى الصحارى قاطعا مئات الاميال حتى بلغ اسوارهم ، يهزم أولئك المتحضرين، المسلحين أفضل تسليح ، ولا عجب فالدفاع السلبى ما كان يوما ما وسيلة لبلوغ النصر

حقيقة اضطر المغول فى كثير من الاحيان الى الانتقال من حرب الحركة السريعة والمفاجأة الى الثبات والصبر حتى يتم تسور الاسوار أو حتى يفتح لهم عملاؤهم البوابات ولكننا رأينا كيف كانوا يعمدون الى اجتذاب عدوهم خارج أسواره بمناورات بديعة توطئة للقضاء عليه •

وكثيرا ما استطاع المغول أن يجمعوا جيوشهم الخفيفة الحركة لتحيط بمدينة ما حتى اذا ما لاح الفجر هاجموا المدينة من جميع الجهات ، فاذا أفلحت قوة منهم فى فتح ثغرة ، تدفقت باقى القوات منها داخل المدينة كالسيل الجارف

كان المغول مهاجمين دائما سباقين فى التفكير ، ولذلك كانوا يعرفون متى يكيلون ضربتهم القاضية كما كانوا يدركون كيف يتجنبون ضربات عدوهم •

كانت عملياتهم كموج البحر ، تمتد تارة حتى تفنى وتتلاشى ازاء مقاومة العدو ، وتجزر تارة حتى يظن العدو انها رحلت الى غير عودة ، ثم تعود فتظهر أشد عنفا وأقوى بطشا ، مركزين جهدهم وعنفهم وكل ما لديهم من قوى لتحطيم تلك المقاومات وسحقها • لقد احرز جنكيز خان فى الصين سلسلة من الانتصارات قامت على قدرته الفريدة على اخفاء تحركات كتائبه ، وعبقريته الفذة فى جمع شملها فى الوقت المناسب نتيجة سرعتها الفائقة وخفة حركتها

غير المتوقعة • وعاد الى صحراء الجوبى تاركا موهولى الحكيم يدير حكم ذلك القطر من عاصمته الاصلية التى تم فتحها على يديه•

ولكى يبدى رضاءه عن موهولى أهداه اللواء المزدان بذيول الوعول التسع البيضاءوأمر باطاعةموهولى كما يطيعونه تماما • واذ كان يعلم أن اتمام اخضاع الصين كلها يتطلب سنين طويلة وحروبا عديدة بقى فى صحرائه الفسيحة يؤمن حدودها ويرتب امر توسيعها من ناحية الغرب بعد أن اتسعت حدوده حتى شاطىء المحيط من الشرق •

قره قرم



لم يمكث جنكيز خان كما أسلفنا طويلا فى قصور الصين الفاخرة ولا مدائنها العظيمة التى فتحها بحد السيف ووطئتها سنابك خيله . ولم يركن الى مواصلة التمتع ببهاء القصور ورواء البساتين ورغم اعجابه برغد العيش وطيب الحياة وترفها فى ذلك الفردوس العظيم ، قد حن الى موطنه واشتاق الى قبابه فأعلن عزمه على العودة الى بلاده .. الى صحراء الجوبى ذات الشمس اللافحة والرمال السافية تاركا موهولى

الحكيم العجوز قائداً وحاكما عاما على بلاد الصين وجيوش المغول فيها ولقد أنذر الخان قبل رحيله جميع الحكام وأمراء الجيش باطاعة أوامر موهولى وتنفيذ رغباته كما لو كانت صادرة عن شخصه الامبراطورى ٠

وعاد الغازى الى بلاده الحبيبة الى قلبه القريبة الى نفسه يحف به حرسه الخاص ومن خلفه خدمه وعرباته حاملين كنوز الصين ونفائسها وغلائها وحريرها وأثواب الدمقس ودقيق الالات وأعجب الصناعات ، وساق مع الركب أسراه من العلماء والصناع وأجمل السبايا حتى وصل قره قرم تلك المدينة القديمة التى ما كان يعلم جنكيز خان أن هناك فى الشرق والغرب مدائن تعظمها مجدا وتفوقها قدما ، وان كان قد رأى بعينيه ضآلتها بالنسبة لغيرها من مدائن الصين ٠

ترى ما الذى دعا جنكيز خان الى نفض يديه من حرب الصين ولما يكتمل له فتح مدائنها كلها وفض حصونها ؟ أهو المبالغة فى الاكرام والتكريم من الخان العظيم لقائده الحكيم موهولى ، أم هى طبيعة المقاتل الذى لا يروم من حروبه الا أن يرى عدوه كسير القلب مهيض الجناح ، وسجية محارب أرستقراطى النزعة لايرضى حتى تذل له الهامات وتنحنى له الرقاب ؟ أم تراه قد أمضه طول الحصار وأجهدته كثرة الكر والفر أم أهمه غزارة مانزف من الدماء وكثرة ما انتشر من الاشلاء بعد أن بلغ عدد قتلاه خمسين مليونا من الانفس ؟

وأيا ما كان السبب ، فان جنكيز خان هجر الصين الى قره قرم جالبا اليها من خيرات الصين ما أثرى به الشعب المغولى الفقير وتبدلت سنو الفقر والحاجة الى سنى اليسر والرخاء ٠وبدأت قره قرم أو الرمال السوداء كما كانوا يسمون تلك المدينة القائمة وسط الصحراء كجزيرة من اللبن وسط بحر من الرمال ، وقد سقفت دورها بقصبات الغاب ولم يفكر ساكنوها فى شق طريق مستقيم واحد فيها ٠

بدأت تلك المدينة تزين وتأخذ زخرفها فطرحت قباب اللبد لتستبدلها بقباب مبطنة بالحرير الموشى ٠ وصار للخان عدة قباب

جمع فيها نساءه من أجمل سبايا القبائل التترية وأكرم أسر الصين وأسدلت على أبواب القباب وكواتها ستائر المخرمات الدقيقة الصنعة البديعة الزخرفة

اتخذ الخان مدينته عاصمة لامبراطوريته الناشئة ، واستمرت كذلك حتى عهد حفيده قوبلاى خان الذى ولد بها فتبدلت حالها من الضعة الى الرفعة ومن الحقارة الى المجد • فقد شيد الرجال الذين اتخذهم جنكيز خان لادارة شئون امبراطوريته من اليوغور والصينيين دورا للحكومة ، وصنعوا له خاتما خاصا يمهر به كل أوامره وتعليماته وأملاكه حتى خيوله • ولقد فكر الخان فى عمل تعداد لشعب المغول وقام الموظفون المسئولون بتنفيذ تلك الرغبة وأنشأوا السجلات اللازمة لذلك العمل وحفظوها فى أضابير بنظام حكومى دقيق •

ولتسهيل حكم البلاد التى فتحها فى الصين وكذلك تلك التى سيفتحها فى الغرب كان يسمح بانتخاب أحد المخلصين له من زعماء البلاد المفتوحة لمعاونة رجال الحكومة والاشتراك معهم فى ادارتها • ولقد بلغت حكمة الخان أوجها عندما منح بعض الحكام فى البلاد التى فتحها بحد سيفه « قرص النمر » الذى يخول للحاكم سلطة العفو عن المجرم مهما كانت جنايته الا اذا حكم عليه بالموت • ولقد لجأ لتلك السياسة فى الحكم لتخفيف ما لاقاه الناس من الطغيان فى عهد الحكام السابقين •

اتسعت مدينة قره قرم اذ أنشئت بها الاحياء للشعراء والتجار والزوار ، كما أنشئت مساجد للمسلمين تجاور معابد البوذيين وكنائس المسيحيين النسطوريين • لقد كانت حرية العبادة مكفولة للجميع حسب شريعة الياسة وحسب مشيئة الامبراطور الذى كان يدين بوحدانية القوة المطلقة التى تسير السحاب وتثير الرعد وتحرك الهواء ورغم أن شعبه المغولى كان يعتقد بأن سيده الخان كان ينحدر من سلالة من صلب الالهة الا أن جنكيز خان نفسه لم يعز يوما ما انتصاراته الساحقة الى أى قوة سماوية أو معجزة الهية ، فكثيرا ما كان يقول « ان فى السماء قوة الشمس ، أما على الارض فقوة الخان » • ولما عمت مذابحه بلاد المسلمين فى الغرب أطلقوا عليه لقب « نقمة الله » فكان دائما ما يذكرهم بأنه سوط الله ونقمته سلطها عليهم ليعذبهم بيده

وكان على الحكومة القائمة فى قره قرم أن تتصل بنواحى البلاد وأطرافها • وقديما كانت قبائل الجوبى تتصل ببعضها بواسطة الرسل المتطين أمتن الجياد وأسرعها فيقطعون ما يقرب من الخمسين ميلا فى اليوم • كان ذلك النظام فى عرفهم يسمى « اليام » وكان يستخدم فى حالة الحرب وقد لجأ اليه الخان فى حروبه العديدة بعد أن أدخل عليه الكثير من التحسينات ، فجعل على رأس كل مرحلة معسكرا دائما به بضعة من الخيل وبعض الغلمان لخدمة الخيل ، وعدد من الفرسان لحراسة الطريق والخيل • وبالمعسكر مخزن للتبن والشعير وبعض خيام لايواء السعاة وراحتهم ، ولكى يحافظ الخان على سلامة جميع المواصلات خصوصا بعد اتساع رقعة بلاده وامتدادها من الصين شرقا الى حدود التركستان وأفغانستان غربا ، ربط جميع طرق القوافل القديمة ببعضها واستمر كلما فتح بلادا جديدة يربط طرقها بطرقه ويعين عليها الحراس والمخازن ومحلات ايواء المسافرين •

ولما أثرت بلاد المغول نتيجة الاتساع شرقا وتوغل المغول فى الغرب ، أصبح من اللازم تعيين حاكم خاص فى كل مدينة كبيرة ، مسئول عن الاشراف على حالة الطرق وتموين مخازنها ومراقبة حراسها ، وعليه بواسطة عماله أن يدون أسماء الزائرين والمارين ووجهتهم وأغراضهم واحصاء البضائع الوافدة والصادرة •

وكان من حق ضباط وفرسان الجيش المغولى أن يستبدلوا خيولهم المتعبة بخيول نشطة من مرابط الخيل فى المحطات التى يمرون بها وكانت العلامة التى تخولهم هذا الحق هى « قرص الباز » الذى يحملونه دائما •

أما الزائرون الذين يرغبون فى زيارة الخان ، وكذلك السفراء ، فكان يتسلمهم ضابط خاص ويصطحبهم حتى قره قرم بينما يسرع السعاة الراكبون يبلغون المحطات التالية لهم باسم الزائر أو السفير • ولا يقع بصر الزائر خلال رحلته الى مدينة الخان الا على بحار من الرمال ، ومسطحات من الصحارى ، ومساحات من الارض قد نضبت فيها الحياة ، ولا يحجب مرمى بصره البعيد الا انطباق السماء على الارض • وما يكاد الزائر يبصر القباب وقطعان الماشية

وصفوف المركبات المتراصة فوق السهل المنبسط ويستبشر بعودة الحياة حتى يتسلمه موظف آخر مسئول عن حمايته ورعايته حتى تنتهي زيارته • وعلى الزائر حسب تقاليد المغول أن يمر خلال شعلتين من النار ، فان كانت به روح شريرة فلابد أن تمسه النار ، أما ان كانت روحه خيره فيمر بسلام • وبعد مروره يجد المأوى اللازم له معدا لاستقباله • وقد احتوى ما شاء من طعام وفراش • وبعد أن يستريح من عناء السفر يتشرف بالمثول بين يدى الخان فى سرادقه المصنوع من اللباد المبطن بالحرير الموشى

اختفى لصوص الطرق واستطاع التجار أن يقطعوا المراحل الطويلة من الغرب الى أقصى الشرق وبالعكس حاملين بضاعتهم فيربحون عند كل محطة ويتزودون منها للمرحلة التالية• وفي بعض الاحيان كان الحراس يرافقون التجار ويسمونهم « القراقجية أو

المستحفظين » • وبذلك اتصل تجار المغرب بالمغول وحدثوهم عن بلادهم ، وباعوا لهم بضاعتهم من الثياب والمنسوجات ، كما نقل المغول الى بلادهم عبر تلك الطرق ما فاض عن حاجتهم من الجواهر والحلى والخزف •

كانت تلك الطرق تمتد وتطول كلما اتسعت فتوحات الغازى ، فلما وصلت فرسانه الى بلاد فارس وجورجيا فتح طريقين بريين عبر القارة الاسيوية ، أحدهما من البحر الاسود مخترقا شمال التركستان حتى صحراء الجوبى ومنها يتجه المسافر الى الصين • أما الثانى فيمر بمدينة خوتان فى جنوب التركستان مخترقا هضبة التبت حتى الصين •

وفى خلال الحروب المغولية فى غرب اسيا لم يكن الاتصال البرى مأمونا بين الغرب والشرق ، لذلك عظمت أهمية الطريق البحرى من هرمز الى الهند ومنها الى الشرق الاقصى •

ولما اختلط التجار المسلمون من غرب آسيا بالمغول ، وجلبوا اليهم الاسلحة والجلود والعاج ،وحدثوهم عن بلاد أعرق من قره قرم ومدائن أضخم منها ووصفوا لهم تلك الرحلات الطويلة والاسفار العجيبة والقصص المثيرة ، فعلت فى نفوس الناس ما تفعله الان قصص ألف ليلة وليلة في نفوسنا

ولقد ذكر ماركو بولو الذى زار كامبالو بعد وفاة جنكيزخان « أن الراحلين عن كامبالو يجدون مراحا للخيل بعد كل خمسة وعشرين ميلا ، به منزل فخم يقيم فيه المسافرون ، وقد أثثت حجراته بأفخر الاثاث ومدت فيه الاسرة المغطاة بفرش الحرير الخالص ، ولو نزل أحد الملوك فيها لاحس أنه لقى من كرم الضيافة وحسن الاستقبال ما يليق بمقامه »

وكان فى المراح ما يقرب من أربعمائة جواد ، وفى البعض ما يقرب من مائتين • وحتى فى المناطق الجبلية الوعرة تجد هذه المراحات أو المحطات مستعدة دواما لاستقبال المسافرين ، وفيها كل ما قد يطلبون من الحاجات •

وليس من المحتمل أن يكون هناك ملك أو امبراطور آخر يمتلك مثل هذه الثروة التى تمكنه من اقامة تلك المحطات • وكان النظام من الدقة والروعة بحيث يعجز المرء عن ايفائه حقه من الوصف

وبهذا النظام استطاع الامبراطور أن يبلغه أى نبأ من مكان يبعد عنه لمسيرة عشرة أيام فى يوم وليلة واحدة • وكانت الفاكهة التى تقطف فى الصباح فى مدينة كامبالو تصل الى الامبراطور فى مساء اليوم التالى فى شاندو • وكان الامبراطور يجزل للرسل العطاء ويعفيهم من أداء الجزية •

وكان بعض الرجال الذين يخدمون فى تلك المحطات يقطعون ما بين مائتين وخمسين ميلا فى النهار ومثلها بالليل اذا تطلب الامر السرعه ، وكان الرسول يشد وسطه بنطاق عريض حول خصره تتدلى منه النواقيس (الجلاجل) حتى يمكن سماع صوته عن بعد • فاذا وصل الى المحطة التالية تلقاه رسول اخر على أهبة القفز الى جواده بمجرد استلام الرسالة بمعرفة الكاتب المختص والمستعد على الدوام لتحرير ايصال الاستلام وتدوين وقت الوصول ووقت القيام

أما أثناء الليل فان أولئك الرسل لا يستطيعون المضى بنفس السرعة التى يمضون بها أثناء النهار حيث أنهم مضطرون الى استخدام حملة المصابيح الكشافة

وكان لكل رسول منهم قرص عليه رسم طائر السنقر علامة على أنه موفد في مهمة سريعة ، فاذا كبا الجواد أو حدث ما يعوقه عن الاستمرار فى الرحلة فان ذلك القرص يبيح له أخذ أى جواد يصادفه فى الطريق مهما علت رتبة صاحبه ، ولن يستطيع كائن ما أن يرفض اطاعة مثل هذا الامر

وكانت الخيل ممهورة بخاتم صاحبها ، وأما خيول الامبراطور فمختومة بعلامة خاصة ·

ولقد زاد عدد التجار الوافدين من الغرب الى بلاد المغول بفضل تلك الطرق ، كما أن هذا الشعب المحدودة أرضه بالجبال الشاهقة والمرتفعات الوعرة ، والذى كان يظن أن ليس ثمة بلاد تكتنف بلاده ، ولا جبال غير جباله ولا مدن الا مدنه ، أصبح ذلك الشعب يرى تجار الفرس والعرب والاتراك ولهم خلقة جميلة ومعهم بضائع غريبة وسيوف مقوسة مطعمة بالعاج والجواهر ، ويستمع لقصصهم العجيب ورحلاتهم المدهشة ·

أصبحت قره قرم كخلية النحل من حيث النشاط ودقة النظام ، وظلت هى مصدر القانون ومنبع النشاط فى جميع أنحاء الامبراطورية · كانت ارادة الخان وبعد نظره وحكمته وصلابته وصرامة الباسة هى القوى المسيطرة والايدى القابضة على ناصية الأمور ·

ولا يفوتنا أن نذكر أن من بين من بعث بهم موهولى الى الخان أحد أمراء لياوتنج الذين خدموا أسرة الكين وهو يى لو تشو ساى النحيل القامة الطويل اللحية العميق الصوت الكبير العقل الصائب الفكر · كان ذلك الامير ملقى فى الاسر حتى اكتشف الامبراطور قدرته وحكمته بعد حديث بينهما ، ذلك أن الامبراطور سأله يوما عن سبب انحيازه الى أسرة الكين رغم كونه من أسرة لياوتنج التى بينها وبين أسرة الكين ما بينهما من عداوة · فقال الامير الاسير « كان أبى وبعض أقاربى من أنصار أسرة الكين ولم أر من المناسب أن أخالفهم » · فسر الامبراطور من ذلك الجواب وأمر باعدام كل من خان أسرة الكين ·

ولما كان الخان يعلم مدى ما عند هؤلاء الصينيين من الحكمة والفكر

العميق فقد اعتمد عليهم وولى الكثير منهم مناصب هامه في حكومته ٠ وأما يي لى تشو ساى فقد اتخذه الامبراطور مستشارا خاصا له ٠ ولقد وكل الامبراطور وهو الخبير بمعدن الرجال وصفاتهم ، الى يى لو تشو ساى الكثير من أمور الدولة وكلفه بأضخم الواجبات والقى على كاهله أثقل المسئوليات ، ومع ذلك فقد حمل التبعة كلها وخدم سيده ودولته الصين والامبراطورية والتاريخ باخلاص وهمة عظيمتين ٠

وللتسلية تقول أن عقلية ذلك الحكيم العميق التفكير لم توافق قط مزاج الضباط المغول ، أولئك الفرسان القساة الاميون ٠ فكثيرا ما أحرجوا الحكيم أمام الامبراطور وهزؤوا منه ٠ وذات يوم قال أحد الضباط وقد برع فى صناعة الاقواس ساخرا من الحكيم ٠

« أى فائدة يمكن أن نجنيها من رجل دأبه الكتب وسط جمع من المقاتلين ؟ » فأجابه الحكيم « لكى نصنع الاقواس يلزمنا نجار ، أما اذا كنا بصدد حكم امبراطورية فاننا نحتاج الى رجل حكمة » ٠

ومضى يى لو تشوساى يجمع الكتب ويدون الحوادث ويرصد الافلاك ويدرس فوائد الاعشاب الطبية ويصف البلدان التى غزتها جحافل المغول بينما كانت فرسانهم مشغولة فى النهب والفتك بالأرواح، وفارق دنياه وقد حسبه المغول قد أثرى وأمعن فى الاثراء فلم يجدوا لديه سوى كتبه واعشابه والاته الموسيقية ٠

ورغم أن الامبراطور كان معجبا باخلاص حكام الصين الذين واصلوا الحرب دفاعا عن امبراطوريتهم الا انه لم يكترث لفلسفتهم وفنونهم واحتقر نظام امائهم وعبيدهم ٠

وفى قره قرم نمت أسرة الخان وكثرت قبابة وامتلأت بزوجات غير بورتاى من اميرات الخطا ولياو وفتيات الاسر التركية وأجمل نساء الصحراء ٠ وكثر أبناؤه وملأوا الخيام ضجيجا ، وكان الخان ينعم اذ ينظر اليهم يكبرون ويشبون عن الطوق ، غير انه لم يصطف من بينهم جميعا سوى أبنائه من بورتاى الاثيرة الحبيبة ، وأخذ يرقب نموهم وتدريبهم ، وسلم كل منهم الى محارب قدير يتعهده بالتدريب والصقل ، وكان لايفتأ هو نفسه يوجه لهم النصيحة

ويحذرهم حتى لا يقعوا فى الخطأ أبدا . فجوشى أكبر أبنائه من بورتاى والذى كان يشك فى صحة نسبه اليه منذ حادث اختطاف أمه كان أقدر محاربيه ، وهو الذى استمر يتجول فى ربوع غرب آسيا متنقلا من نصر الى نصر حتى بلغ الروسيا ، وهو يستحق عن جدارة أمارة الصيد التى منحها له أبوه ، وهو الذى أنجب باطو مؤسس الجيش الذهبى الذى سحق الروس ووصل الى بولنده. وشاطا جاى أحكم الاشقاء وأعقلهم وأثلجهم أعصابا ، ولاه أبوه امارة القانون والعقاب وهو الذى انحدر عنه بابار أول حاكم مغولى فى الهند .. وأجوتاى امير المشورة الذى جمع بين عقلية الحكيم ونفسية المقاتل . أما أصغرهم تولى فكان أثيرا لدى الخان الذى أطلق عليه لقب امير الجيوش ، وكان يخرج فى ركابه دائما ، ومن تولى هذا جاء قوبلاى خان الذى تفرس فيه جده فقال عنه يوما « أمعنوا الفكر فيما يقول هذا الصبى ، فهو لا ينطق الا عن حكمة » .

ولما كان نسب جوشى الى والده مشكوكا فيه ، فانه لما قربت منية الخان الاعظم واجتمع مع أبنائه لحل مشكلة وراثة العرش كان جوشى متغيبا فى الروسيا ، فأرسل رسولا يقوم مقامه، معتذرا بمرضه فسأل الخان الرسول ان كان جوشى مريضا حقا ، فقال الرسول أنه رآه أخر مرة فى الصيد . فأغضب ذلك الامبراطور وقرر حرمانه من وراثة العرش .

وكان للخان سرادق خاص به يعقد فيه مجلسة ويستقبل فيه السفراء والزائرين . كان السرادق مصنوعا من اللبد الابيض المبطن بالحرير الموشى ، نصب على مدخله مائدة حوت صنوف الفاكهة واللحم المجفف وأوعية اللبن . وفى الطرف المقابل للمدخل وفى نهاية السرادق وضعت منصة عالية فرشت عليها البسط والوسائد للخان ، ومن أسفل منها منصة أخرى لتجلس عليها بورتاى أو غيرها من الزوجات . وبالقرب من الخان وحوله كان يقف الوزراء ومن بينهم يى لوتشوساى الحكيم الصامت ، وعلى ناحية كان كاتب يحمل فرشاة وقرطاس مطوى مستعد لتدوين اوامر الحاكم الاعظم ونواهيه . وكما كان يفعل حكام الغرب جمل جنكيز خان

احد قادة الفرق المغولية الموثوق بهم مختصا بحمل كأس الامبراطور كأرفع شرف يناله القواد ٠

وعلى جانبى السرادق امتدت منصات خصصت للنبلاء ، وهم يجلسون عليها صامتين وقد تزيوا بسترات طويلة وتمنطقوا بأحزمة عريضة رصعت بالجواهر ، وعلت رؤوسهم القلانس المصنوعة من اللبد الابيض ٠ فاذا ما جاء دور الطارخانات فانهم يجلسون من بعد الامراء وقد طووا سيقانهم تحت أفخاذهم ووضعوا أكفهم المليئة بالجراح فوق افخاذهم ٠ ومن بعدهم قواد الفرق يحملون أعلامهم ٠ وتمضى المناقشات فيما يعرض عليهم من الامور بصوت خفيض بطيء ، حتى اذا تكلم الخان كان كلامه هو القول الفصل ، وكان هو ختام الموضوع ٠ كانوا قوما قليلى الكلام ، فاذا تكلموا نطقوا بالحق ٠

نحو الغرب

ان كل ماشغل به الخان ليرفع مستوى الحياة المغولية ، ويرتقى بها حتى تتساوى أو تسود الحياة الصينية ، لم يشغله قط عن موالاة جيشه بالفحص والتنظيم والتدريب ولم يلهه كل ماأصبح فيه من رغد ونعيم عن تتبع أخبار أعدائه وتقفى

آثارهم والوقوف على دخائلهم والاطلاع على أسرارهم .

نذكر ان جنكيز خان كان قبل خروجه لحرب الصين قد ضرب قبائل النايمان ونكل بهم وفرق شملهم وقتل زعيمهم فى معركته ضد القرايطة ، الا أن كشلو خان زعيم احدى قبائلهم فر الى بلاد الخطا السوداء وسمح له خان الخطا السوداء أن يتبوأ من بلاده مكانا أمينا . وسرعان ماكثر أتباع كشلو واستمال القبائل اليه ونصب نفسه خانا عليهم ، فلما قويت شوكته اتحد مع علاء الدين ملك خوارزم التى تجاور دولة الخطا من الغرب . واتفق كشلو خان مع علاء الدين خوارزم شاه على محاربة خان الخطا السوداء ، وقبل علاء الدين الاتفاق ، غير أنه مالبث حتى طلب اليه خان الخطا السوداء أن يتحد معه ضد كشلو خان فقبل علاء الدين الإتحادأيضا

ولما وقعت المعركةترك علاءالدين جيوش الخطا السوداء وجيوش كشلو خان تقتتلان ، حتىاذا همت جيوش كشلو خان بهزيمة جيوش الخطا السوداء انضم اليه جيش علاء الدين واعملوا السيوف فى رقاد جيش الخطا السوداء . وبذلك انتصر كشلو خان على غور خان الخطا واعتلى العرش محله وأصبحت أملاكه تجاور أملاك عدوه القديم جنكيزخان من الشرق ، وأملاك علاء الدين خوارزم شاه من الغرب وكلتا الدولتين ناشئة متينةفكانت نهايته قريبة وعمره أقرب .

ولما كان جنكيز منشغلا فىحرب الصين بعد هزيمة القرايطة ،وجد كشلو خان الطموح الفرصة سانحة للغدر بخان الخطا السوداء وقتله واعتلا عرشه ، ولم تقف أطماعه عند هذا الحد بل ألب على جنكيز خانقبائل المركيت المذبذبة وأسر خان الماليك وذبحه ، وكانت تلك القبيلة خاضعة لحكم المغول ، كما راح يثير قبائل اليوغور على حكمهم أيضا .

ولم يكد الخان يستقر فى قره قرم ويضع قراره بشأن كشلو خان ، حتى أنفذ جيشا لتأديب القبائل العاصية والتى دخلت تحت حكمه ، واستطاعت قوات المغول بحسن مناورتها ان تستدرج قواته خارج أراضيها ، وانسحبوا عدوهم من خلفهم لمسافة طيبة كروا عليه وأعملوا فيه حرابهم بقسوة حتى أفنوه ، غير أن كشلو

خان فر من المعركة لايلوى على شيء فأرسل الخان شيبه نويون على رأس فرقتين من الفرسان لمطـــاردته واحضاره حيا أو ميتا • واستطاع شيبه أثناء المطاردة أن يستفيد من اعلان الحرية الدينيـــة التى كفلت للجميع حرية التعبد والاعتقاد • وكان كشلو يدين بالبوذية بينما تدين زوجته بالمسيحية ، وعمل كل طرف منهما على نشر دينــــه وتوكيد عقيدته على حساب المسلمين من أهل البلاد • فلما أعلن شيبه العفو العام عن الاهـــالى ، أسرع الجميع يؤازرون المغول ويستقبلونهم استقبال المحررين ، وبفضــــــل معاونتهم للقوات المغـــولية أمكن القبض على كشلو ، وأرسل شيبه رأسه ومعها ألف جواد ذى أنف أبيض الى الخان فى قره قرم •

وفى نفس الوقت الذى أرسل فيه الخان شيبه نويون وراء كشلو خان ، أرسل سابوتاى ومعه عشرة ألف فارس انقضوا على قبـــائل المركيت المذبذبة ولقنوها درســـا فى الطاعة والخضوع للخان الاعظم

وهكذا صـــــارت دولة الخطا السوداء فى حوزة المغـــول ، وكان للقضاء على هذه الدولة نتيجتان ، أولهما ان القبائل التركية البربرية التى تقطن الهضـــاب مابين التبت وسهول روسيا أصبحت جزءا من جيش المغول ، والثانية ان المغول أصبحوا يحتفظون بما ندعوه توازن القوى فى آسيا • ومضى رســـــل الخان ينشرون شريعة الياســـــة ، وسهرت قواته على تنفيذ قوانينها بدقة وصرامة • كذلك أصـــبحت أمبراطورية المغـــول الفتية تجاور الامبراطورية الخـــوارزمية الناشئة وكان لكلا الاباطرة أطماع وآمال فى سيادة العالم المعروف حينذاك وسنرى الى أى مدى ســـيفلح كل فى تحقيقها •

لننتقل الآن الى غرب آســـيا ، الى العالم الاسلامى لنرى كيـــف انشأ خوارزم شاه امبراطوريتـــــه التى أراد أن يسيطر بها على العالم ويوسعها حتى تشمل ربوع آسيا من الشرق الى الغرب •

كان من عادة خلفــــاء الدولة العباسية استخدام الموالى والعمال على البلاد والاســــتعانة بهم فى تصريف امور الدولة ، غير أنه مـــا يكاد العمال أو الموالى أو الحـــكام يحسون بالثقة المطلقة والرضاء التام من الخليفة ، ومايكاد الخليفة يطمئن الى حسن سير الأمور حتى يطلق لنفسه العنان فى ارتشاف الملاذ والاستمتاع بالملاهى تاركا للحكام والعمال مطلق

الحرية فى التصرف . وهكذا كان يقوى نفوذ أولئك الموالى والحكام ويتسع سلطانهم حتى يصبح الخليفة رمزا وتبدأ محاولات الحكام للاستقلال عنه .

ولقد حدثنا التاريخ عن الفرس والاتراك والبويهيين الذين حكموا وتحكموا فى انحاء الامبراطورية العباسية على التعاقب ، وكانت آخر دولة هى السلجوقية وبانهيارها هى الاخرى ظهرت عدة دويلات على انقاضها ، وأهم تلك الدويلات هى الدولة الخوارزمية التركية الاصل . ولقد كان أول مؤسسيها نوشتكين الذى كان حاكما على اقليم خوارزم ، وأذن له السلطان السلجوقى بحمل لقب خوارزم شاه . وواجه نوشتكين عند بدء استقلاله بدولته أكثر من عدو واحد تكفل بالتخلص منهم تدريجيا . وكان أول أعدائه الدولة السلجوقية نفسها ، والتى كانت فى دور الاحتضار ، فاتفق مع دولة الخطا السوداء وتحالف معها حتى تم له القضاء عليها . وفى عام ١١٩٧ م هزم علاء الدين تكش شاه الدولة الخوارزمية جيوش الخطا السوداء واستولى على بخارى ، ورأى من حسن السياسة فى ذلك الوقت ان يتحالف مع الدولة الغورية ، وقد واجه فى ذلك الوقت طائفة الاسماعيلية، تلك الطائفة الشريرة التى انشأها حسن الصباح واستشرى أمرها فى نواحى الدولة العباسية ، ولكن السلطان حاصر قلعتهم المنيعة ــ ألموت ــ وأرغمهم على الخضوع له ودفع مائة الف دينار .

وتولى علاء الدين خوارزم شاه بعد وفاة ابيه تكش ، وقد ورث عنه تركة محملة بالمصاعب ، فالدولة مفككة من الداخل ، والدولة الغورية تناضله من الخارج ، والخلافة العباسية تستعين بكافة القوى لتدمير سلطانه .

ولقد وجد ان سياسة ابيه تكش التى كانت ترمى الى التحالف مع الدولة الغورية وممالأة الخلافة العباسية ، تتعارض تماما مع ما رسمه لنفسه من سياسة اساسها التوسع على حساب القوى المجاورة . ولقد اطمعت وفاة أبيه حكام الدول المجاورة فى اراضى الدولة الخوارزمية ، فأخذ شهاب الدين ملك الدولة الغورية اقليم

خزاسان وضمه لاملاكه ، ولكن علاء الدين أرسل اليها الحملات المتتالية حتى استردها واقتطع من بلادهم مدينتي بلخ وهراة . واستمرت حملاته على أملاك الدولة الغورية حتى استولى على اقليمي كرمان ومكران وساحل المحيط الهندي والاقاليم الواقعة غرب السند . وبذلك بات محاصرا مدينة غزنة حاضرة الدولة الغورية حتى سقطت عام ١٢١٥ ، ودخل المدينة ونهبها ثم استمرت فتوحاته حتى ضم الى بلاده مدينة كابل على نهر السند . ولقد وقعت فى أيدى علاء الدين خوارزم شاه عدة كتب كان قد ارسلها الخليفة الناصر العباسي الى حكام الدولة الغورية للاتحاد مع الخطا السوداء ضد علاء الدين . وكانت هذه الكتب ورغبة علاء الدين فى أن يكون مركزه فى بغداد سائدا على الجميع هما اللذان دفعاه الى ارسال جيوشه الى بغداد . وفى الطريق الى بغداد استطاعت قوات خوارزم شاه أن تستولى على أقاليم فارس وأذربيجان والعراق العجمى ، وما أن وصلت قواته الى حدود بغداد حتى ثارت الطبيعة ضده وأرغمته على الارتداد .

الى هنا وصلت امبراطورية خوارزم الى أقصى اتساعها اذ امتدت حدودها من العراق العجمى غربا الى حدود الهند شرقا ومن شمال بحر قزوين وآرال شمالا الى الخليج الفارسي والمحيط الهندى جنوبا ، تلك الرقعة الفسيحة من الارض كانت مصدر العلم والفكر الاسلامى ومهد المدنية والحضارة فى العالم .

نجح الخوارزميون فى التغلب على القوى الموجودة فى تلك البقعة من غرب أسيا ، ولقد كان بوسعهم فتح بغداد والوصول الى قمة المجد الذى كانوا يأملونه غير أن سوء الطالع لزمهم من بعد فشلهم فى فتحها أول مرة .

فاذا قارنا بين امبراطورية الخان المغولى الوثنى ، وامبراطورية الشاه الخوارزمى المسلم ، لوجدنا أن الخان أقام امبراطوريته العظيمة فى الشرق على ثلاث قوى : قوة الجيش الذى سلحه وجهزه ودربه واوقف عليه جهده وفكره ، وقوة الياسة وصرامتها ، وقوة ارادته وحكمته وبعد نظره .

أما الجيش فقد جعله الآلة الدقيقة التنظيم التى عقد النصر

بلوائها . كان معول الشيطان وسيف الاقدار، حيثما ذهب جلب الخراب وسفك الدماء ، حتى أصبح لاسمه رهبة شديدة ولذكره روع عظيم ، ولقد اجزل لجنده العطاء فى سخاء وسمح لهم بالاستمتاع بكل ما ينهبوه ويسلبوه من البلاد التى يغزونها . وكان يدربهم كل عام فى موسم الصيف ويخرج بهم للسير الطويل المضنى ، ويفرض عليهم الواجبات القاسية ويراقب تنفيذ اوامره بحذافيرها، وجعل لهم خزنة وعمالا وموظفين مسئولين عن الاسلحة والتموين والعتاد والتعداد . كان يبعث بهم فى العراء يقاتلون الوحش ويطاردون الذئاب ، فنمت فيهم طبيعة الحيوان وقويت لديهم غرائز الوحش . ولم يعلمهم القتال وراء الجدر والاسوار فانما علمهم كيف يتسورون الاسوار بالابراج الخشبية المنقولة ، ودربهم على اصطياد قاذفى اللهب بأقواس الغاب ، لقد أذكى فيهم روح الحرب والهب نفوسهم للكر والطعان . فكانت جيوشهم اذ تحمل على أعدائهم يظن الجاهلون والمرجفون من شدة بطشهم وروعة هجومهم انها ضعف تعدادها . وكثيرا ما ذكر المؤرخون ان جحافل المغول كانت تفوق الرمال عددا . والواقع ان تلك المعجزة الحربية التى حققها جنكيز خان من التبت الى بحر قزوين لم يتجاوز تعداد جيوشه فيها المائة ألف ، وأما المعجزة الكبرى التى حققها فيما بين الصين والدنيبر فلم تتجاوز قواته فيها المائتين وخمسين الف فارس . واذا أحصينا سكان الجوبى لوجدنا أنهم لا يزيدون عن المليون ونصف عدا . ومن مثل ذلك العدد لايمكن الحصول على اكثر من مائتى الف مقاتل قادرين على حمل السلاح . ولو كان لدى المغول قوة عددية كبرى يستطيعون بها تغطية تلك المساحات الشاسعة وذلك العدد الجم من خطوط الطول ، لما كلف الاولاد بخدمة الخيل من محطات الطرق ولا أمر الخان باشتراك كل من زاد طوله عن البلطة من الاولاد فى القتال . اما تلك القوى التى زعموا انها تهدر فى حربها كالسيل فقد قسمها الى الحرس الامبراطورى وقوامه عشرة آلاف فارس ، وعين ولده تولى ليقود المائة الف والالف التى خصصها للقلب ، وأما الجناح الايمن فجعل فيه سبعة واربعين الفا ، واما الجناح الايسر فبه أثنين وخمسين الفا . واما التسعة والعشرين الفا الباقين فقد كانوا اخلاطا من

قبائل الصين واليوغور والماليك من اهل الخطا السوداء • ولقد اكتسح الغازى الدولة الخوارزمية وما بعدها من الاقطار التابعة للدولة العباسية بقوة أقل مما ذكر ، فقد اعيدت قبائل اليوغور والماليك الى مواطنها قبل الحرب لانه لم يكن واثقا تمام الثقة من ولائهم له •

لقد كانت قوة المغول تكمن فى روحهم العالية ودربتهم المتينة ومهارة قوادهم وحنكتهم فى استخدام التكتيكات المثالية فى القتال •

كانت التولوغما هى اساس تكتيكاتهم التى تقتضى الالتفاف حول العدو وأخذه من خلفه ، فان لم يستطع القائد القيام بتلك المناورة الحربية ، فانه يخادع العدو ثم يفاجئه ، وذلك بالتظاهر بالعودة من حيث أتى قاطعا شوطا بعيدا ، ثم يرتد فى يوم وليلة بأقصى سرعة ليفاجىء عدوه ويسحقه • غير أن تلك العمليات لم تكن تنفذ بمثل تلك البساطة ؛ اذ كان الغازى يعقد مجلس الكورلتاى قبل الشروع فى غزو اى اقليم ، وفيه يحضر جميع الحكام والقواد والامراء من اقصى انحاء الامبراطورية عدا اولئك الذين يستثنيهم الغازى لاعتبارات عسكرية • واذ يتم عقد المؤتمر يستعرض الاعضاء الموقف ، ويبدى كل وجهة نظره ثم يشرح الغازى خطته بالتفصيل محددا الطرق التى سيسلكها جيشه ، ويعين الفرق المكلفة بكل عملية • ويستجوب المؤتمر الجواسيس الذين كان معظمهم من التجار أو الاهالى الناقمين على نظام الحكم فى البلاد المعادية • وبعد فض الاجتماع يتخذ كل أمير فى مقاطعته الاجراءات والترتيبات المكلف بتأديتها ، ويتجه قائد كل جيش أو فرقة الى الجهة المعين عليه القتال فيها • كان لحروب الصين أثرها فى عقلية المغولى الحربية ، فقد شهد كيف كانت هجمات جيوشه القوية تتلاشى وتتبدد ازاء مقاومة أعدائه الصلاب ، فلما قرروا الزحف نحو الغرب وبلغه ما كانت عليه الجيوش الخوارزمية من القوة ومتانة التسليح أنشأ فرق « العاصفة » ، تلك الفرق التى يتشدقون اليوم باسناد فضل ابتكارها الى القواد الالمان ، ودرع خيلها بالجلد المقسى الملون ، وجعل لكل مقاتل قوسين

أحدهما لتسديد الرماية من فوق صهوة جواده ، والثانى لاحكام الرماية وهو مترجل ، وله جعبتان للسهام احداهما تحتوى على ثلاثة أنواع ، منها ما يصل الى المسافات القريبة ومنها ما يصل الى مسافة متوسطه ، ومنها ما يصل الى المسافة البعيدة ، والاخرى تستخدم بعد نفاذ سهام الجعبة الاولى ، وهى مغطاة حتى لا تتلف السهام من

الرطوبة • وكان لكل فارس خوذة من الصلب لها غطاء من الخلف مطرز بالصلب لحماية العنق • وكذلك سلح حرسه بالدروع ، وسلح فرسانه الثقيلة ببلطة تتدلى من نطاق الفارس ، ومع كل حبل معقود بطرفه أنشوطة لسحب آلات الحصار وجر العربات التى قد تغوص فى الوحل • وأمر بأن يكون لكل مقاتل حقيبة صغيرة

تحتوى على كيس لعليق الجواد ووعاء ليأكل فيه الفارس وعدة أوتار لاصلاح القسى بها ، ومبرد لسن رؤوس الرماح والسهام وقطعة من الشمع • ويضع الفارس سلاحه داخل قربة مستطيلة فاذا اضطر لعبور الانهار نفخها واستعان على العبور بها • وكان كل مقاتل يحمل طعام الطوارىء معه وهو قطعة من اللحم المدخن وكمية من اللبن الخاثر والمجفف الذى لا يحتاج الا لبعض الماء ، وتسخينه ليصير لبنا •

ولقد أعجب الغازى بالمدفعية الصينية وأدرك مدى خطورتها ومهارة رجالها ، لذلك أدخل ضمن تنظيم جيشه فرقة للمدفعية كانت فى جملتها عشرة آلاف مقاتل من الصينيين يقودها قائد صينى • وكانت هذه الفرقة تقوم بانتخاب محلات الات الحصار الثقيلة واحكام اتصالها ببعضها حول المدن المحاصرة وبتركيب المجانيق الخاصة بقذف الاحجار ومجانيق اللهب • وما كانت تلك الآلات المعقدة التركيب لتنتقل وهى مركبة بل كانت تفك أجزاؤها وتخزن بالعربات حتى اذا استدعت الظروف استخدامها ، أنزلت الاجزاء المفككة وأوصلت ببعضها فى المحل المختار لها ، ثم توجه نحو الغرض المطلوب تدميره • وبعد انتهاء المعركة يعاد فكها من جديد وتخزينها بالعربات •

ولم يهمل الخان حكمة أهل الصين ولا قدرتهم على شفاء الاسقام

والاوجاع بأدواء من العقاقيـــــر والاعشاب ، فكلف جماعة منهـم بعلاج فرسانه • وكان من عـــادة المغول أنه اذا مرض أحدهم رشق رمحا أمام قبته ، فكان الاطبـــــاء الصينيون يمرون بالخيام فاذا رأوا الرمح فطنوا الى أن هناك أحـــد المرضى فيذهبون لعلاجه • ولنسبق الحادثات قليلا فنقول أنه لما تفشى المرض بين جيش المغول عنـــد هجومهم على البلاد الاسلامية لـم يشفهم غير منقـوع الراوند الذى أزال ما بهم من سـقم •

واستخدم المغولى الداهية الكثير من التجار والمترجمين فى أعمـال الجاسوسية، كما استخدم الكثير من أهل الصين كموظفـين لادارة الاراضى المحتلة بالنسبة لخبرتهـم الطويلة وحنكتهم السابقة • ولـم يترك الغازى صغيرة ولا كبيرة فى سبيل تنظيم جيشه واعداده اعدادا تاما الا واتخذ لها علاجا حاسما ، حتى أنه كلف أحد الضباط بجمع كل ما يفقد من الفرسان من أدوات وأسلحة والاحتفاظ بها حتى ترد لاربابها •

وكانت حرية القتال ممنوحـــة للقواد غير أنهم ملزمون بمداومـة الاتصال بالغازى بواسطة الرسل والاشارات •

وكان على كل جيش أو فيلق أن يدفع قوات الكشافة أمامه ، واذا صادفتهم احدى المدن القـــــوية التحصين فصلوا قوة تحيط بالمدينة تثبت آلات الحصار حولها ، بينما يستمر الجيش الغازى فى زحفـه قدما • فاذا أبلغ الكشافة عن وجود جيش العدو اتخذ القائد قراره فى أى التكتيكات يتبع : التولوغمـــا الخالدة أم مفاجأة العدو والخداع ؟

ذلك هو جيش المغول الذى غزا البلاد الاســــــلامية وأهرق دمـاء المسلمين وأحل الرعب فى أوطانهم لعدة سـنين •

فاذا ولينـــا شـطر الغـرب لنستعرض قوة الخوارزميين لوجدنا أن تلك الدولة الناشئة الفتية لم تزل بعد فى طور التنظيم والتكوين عند ما أطل عليها الشبح المغـولى يهددها من الشرق ، فقد ورثوا فيما ورثوا من أملاك السـلاجقة ذلك النزاع بين الخليفة الذى يمثـل السلطة الدينية وبين الحكام الذين يمثلون السلطة الدنيوية ، غير أن الخوارزميين وجدوا أن سلطانهـم لن يستتب الا بمؤازرة صـــاحب

السلطة الدينية أي الخليفة ، واستعان السلطان الخوارزمى بالوزراء وترك لهم تصريف شئون الدولة ، ولكن فى عهد علاء الدين الذى لم يكن يشق بوزرائه عين مجلسا من كبار رجال الدولة للنظر فى شئونها ، واشترط عليهم ألا يبتوا فى أمر من الامور الا باجماع الآراء • ولقد جعلوا لكل ناحية من نواحي الحكم ديوانا خاصا مثل ديوان المال وديوان الانشاء وديوان الجيش ، وهو الذى يهمنا فى المقارنة بينه وبين جيش المغول • فكان هذا الديوان مسئولا عن ادارة أمور الجيش وتجهيز مطالبه من أسلحة وعتاد وذخائر وأموال • وكان لهم بيت السلاح الذى تخزن فيه الإسلحة ، ويقوم بالعمل فيه عدد عظيم من العمال لصناعة الاسلحة واصلاحها • وأما صاحب الجيش فهو موظف مسئول عن التفتيش على الجيوش قبل خروجها للقتال • غير أنه لم يكن للخوارزميين جيش ثابت محدود العدد ، خاضع لنظم وقوانين عسكرية ثابتة معروفة ، وان كانت أسلحة الجيوش الخوارزمية والاسلامية عموما تفوق بل تمتاز على مثيلتها من أسلحة الجيش المغولى ، فكانت سيوفهم طويلة مقوسة مصنوعة من أمتن أنواع الصلب ، وسهامهم وأقواسهم أقوى ، وتصل لمسافات أبعد من شقيقتها فى جيش المغول • حتى دروعهم كانت من الصلب ورماحهم ذات حبال تسحب أعدائهم من فوق ظهور خيولهم •

ولقد كان لهم مجانيق لقذف اللهب ، وقاذفات لالقاء أضخم الاحجار على رؤوس المحاصرين • كما تفننوا فى استخدام القار والزيت الملتهب • ومع ذلك فلم تكن هناك رابطة قوية تربط جيوش الامبراطورية الخوارزمية برباط متين ، ولم تكن آمالهم موحدة ، كما لم تكن لهم عقيدة أجتماعية ثابتة ، فكان الجيش يتكون من عدة فرق متباينة الطباع ، مختلفة اللغات ، متغايرة المزاج والاهواء • لذلك لم يثق السلاطين الخوارزميين بجيوشهم وكانوا يقودونهم بأنفسهم ومن حولهم حرسهم الخاص •

وحتى الشعوب الاسلامية فى امبراطورية خوارزم كانت جديدة عهد بالاسلام ، فلم تكن الرابطة متينة ، وكانت جنسية الفرد تغلب عقيدته لدينية ، فالفارسى يحاول أن يسود العربى والتركى يناضل لكى يستذل لسابقين ويسيطر هو على نواحي الامبراطورية • وهكذا

استمرت الفتن والقلاقل والحروب الداخلية بين تلك الاجناس ، مما دعا الحكام الى بناء الاسوار وتشييد الابراج واقامة القلاع المنيعه . ولقد اهتم أولئك السلاطين المتنافرين والحكام المتقاتلين بانشاء قصورهم من داخل تلك القلاع وخلف أسوار الحصون ، وجلبوا فيها أسراتهم ونساءهم ، وجعلوا فيها المخازن ومساكن الجند ومحلات ايواء الاهالى عند تهديد المدينة من الخارج وهكذا كانت الفكرة الاساسية عند الخوارزميين ومن سبقهم من السلاطين هى الحرب السلبية ، لذلك لم تستطع الدولة التى زودت جيشها بأقوى الأسلحة واتخذت من الاسوار السميكة دروعا مضافة الى دروع مقاتليهم ، لم تستطع تلك الدولة الفتية المتحضرة المنيعة الاسوار الصمود لضربات جيوش المغول الهمجية القائمة فكرتها الحربية على الروح التعرضية الهجومية .

ولخشية السلاطين من محاصرتهم فى احدى القلاع أنشأوا لانفسهم قلاعا كثيرة فى العواصم التى اتخذوها لهم فى مختلف الاقاليم ، فالسلطان مرة فى مرو ومرة فى سمرقند ومرة أخرى فى خوارزم .

ولقد أحاط السلاطين أنفسهم بمظاهر البذخ والترف وجعلوا لأنفسهم أروع القصور ، واتخذوا لانفسهم الحراس ، واستخدموا العربات والجياد المطهمة .

وكان نظام الحكم لدى الخوارزميين وراثيا ، فحرصوا على ألا يرث السلطة غير الارشد من أبناء السلطان الراحل ، ولم يشذ الخوارزميون عن هذه القاعدة الا فى عهد علاء الدين خوارزم شاه حين اضطر أن يعهد بالملك من بعده لابنه ازلاغشاه متخطيا ابنه الاكبر جلال الدين منكبرتى مدفوعا بتأثير أمه تركان خاتون ونفوذها ، الا أنه عاد الى صوابه وهو يموت فأوصى بالولاية لابنه جلال الدين حرصا منه على مصلحة الدولة .

وكان منصب الوزارة أكبر عون للخوارزميين ، اذ كان السلطان مشرفا بالفعل على شئون الدولة ، ولكن لما تدخلت تركان خاتون أم علاء الدين وعشيرتها التركية فى شئون الحكم استشرى نفوذ الاتراك وأصبح منصب الوزارة و الوزراء هم أكبر عامل فى تقويض هذه الدولة الفتية ، فلم يكن الحكم مستقرا نظرا لانصراف الخوارزميين

الى الحروب الداخلية والخارجية • حقيقه اتســـعت أملاكهم من بغداد حتى حدود تركستان ، ولكن آلة الحكم لم تكن قد انتظمت بعـــد ، ويمـــكن التكهن بأنه لو مد الزمن فى عمر تلك الدولة لكان لها شأن آخـــر ، غير أن امبراطورية قائمة على مثل ذلك الاساس الواهى لهى امبراطورية زائلة متهدمة ، تحمل فى شروقها معنى الغـــــروب وفى بنيانها معاول الهدم ، ولم يـــكد يظهر جنكيز خان شـــيطان الحرب ورسول الخراب حتى كتب على تلك الدولة المزعزعة الاركان الفنـــاء وانقضت كالصاعقة على رأس أهلها فذهبت بحلمهم الضـــخم بددا ، ومزقت آمالهم الكبيرة ثم تبعثرت أشلاء ضحاياها فى الفضاء •



نشأت كلتا الدولتين الخوارزمية والمغولية نشأة عسكرية ، تعتمد كل منهما على القوة الحربية لتدمير كل مايجاورها من قوى ، ومن ثم تسود هي · فلما ضم جنكيزخان دوله الخطا الســوداء ، أصبحت امبراطوريته الفتيــة تلاصق دولة خوارزم الناشئة ، ولذلك بات من المنتظر احتكاك القوتين ببعضهما ، وفعلا حدثت بضع مناوشات حربية انتهت بعقد محالفة صــداقة وود نص فيها الطرفان المتعاقدان على تبادل التجارة بين الدولتين ·

وكان الخان مشغولا بتوطيد نفوذه وسلطانه فى الصين ، فلم يشأ أن يخاصم الدولة الخوارزمية بل على العكس أرسل الى خوارزم شاه رسالة ودية يطالبه فيها بتبادل التجارة بينهما . وجاء فى تلك الرسالة :

« ليس يخفى على عظيم شأنك وما بلغت من سلطانك وقد علمت بسطة ملكك وانفاذ حكمك فى أكثر أقاليم الارض ، وأنا أرى مسالمتك من جملة الواجبات وأنت عندى مثل أعز أولادى ، وغير خاف عليك أيضا أننى ملكت الصين وما يليها من بلاد الترك ، وقد أذعنت لى قبائلهم ، وأنت أخبر الناس بأن بلادى مثارات العساكر ومعادن الفضة .. فان رأيت أن تفتح للتجار فى الجهتين سبيل التردد عمت المنافع وشملت الفوائد .. »

وسلم تلك الرسالة لثلاثة نفر من تجار المسلمين وحملهم الكثير من الهدايا والعطور وسبائك الفضة والاحجار الكريمة . ولما عاد علاء الدين بعد فشله من بغداد سلمه التجار الرسالة ، فاستشاط غيظا اذ كيف يجرؤ ذلك المغولى على تسميته بوليده وفى ذلك القول مافيه من معانى الاستهانة والاستصغار ، بالاضافة الى ماتحمله عبارة اخضاع الخان للعناصر التركية من تهديد مقنع لعلاء الدين الذى ينحدر من أصل تركى ، فاستوضح التاجر عن مبلغ ما جاء فى تلك الرسالة من الحقيقة بقوله : « أنت تعرف ممالكى وبسطتها وعساكرى وكثرتها فمن هذا اللعين حتى يخاطبنى بالولد ؟ وما مقدار مامعه من العساكر ؟ » فأجابه بأن ما جاء بها مما لا يخفى على السلطان ، ولما استشعر فى عينى علاء الدين الغضب عاد فقال « ليس عسكره بالنسبة الى هذه الأمم والجيش العرمرم الا كفارس فى خيل أو دخان فى جنح الليل »

غير أن علاء الدين بعد أن عرف حقيقة الموقف ارتضى على رغمه أن يعقد المعاهدة التجارية بينه وبين الخان ، وسارت الامور على خير ما يرام فى مبدأ الامر . وكان الحراس يرافقون التجار على طول الطريق حتى بلاد المغول .

بينما كانت تلك الاحداث تدور فى الشرق كان النزاع بين الخليفة العباسى وخوارزم شاه قد بلغ منتهاه فى الغرب ، ولم يجد

الخليفة من يخلصه من عدوه الخوارزمي غير جنكيز خان قائد المغول الوثني وشيطان الحرب · فأوفد اليه رسولا يعرض عليه التعاون معه ضد خوارزم شاه وذلك بأن يهاجم جنكيز خان عدوه من الشرق بينما يهاجمه الخليفة من الغرب ، ولما كان على الرسول المرور عبر بلاد الشاه ليصل الى موطن المغول ، فقد آثر الخليفة أن يتخذ من الاحتياطات مايكفل سرية الرسالة وسلامتها ، فوشم الرسالة على رأس الرسول بعد أن حلقوا له شعره فلما نما الشعر اختفت الرسالة وحفظ الرسول الرسالة عن ظهر قلب ثم مضى صوب الخان فلما بلغه وأخبره خبر الرسالة ومضمونها حلقوا له شعره فتأكد لديهم صدقه ، غير أن جنكيز خان رد على الرسالة ردا وديا معتذرا بأن بينه وبين خوارزم شاه معاهدة صداقة وود ·

ولو أن الغازي لم يجب الخليفة الى طلبه الا أن الرسالة وجهت فكره الى خفايا العالم الاسلامي ومايدور فيه من أحداث وأسرار ، ونبهته الى ماكان يرزح تحته من فوضى وفساد ·

وقد حدث أن ثلاثة من التجار المسلمين جاءوا ببضاعة ثمينة ، ورأى المستحفظون أنه لا يخلق بأحد أن يشتريها غير الخان ، فلما قدموا له أولهم وسأله الخان عن ثمن بضاعته ذكر له التاجر ، وقد جهل أن للمغول حاسة تجارية فطرية وأن الخان يمقت المساومة ، ذكر له التاجر ثمنا خياليا ، فغضب الخان وأحل بضاعته لرجاله وأمر بالقائه في السجن · فلما مثل الآخران وعلما ماحدث بأولهما ، تظاهرا برغبتهما في تقديم بضاعتهما هدية للخان ، فسر بالهدية ، وعوضهما عنها بقدر عظيم من الفضة ثم عفا عن أولهما ، وعاش الثلاثة معززين مكرمين في معسكر المغول حتى اذا حان وقت رحيلهم أمر الخان أن يبعث كل أمير في دولته ، وكل قائد من قادة جيشه رجلا من عنده ومعه سلع مغولية ليبيعها في غرب آسيا وجلب بضاعة منها الى بلاد المغول ، وأرسل رسالة خاصة الى علاء الدين يقول فيها « ان التجار وصلوا الينا وقد أعدناهم الى مأمنهم سالمين غانمين ، وقد سيرنا معهم جماعة من غلماننا ليحصلوا على طرائف تلك الاطراف ، فينبغي أن يعودوا الينا آمنين ليتأكد الوفاق بين الجانبين وتنحسم مواد النفاق ذات البين »

ولما وصلت القافلة التى يقال أن تعدادها بلغ الاربعمائة وخمسين رجلا ومعهم خمسمائة جمل الى مدينة أوترار على نهر سيحون ، هال أمير تلك المدينة ينال خان ابن خالة السلطان علاء جمعهم وما رآه من العسكريين الـذين يتبعـونهم ، فكتب الى السلطان يسأله مايراه بشـأنهم فأمر عـلاء بمصـادرة أموالهم وتجارتهم وقتلهم جميعا ، وارسال التجار الثلاثة اليه .

واختلفت الآراء فى تقريرماذا كان الشاه مخطئا فى قتله التجار . ولكن الغـالب على تلك الآراء هو أن الشـاه كان محقا فى قتلهم اذ كان العرف يقضى بقتل الجواسيس ولانزاع فى أن مهمة أولئك التجار الاساسيه كانت تجسس الاخبار ، فلما وصل خبر المذبحة الى علم جنكيزخان استشاط غضباوهجره النوم ، وكعـادته كلما أهمه أمـر صعد الى قمة الجبـل ونزع عنـه قلنسوته وعلق نطاقه فى عنقه ثم تضرع الى خالق السـماء ومسـير السـحب أن ينصره عـلى عـدوه الخوارزمى ، ومكث فوق الجبـل ثلاثـه أيام صامتا . وفى الليـلة الثالثة رأى فى المنـام كاهنا فى مسوح سود ومعه عصا يشير اليه بها ويقول « لا تخف فانك مؤيد » فانتبه الخـان وقـد مسـه بعض الخوف وشيئا من الفرح ، وأرسل الى الشاه رسالة مع رسول مسلم ومعه رسولين من المغول يقول فيها « انك قـد أعطيت خطك ويدك بالامان للتجار وأن لا تتعرض الى أحد منهـم فغدرت ونكثت والغدر قبيح ، ومن سلطان الاسلام أقبح ، فان كنت تزعم أن الذى ارتكبه ينال خان كان من غير أمر صدر منك فسلم ينال خان الى لاجازيه على مافعل حقنا للدماء وتسكيناللدهماء والا فأذن بحرب ترخص بها غوالى الارواح »

ولما كان ينال خان من عشـيرة أم الشاه تركان خاتون التركيـة الاصل ، والتى كانت تتمتع بنفوذ يضؤل أمامه نفوذ الشاه فكان من العسير تسـليم ينـال خان ، بل أمـر الشاه بقتل الرسول المسلم وحلق لحى الآخرين المغوليين .

هكذا رد الشاه على رسالةالخان ردا عمليا ، وبدأ الشـاه يجهـز الجيوش ويبنى الاسوار حول المدن ويضـع الخطط الحـربية ، ولـما

وصل الرسولان الى الخان ، وقصا عليه النبأ ، فعزم على الانتقام لمقتل المغول بأترار ، فلن يمضى الحادث بمثل تلك السهولة التى يتصورها المسلمون . ودفع بعيونه وكشافته خلال الجبال ، تلك الاطواد الضخمة بين بلاد الخان الفقيرة وبلاد الشاه الغنية . ولذلك أخذ الشاه يستطلع أخبار جيوش المغول ومدى قوتهم . وهكذا نمت بذور الحرب بين العاهلين ، ووجد المغولى الجشع للدماء سببا يبرر سفكها .

ولقد جرت حادثة أترار على المسلمين أفدح النوازل فى كل تاريخهم حتى قيل فيها « لقد كفر المسلمون عن كل قطرة من دماء أولئك المغول بسيل من الدماء ، وتقاضى المغول عن كل شعرة من رؤوس التجار مائة ألف من أرواح المسلمين » .

صراع الطبيعة



لقد صدق عزم الخان على ضرب الشـــاه وتأديبـــه ، وصـــمم على الانتقام لمصرع رسـله وتجـاره ، فأرسل يجمع الحـــكام والأمراء الذين يخشى من تقلب قلوبهم عليه فى غيبتـــه ، وطلب اليهم الانضواء تحت لوائه ومعاونتـــه فى الجهاد المرتقب . وعـد قـواته فاذا هى لاتزيد بحال عن المائة ألف محارب، فأرسـل يدعو قـوادهم للقـــائه بجيوشهم على ضفاف أحد الانهار فى الجنوب الغربى من صحراء الجوبى

حيث تنبسط الارض وتمتد المراعى النضرة ، فذهبوا ومعهم قطعان لا حصر لها حيث ترعى وتسمن خلال فصل الصيف الخصيب • كما أرسل مع الرسل نداء عاما الى نساء الامبراطورية يوصيهن باعداد الخيام لاستقبال المحاربين واكرام من يفد عليهن من القواد ليلا •

ولما بلغ مجمع القوات عقد مؤتمرا حربيا وضح فيه الغرض من الحملة ، والطرق التى سيسلكونها للوصول الى عدوهم • ثم خرج ليمتطى جواده الابيض وقد رشق فى قلنسوته ريشات من ريش النسور ، وتمنطق بنطاق عريض مرصع بالذهب فوق سترة جلدية ذات فراء أسود وأكمام طويلة • مضى الخان يستعرض فرسانه الذين اصطفوا لهذا الغرض • وكان حريصا على تفقد حالة الجياد وسروجها بالضبط كما كان يتفقد حالة الفرسان وثيابهم وأسلحتهم ، ولاغرو فالجواد والفارس هما أروع عناصر جيشه ، فالاول لا يكل اذا سقى الماء كل ثلاثة أيام وكذلك الفارس لن يهن اذا ظل نهارا بليلة على صهوة جواده ، ولن يتأفف اذا قضى ليلة فوق الجليد • لقد علم الرماية يوم علم الكلام •

وبعد انتهاء العرض توسط الساحة أمام الفرسان المصطفين فى سكون واحترام وصاح فيهم « ستصحبوننى لنكيل ضربة قوية الى خصمنا الذى عاملنا باحتقار ، وستشاركوننى نصرى ، فليكن قائد العشرة يقظا مطيعا كقائد العشرة آلاف ، وليعلم الجميع أن من يقصر فى مهمته فجزاؤه الموت ، وكذلك نساؤه وأطفاله »

والناظر الى خريطة آسيا يلفت انتباهه تلك البقعة البنية المعتمة اللون فى وسطها • تلك البقعة التى تدل على ضخامة الجبال وشدة ارتفاع القمم • أما على الارض فانها تكون حاجزا قاريا عظيما يفصل سهول الغرب عن مرتفعات وهضاب الشرق ، ويفصل الارض الطيبة عن الهضاب القاحلة والجبال الماحلة •

وكان على الخان وجيوشه اجتياز تلك المرتفعات من الشرق الى الغرب صعودا ، ثم اتخاذ سبلا مذللة فى سفوحها هبوطا • كان على فرسان المغول أن يقطعوا تلك المرحلة من غرب بحيرة بيقول حتى بلاد فارس

صاعدين جبالها ، هابطين على سفوحها ، ضاربين فى وديانها ، مجتازين مضايقها ، عابرين أخاديدها وخيرانها ، سابحين فى أنهارها . كانت الرحلة شاقة وأشق منها قسوة الريح وشدة البرد ، البرد الذى يجمد الاطراف ويشل الحركة والحياة .

ولم يكن يشك الخان فى خطورة العمل المقبل عليه ، ولكنه عزم ولن يرده عن عزمه الا الموت ، ثم أنه يثق فى كفاءة الفارس المغولى وقوة جواده ، ويؤمن بقدرة جيشه على اجتياز أصعب الاراضى وعبور أخطر المناطق .

وفى فجر يوم التحرك دقت الطبول فدفعت قطعان الماشية فى المقدمة ، تلك القطعان التى لم يكن لها حصر ، والتى ترعرعت ونمت فى المرعى الخصيب ، ومن خلفها المقاتلون فى مركباتهم ، وسرعان مايحل الظلام على القوم وهم سائرون فيكون القادة قد سبقوا قطعان السائمة ، فينصب كل قائد لواءه بينما يسرع الجند لاستلام الخيام من فوق الجمال ونصبها . ومايكاد يتم انشاء المعسكر وينتشر الرجال لحراسته حتى تكون السائمة برعاتها قد بلغت مناخها .

واستمرت الرحلة تزداد شدة يوما بعد يوم وتستلزم جهدا كلما صعدوا شواهق الجبال أو كلما توغلوا فى الوديان . كان الشتاء قد حل واكتست الطبيعة كلها بالبياض ، واضطر المهاجرون خلال رحلتهم الطويلة فوق بساط الجليد الابيض لاستخدام الزحافات .

وكان مسار الجيش يميز ببقايا العظم والقرون الملقاة فى محلات الراحة أو المبيت على طول الطريق الكثير الحنايا والالتواء .

استطاعت فرقتا جوشى وشيبه نويون صعود جبال تيان شان

والوصول الى قممها التى تقارب السماء ، ثم هبطت متجهة نحو الجنوب ، نحو الطريق الشمالى الرئيسى المؤدى الى بلاد الشاه مباشرة ، بينما استمرت القوة الاساسية من جيوش المغول تزحف وئيدة متخطية سلاسل الاخاديد ، مجتازة عدداً من البحيرات المتجمدة حتى بلغت بوابة « سنجاريان » أو « بوابة الريح » حيث لسعتهم العاصفة السوداء العاتية ونفقت قطعان الماشية . وكان الجيش قد

استهلك جزءا كبيرا من خرافه وتياتله وأبقاره ، وفرغت مخازن الغلال والتبن ، فاضطر الجيش الى ترك بعض المركبات فى الطريق وبدأت الخيل تكبو من فرط الاعياء وقلة الغذاء ، وكانت تضرب بحوافرها فى الثلج لتستخرج بعض أعواد من العشب تتبلغ به . وكان الفرسان يلفون حوافر خيلهم بشرائط من جلد الوعل لوقايتها من البرد والرطوبة وفرغت جعاب الزاد من المحاربين وعز الغذاء ، فكان الرجل يلجأ لجواده فيقطع أحد شرايينه ثم يمتص قدر مايشبعه من دمه ثم يعود فيسد العرق

كانت قسوة البرد وندرة الطعام لكلا الجواد والفارس ، وشدة الجهد لاجتياز تلك الاراضى الوعرة التى لن تستطيع حتى الحملات الحربية الحديثة اجتيازها ، كانت تلك هى الصعاب التى واجهت الجيش المغولى خلال زحفه نحو بلاد الغرب ومع ذلك لانكاد نحس بأن أحدا من هؤلاء البرابرة البدائيين قد فطن الى أنه بذل جهدا جبارا ، أو أنه قد استطاع أن ينجز ويحقق مافشل فيه وعجز عنه فرسان الاسكندر قبل ذلك بمئات الاعوام ، وحسبى أن أحدا منهم لم يدرك أن ثمة مصاعب أومتاعب قد واجهته أو عناء قد كلفه بعض الجهد وشيئا من الكد . فقد كانوا قوما خلقوا والجهاد والكفاح طبيعة فيهم لا يشكون ولا يتبرمون . كانت قوة احتمالهم تناسب قسوة طبيعتهم وشدة مراسهم توافق خشونة بيئتهم

كان الفارس المغولى ينام نوما عميقا وسط اعاصير الثلج ولفح قارس الريح بالضبط كما كان يغمض جفونه فى الليلة الصافية النسيم

وما كاد الجيش يصل الى الهضاب الغربية خلف بوابة الريح حتى راعتهم غابات شجر الصنوبر الطويل الفارع الضخم فأسرعوا يقطعونه ويصنعون منه جسورا يعبرون عليها الاخاديد ، ويوقدونها ليلا يدفئون بها أوصالهم ويسمرون حولها ويضحكون كأنهم فى مراعيهم وحول قبابهم فى صحراء الجوبى ، ولم ينسوا أن يصيدوا حيوان المرتفعات الباردة من الدببة والثعالب والآيل ثم

يقذفونها الى النار حتى تتفحـم جلودها ثم يلتهمونها بنهـم وشره عظيمين ، تاركين عظامها لتختلط بعظام الحيوانات النافقـة كأنهـا علامات الطريق الذى سلكوه .

صعدت فرقة جوشي جبال تيان شان ثم هبطت لتواجه من خلال الغـابات الممتدة حـدود الـدولة الخوارزمية . وكذلك أتم صلب الجيش عبور الوديان والمرتفعات الجبلية ووصل الى السهول عـلى حدود الامبراطورية الاسـلامية ، وأخـذت أقسام الجيش وفـرقه تقترب من بعضها وتواجه نهـر سيحون الكبير الذى كان مرتفعا بفعل الفيضان

أسرع شيبه يدفـع بدورياته وكشافته للامام ، وتبعتها طلائع الفـرقة المخصصة للاغارة عـلى المخـازن ومحلات الطعـام ، تبرز من خلال الغابات وتهبط من فوق المرتفعات متخذة سمتها نحو النهر الذى تنتشر حوله القرى فى واديه الخصيب فيسلبون قطعان الماشية وما يلزمها من العليق وما يحتاجونه هم من الطعام ، ويقودون كل ذلك تحت ستر دخان الحرائـق التى يشعلونها فى القرى غير المحصنة

وماكادت طـلائع الشاه الذى كان قد وصل من الهند حاملا لواء النصر تبلغه أخبار غارات المغول، حتى صمم على ان يدفع بجيشـه المكون من أربعمائة الف مقـاتل صوب الشمال لكى يبيد المغـول الـذين « لن يصـمدوا لقـوات الاسلام التى لاتقهر » حسـبما اعتقد .

وماكاد يصل الى قرب نهـر سيحون حتى خلف القسم الاكبر منها هناك ، وأخذ الباقين معـه واتجه نحو مصب النهر ، غير أنه لسوء حظه وجد نفسه يواجـه جموع المغول وهو فى واد طويل تكتنفه الغابات الكثيفة عـلى المنحدرات .

ولما كانت قوة الشاه تفـوق قوة المغول أولئك القـوم الذين يثير منظر شعورهم الشـعثة ، والمكتسين بالفراء والجـلود اشمئزاز جند خـوارزم المتـأنقين ، فقد رأى الشاه علاء الدين أن يسرع بشن الهجوم على عدوه واخذه على غره قبل ان يلوذ بالفـرار .

وسرعان ما أمر بنفخ نفير الحرب ودق الصنوج فاتخذ الجيش الخوارزمى تشكيل القتال ·

بهت شبه نويون اذ رأى جموع خوارزم جيدة التنظيم والتسليح تفوقه عددا ، ونصح جوشى أن ينسحب ويستدرج عدوه نحو معسكره الاساسى، خدعة المغول التقليدية غير أن ابن الخان الاكبر أبى الانسحاب قائلا « وكيف أواجه أبى بعد الفرار ؟ » وأصدر أمره بالهجوم · وأسرع المغول يمتطون الخيل وصاحوا صيحة الحرب وغدوا على عدوهم والسيوف القصيرة فى الايدى القابضه على أعنة الجياد ، والرماح الطويلة فى الايدى الخالية بينما كلفت الفرسان الخفيفه بحماية الاجناب

اندفع المغول نحو أعدائهم من الاتراك ونشبت ملحمة كريهة انجلت عن خسائر فادحة فى صفوف المسلمين · وكان كل من الشاه وجوشى على وشك الفناء فى تلك الملحمة ، فقد وجد الشاه نفسه بالقرب من آلوية المغول ذات القرون التسع وكاد يقضى عليه لولا استماتة حرسه فى الدفاع عنه · وأما جوشى فقد افتداه أحد الامراء الصينين · وأصبح المسلمون على وشك الاندحار عندما قام جلال الدين أكبر أبناء الشاه وأفرس فرسان خوارزم فشد شدة مضادة على قلب المغول اضطروا ازاءها الى الارتداد بألويتهم ·

واذ حل المساء ترك المغول نيران معسكرهم موقدة طول الليل ، كما أشعلوا النار فى حشائش الوادى ثم امتطوا خيلا أتموا بها انسحابهم الطويل الذى قطعوا فيه مسيرة ليلتين فى ليلة واحدة ·

وأشرقت شمس الصباح على الوادى المكتظ بجثث القتلى وكتائب خوارزم شاه المهشمه · أما المغول فقد تلاشوا كما تلاشى الليل الى حيث لا يعلم أحد ·

وكان جامعوا العلف من المغول قد اكتسحوا كل ما على الارض حتى أقحلت وأجدبت · ولم يجد خوارزم شاه ما يمون به جيشه فى تلك المنطقة فاضطر هو الآخر الى التراجع ، التراجع الى مدنه

المحصنة وجدره السميكة يحتمى خلفها خشيةضربات المغول الثقيلة القاسيه .

ولقد كانت خسائر المسلمين فى تلك المعركة جسيمة جدا ، ولقد كان لها أســوأ الاثر فى نفوس المقاتلين . لقد هزمتهــم ركبــة الفرســان المغــول ، وهشــمتهم ضرباتهم القوية العنيفة ، وأذهلتهم شجاعتهم وفروسيتهم الخارقه . وحتى الشاه أصبح يقض مضجعه سيرتهم ويثير أعصابه ذكرهم . لقد أنــزلوا الــرعب حتى بقلب الفارس الجرىء خــوارزم شاه نفسه حتى قال عنهم ان عينه لم تر محاربين أشد بسالة منهــم ولا أثبت جنانا منهم ، ولم ير فى حياته أمهــر منهم فى تســـديد الضربات بحد السيف أو الوخز بطرفه .

واذ علم الخان بتفاصيل المعركة الاولى ، وكان قد وصل الى حدود الــدولة الخوارزمية أعجب بولده جوشى وأرســل له خمســة آلاف مقاتل لشد أزره ، وأمره بتعقب الشاه .

فى ما وراء النهر

لقد وصل المغول بجحافلهم الى حدود الدولة الخوآرزمية . وأول أقاليم الاسلام هو اقليم ما وراء النهر ، ذلك الاقليم الـــذى كان يتكون من قطعتين متباينتين من الارض ، يفصلهما بحر آرال المالح أما الاولى فهى الهضبة القاحلة التى تقـع الى جنوب وغرب بحر آرال تكسوها طبقة من الطفل الاحمر والغبار ، وأما الثانيـة فهى التى انحدر اليها الشاه بجيش قـوامه أربعمائة ألف مقاتل ليقابل جيش

المغول عند حدود الارض الخضراء والوديان الخصبه التى تلى البحر من الشرق ، والتى يجرى فيهـا نهر سيحون من جنوبها الشرقى الى شمالها ليصب فى شمال بحر آرال ، ونهر جيحون الذى يجرى فى نصفها الجنوبى ويصب فى جنوب بحـر آرال • وعـلى نهـر سيحون تجـد الكثير من المـدن الاسلامية قد أقيمت على ضفتيه واتصلت ببعضها بطرق القوافل كسلسلة متصلة الحلقات من الحياة ممتدة عبر الصحراء الميتة • وعلى نهر جيحون تربض قلعتا الاسلام المنيعتان بخارى وسمرقند •

ومكث الشـاه جنوب النهــر منتظرا عبور المغول اليه ، غير أنه لم تصله أية أنباء عنهم حتى تلاقى بهم فجـأة فى أحد الوديان ولـم يستطع القضاء عليهم ، اذ سرعان ما لاذوا بالفـرار بعد أن أنـزلوا الرعب فى قلبه وهشموا كتائبه ، وكان يأمل وصول القوات والاموال التى كـانت قد سبق وطلبها من خوارزم • غير أنها لم تصـل ، فقد وضع الخان خطة تمنع وصول تلك الامدادات • وكانت خطـة الخان هى الاستيلاء على الاقليم من جهاته الاربع مرة واحدة • لذلك قسم قواته الى أربعـة جيـوش جعـل عـلى رأس الجيش الأول ولديه أوجتاى وشاطاجاى وأعطاه مدينة أترار أول المدن الاسلامية والتى قتل حاكـمها بعثـة التجار غرضا أساسيا له • وعين جوشى على رأس الجيش الثـانى وكلـفه الاستيلاء على جنـــد الواقعة فى الجزء الشمالى من نهــر سيحون وبالقرب من مصبه • وأما الجيش الثالث فقد وضع على رأسه ثلاثة من قواده وكلفه الاســتيلاء عـلى خجنده وبنكت ، واحتفظ لنفسه بقيادة الججيش الرابع مصطحبا معه ولده تولى •

وبدأت جيوش المغول تنحـدر نحو أغراضها ، ووصلت الانبـاء المثيرة الى مسامع الشاه من كل الجهات ، فمن أترار تصـل أنباء ظهور أبناء الخان ، ومن خوارزم تصل أخبار تحركات شيبه نويون الجرىء ، الذى انفصل عن جوشى وعبر الجبال فهـــدد الطريق الى خوارزم ، كذلك بلغته أخبار ذلك الجيش يسير فى جنبات مدينـة خجنده ، وعلى وشـــك الوصول اليها •

وقع الشاه فى محنـة قاسية ، وأصبح اذا لزم موقعه خلف نهر

سيحون عرضة للانفصال عن نهر جيحون الذى هو خط دفاعه الثانى بل خطه الرئيسى . فنراه يتخبط فى خطأ جسيم أثار انتقاد العسكريين ، اذ خالف أحد مبادىء الحرب التقليديه التى لا يجوز أن تخفى على محارب فذ مثله . فقد وزع نصف جيشه على المدن المحصنة ضاربا بمبدأ الحشد والتجمع عرض الحائط ، متناسيا أنه يتيح بذلك الفرصه لعدوه كى يقضى على عناصر جيشه الواحد تلو الاخر ، فقد دفع بأربعين ألف مقاتل لتقويه الحاميات المبعثرة على نهر سيحون ، ثم مضى جنوبا ببقيه جيشه بعد أن أفرد لبخارى ثلاثين ألف محارب آخرين وقادما تبقى نحو سمرقند العاصمة المهددة . فعل ذلك مفترضا أن المغول غير مستطيعين اقتحام قلاعه ، وانهم لاشك مرتدين على أعقابهم بعد موسم معين يقضونه فى شن الغارات وسلب المحصولات ولكن ... ظنه خاب فى كلا الافتراضين ..

كانت أترار هى أولى البلاد الإسلامية مفتاح ذلك الاقليم ، ولم ينس المغول أن حاكمها قد قتل بعنتهم التجارية ، وكان يحكمها ينال خان حتى ذلك الوقت ، فأسرع يصلح الحصون ويقوى قلعتها وعين أمهر القواد على حاميتها الكبيرة . وأخذ يدافع ورجاله عن المدينه خمسه شهور فقد خلالها أهل المدينه ومقاتلوها شجاعتهم وجلدهم ، ومع ذلك استمر ينال خان يناضل المغول حتى سقطت المدينه فصعد الى أعلى أبراجها وأخذ يمطر المغول سيلا من السهام ، واذ وجد نفسه محاصرا من كل جانب قذف بنفسه الى سطح أحد المنازل وأخذ يقذف المغول بالحجارة التى كانت تناولها له بعض النسوة ، حتى قبض عليه المغول وساقوه الى الخان الذى أمر بصب الفضة المصهورة فى عينيه وأذنيه .

وبينما كان الجيش الاول يقاتل فى أترار كان الجيش الثالث يجتاز الاقليم الخصب المؤدى الى بنكت وخجنده ، كان ذلك الاقليم يفيض بالبساتين النضرة على شواطىء النهر، تليها حقول تنبت بالخيرات من جميع الانواع . وكانت المراعى منبسطة الى أقصى اتساع ، مزدحمه بالمواشى والابل والخيل والاغنام ، وكانت القرى محصنة بأسوار تحيط بأسفلها القنوات احاطة السوار بالمعصم ،

وكانت « حقول البطيخ الذى نزن الواحدة منه خمسين رطلا ، وينوء الحمار بحمل زوج منه ، ينتشر أمام المدن والقرى ، وكانت أشجار الفاكهة وطيب الثمار تملأ المدن ، وأخصها الرمان الذى لا يقل حجم الواحدة منه عن حجم قبضتى الرجل • وكان القوم يعتصرون منه شرابا لذيذ الطعم يروى العطش ويطفىء غلة الصيف • »
استمر المغول يزحفون فى تلك الجنه الوارفه بعد رحله الشتاء فى ممرات جبال تيان شان القارصة البرد • ولا شك أنهم نعموا بها وطربوا فيها ، غير أنهم كانوا يقصدون بلدا معينا ومكانا مقصودا • كانوا يقصدون بنكت وخجندة ذات الاسوار العالية • أما بنكت فقد دخلها المغول دون عناء اذ سلمها أهلها، ولكن هؤلاء القوم الذين يعشقون سفك الدماء فصلوا الجند عن الاهالى وأعملوا سيوفهم فى رقاب الاول ، ولما بلغوا غرضهم الثانى مدينة خجندة على شاطىء النهر ، وكان لها أسوار عاليه وأبراج متينة حاكمة ، وأهلها قوم حرب صبر عليها حاصروها ، غير أن قائدها الشجاع تيمور ملك انسحب منها الى جزيرة وسط النهر مع ألف من جنوده البواسل وعدد من القوارب وراح يحصن الجزيرة

وطال الحصار • • • لكن المغول وجدوا أن أسلم طريقة للوصول الى جزيرة عدوهم هو اقامة جسر من الحجر الى جزيرته، ولذلك سخروا الاسرى من أهالى أترار وبنكت فى نقل الاحجار والقائها فى النهر ، وأخذ الجسر يمتد يوما بعد يوم باشراف مهندسى الصين وبمجهود أسرى البلاد الاسلامية •

ولم يمكث تيمور بالجزيرة خاملا، فقد انتقى بضع عشر مركب من مراكبه وشيد المتاريس الخشبية حول كل منها ، ثم ملأها برماة السهام ، وراح هذا الاسطول المتواضع يغير يوميا على الشاطىء يقذف المغول بسهامه الدقيقة التصويب ويعطل أعمال البناء ، بينما ابتدع رجال المدفعية الصينيين سلاحا جديدا للتغلب على هذا الاسطول ، فبعد أن كانوا يستخدمون المنجنيق لقذف الاحجار راحوا يستخدمون فى قذف الاوعية النارية على القوارب ، وهى أوعية مليئة بالكبريت المشتعل •

لم ينل اليأس من تيمور الشجاع بل مضى يبدل ويغير فى بنـــاء قواربه حتى يستطيع مقـــاومة حيل المدفعية الصـــينية ، فأقام حواجز جانبية وسقوف ذات ميول شديدة كساها بالطين بعد أن ترك بضع كوات لقذف السهام ·

مضت المعركة اليـــومية بين القوارب والمدفعية سجالا ، ولكن الجسر الحجرى أخذ يطول وبدأ يكتمل ، ورأى تيمور ملك أنه لن يستطيع الصمود طويلا فى جزيرته، فشحن رجاله فى اثنى عشر سفينة كبيرة ثم جلا عن الجزيرة بأسطوله متجها صوب الجنوب تحت ستار الليل بعد أن حطم حاجزا ضخما من السلاسل أقامه المغـــول عبر النهر ·

ولم تفتر مطاردة فرســـان المغول له أثناء فراره ، بينما جهز جوشى الذى كان قد قطع شـوطا كبيرا الى الجنـــوب جسرا من القوارب بعـــرض النهر ، وأعد مهندسيه لاســـتخدام قاذفات الاحجار بمجرد ظهور أســـطول المسلمين · ولما بلغت هذه الانبـاء مســـامع تيمور الواسع الحيـلة رسا عند رقعة مهجورة من الساحل وأمر رجـــاله بالنزول ، ولكن مطارديهم المغول كانوا لهم بالمرصاد ·· وان كان المسلمون قد راوغوهم فى النهر ، لم يعد بوسعهم الافلات من المغول على البر ، فقـــد لحق المغول بهم وفتكوا بهم عن آخرهم، وفر تيمور بصحبة بعض رجـاله الشجعان بعد أن شاهد مصـــرع جنوده وســـقط هؤلاء من حوله واحدا بعد آخر ، ومضى وحيـدا فـوق جـواد سريع ســاعده على تضليل المغول حتى لم يعد يتعقبه منهم غير ثلاثة فرسان قتل أقربهم اليه بسهم تخلل عينه ثم صـــاح بمطارديه الآخرين محذرا « ما زال بجعبتى سهمان ، وأقسم أنهمـا لن يخطئا هدفهما » · ولكنه لم يعد بحاجة الى استخدام الســـهمين الاخرين فقـــد نجح فى تضليلهما أثناء الليل ولاذ بالفرار حتى التقى بالامير جلال الدين ابن الشـــاه فى أقصى الجنوب ·

والحق يقال ان شجاعة تيمور ملك كانت مضرب الامثـــال بين الترك والمغول على السواء ، ولاغرو فقد نجح فى تعطيل فرقة كاملة من الاعداء شهورا عدة · ولا شك أن ذلك الحصار قد بين مدى ســـعة الحيلة التى كان يتمتع بها المغول كلما صـــادفتهم ظروف جديدة

عليهم . ومهما كان فان تلك المعركة لم تكن الا حلقة متواضعة في سلسلة الحلقات الحربية التي اشتعلت في جبهة اتساعها ألف ميل .

أما الجيش الثاني الذي كان الاول في اتصاله بالمسلمين والقاء الرعب في قلوبهم وقلب قائدهم ، ذلك الجيش الذي يقوده جوشي أكبر ابناء الخان واصلبهم عودا ورأيا فقد اكتسح القطاع الشمالي من نهر سيحون مستوليا على البلاد الصغيرة في طريقه ، ففرت الحامية التركية من بلدة جند . واذ ألقى كل جندي من كتائب الاقتحام المغولية بسلمه الخشبي الى سور المدينة ، واذ شاهد الاهالي المغول وهم يتسلقونها منقضين عليهم ، اضطروا الى التسليم . وقد جرت العادة في مثل هذه الاحوال في السنة الاولى من سني القتال أن يذبح المغول جنود الشاه من الحاميات التركية ، بينما يدفعون بالاهالي الذين كانوا في غالب الامر من الفرس الى خارج المدينة كي يستطيع المغول نهبها عن سعة . ثم يعود المغول فيقومون بفرز الاسرى ، حيث يكلف الشبان الاقوياء منهم بالاشتراك في أعمال الحصار في المدينة التالية ، اما أصحاب الحرف فيصير استغلالهم في كل ما يستلزم مهارتهم .

ومضى المغول في سياستهم تلك الى أن وقع حادث كان له أسوأ الاثر في معاملتهم لاهل البلدان المحتلة ، فقد حدث أن بعث المغول برسول من التجار المسلمين الى احدى المدن ، فما كان من أهالي تلك المدينة الا أن قتلوا الرسول ومزقوا جثته مما أثار غضب المغول ، فبدأوا سلسلة المجازر التي لا تنتهي الا بالقضاء التام على أهل المدينة بحد السيف وسن الرمح .

واذ فرغ جوشي من تطهير بلدان شمال النهر انحدر جنوبا لمؤازرة الجيش الثالث عند خجندة ، بينما انفصل عنه شيبه نويون الذي أخذ يتجول عبر الجبال ويخترق الوديان حتى بلغ الطريق المؤدي الى خوارزم ، ومن هناك انفتل متجها صوب الجنوب الشرقي الى سمرقند .

ولم نعلم بعد أين ذهب الخان بجيشه الرابع ، فلم يترك وراءه

أثرا من العظام أو بقـــايا قرون الوعول . لقد اختفى الخان حتى لم نعد نحس له أثرا وســط تلك المعارك الدائرة على امتداد النهر . والواقع أن أحدا لا يعلم اطلاقا أين عبر جنكيز خان النهر أو حتى الى أى وجهة مضى ؟ وان كان يبدو أنه قام بحركة النفـــاف جريئة واسعة النطاق خلال الصحراء ذات الرمال الحمراء والاتربة السافية ، لانه ظهر فجأة على حافة البـادية القاحلة وقد أسرع الخطى متجهـا نحو بخارى من الغرب ، فقد أراد أن يقطع عن المـدن المحاصرة المؤن والامدادات فسار بنفسه للاستيلاء على قلب الاقليم ليحـول دون وصول جيش الشـــاه الى المدن المحاصرة على نهر سيحون .

وبذلك لم يكن الشـــاه قد تم الاطباق عليه من الاجناب فحسب . بل قد أصبح فى خطر داهم اذ كاد أن يصير بمعزل عن الجنوب حيث جيوشه وابنه جـــلال الدين والامدادات وأرض خراســـان وفارس الغنية .

فبينا شـيبه نويون يزحف من الشرق كان جنكيز خان يتسلل من الغرب وبدأ الشاه فى ســمرقند يحس وطـأة الشرك الذى وقع فيه ويستشعر فكى عدوه وقـد أطبقا عليه . واذ اقتربت الـكارثة وزع الشاه جيشه الرئيسى عـلى بخارى وسمرقند ، وأرسل بضع كتائب للدفاع عن بلخ وكندور ، ثم غادر سمرقند غير مصـطحب الا بعض النبلاء ورجال حرســـه ووحدات الفيلة والجمـــال . ولم يفته أن يحمل معه كنوزه وأسرته وقد عقد العزم على العـــودة من جديد على رأس جيش جديد .

ولسوء حظه قد خاب حدسه أيضا فى هذا الافتراض الاخير ! ولا شك أن الشاه محمد الذى اعتـاد رعاياه أن يلقبوه بالاسكندر الثانى قد واجه من يبزه فى فن القيادة ، فقد ثبت قصور كفايته الحربيـة أمام خصمه المغولى ، ولا غرو فان جيوش المغول حاملة السيف والنار على ضـفاف السـيحون ، تلك الجيوش التى قادها ابنـاء الخان لم تكن الا ستارا يخفـون وراءه الهجمات الرئيسية التى أوشـك شيبه نويون وجنـكيز خان أن يحققاها .

كان الخان متعجـــلا عبـــور الصحراء اذ كان مشـوقا الشـوق كله الى الانتهاء بسرعة من هـذه المرحلة حتى أنه لم يكلف نفســه

مشقة التريث للاستيلاء على المدن الصغيرة التى صادفته فى طريقه . ولم يسألها غير تزويده بالميـــــاه اللازمة لخيله ، ولا عجب فقد كان يبغى مفاجأة علاء الدين فى بخارى بأى ثمن ، ولكنه ما كاد يبلغها حتى علم أن الشاه قد لاذ بالفرار .

هاهو ذا جنكيز خان يجابه احد قلاع الاسلام الضخمة ، بخـــارى «مدينة الجامعات الإسلامية التى يحيط بها وبقراها ومزارعها سور طوله اثنى عشر فرســـــخا ، اذا علوت لم يقع نظرك من جميـــــع النواحى الا على خضرة تتصـــــل خضرتها بلون السماء ، مكبة زرقاء على بساط أخضر ، تلوح القصور فيما بين ذلك كالكواكب العـلوية بين أراض وضياع مهددة ، وليس فيها ماء جار لارتفـــــاعها . وأما مياهها فمن النهر الاعظم الجـارى من سمرقند ، وقد بلغت حاميتها عشرين الف مقاتل من الجنـــــود الفرس والاتراك . »

والحق ان تلك المدينة الضخمة كانت تحوى بين جنبـــــاتها نارا مستعرة دفينـــة ، ولاعجب فهى معقل الاســـــلام وموطن أئمته وعلمائه ، فلا يدهشنا ان كان اهل المدينة من غلاة الثقاة المتحمسين . وان كانوا فى الوقت نفسه قدأشكل عليهم بعد أن بلغتهم أنباء المجازر المغولية فبلبلت أفكارهم وشتتت نفوسهم .

كان الســـــور من المناعة حتى ليستحيل اقتحامه ، ولو عقـــد سكان المدينة عزمهم على الدفـاع عنها حقا لانصرمت شهور قبـــل أن يجد المغول موطنا لاقدامهم .

قال جنـــكيز خان ، وفى قوله نصيب كبير من الصحة « ليست مناعة أية سور أكثر أهميـــة من شـــجاعة أولئك الذين يدافعون عنه . »

وقد تراءى للضـــباط الاتراك المكلفين بالدفاع عن المدينـة أن يتركوا السكان ليلقوا مصـيرهم ، ثم لاذوا بالفرار للحاق بالشـــاه وهكذا مضوا تحت ستار الظـلام بجنودهم من خلال احدى البوابات متجهين صوب نهر جيحون .

ولقد تغافل المغول عن هروبهم وسمحوا لهم عمـــــدا بالمرور ثم تعقبوهم بثلاث فرق حتى التقـوا بهم قرب النهر فذبحـــــوهم عن

آخرهم • واذ تخلت الحامية عن المدينة اتفق الشيوخ والقضاة والائمة على مقابلة الخان وتسليمه مفاتيح المدينة والحصول منه على وعد بتأمين الاهالي على حياتهم • أما حاكم المدينة وبقية المحاربين فاتجهوا الى القلعة التي سرعان ما حاصرها المغول وراحوا يمطرونها وابلا من سهامهم الملتهبة حتى تقوضت جدرانها واشتعلت بها النيران •

وتدفق سيل من الفرسان خلال طرقات المدينة الواسعة مقتحمين مخازن الغلال والمؤن ودخلوا بخيلهم الى المكتبات وقد تبعثرت صفحات القرآن المقدسة تحت سنابك خيلهم وقد لوى الخان عنان جواده متجها شطر أبرز المباني فى المدينة وكان المسجد الاكبر ، فتساءل اذا كان هذا البناء هو قصر الشاه ، ولما قيل له أنه بيت الله صعد درجات السلم ودخل صحن المسجد ، ثم ترجل عن صهوة جواده وصعد المنبر ، وصاح مخاطبا الائمة الذين تجمعوا فى صحن المسجد وقد أخذتهم الدهشة لجرأة ذلك القائد متوقعين أن تهبط صاعقة من السماء لتسحق ذلك الطاغية الجبار • قال :

« لقد قطع العلف • أعطوا الخيل طعاما »

وفى ساحة المسجد أحضر المغول قرب الخمر وراحوا يعبون منها ويطربون بالقيان والغيد الحسان •

وأخذ الخان يتحدث الى وجهاء المدينة وأعيانها ومضى يسألهم فى شئون دينهم ، وقيل أنه اقتنع بكل ما أتى به محمد عليه الصلاة والسلام فيما عدا الحج الى مكة معترضا بأن « قوة الله » على حد تعبيره ليست فى مكان واحد فقط بل هى ممثلة فى كل ركن من أركان الدنيا• ومضى يفند أقوال مجادليه حتى بات الاهالى يؤمنون بأنه طاغية كافر وأنه يمتلك قوى بربرية فظة لاحد لجبروتها ، ولا غرو فان بخارى لم تضم بين جدرانها غير التقى الورع • وتابع الخان حديثه الاول قائلا « لقد ارتكبتم خطأ فاحشا اذ حاربتمونى وان الرؤساء هم المجرمون ، واذا سألتمونى عن نفسى قلت لكم أنى نقمة الله فى الارض ، فان لم تكونوا مجرمين ، فان الله ما كان يسمح لى بمعاقبتكم » •

راح الخان يتأمل اولئك المسلمين فرآهم كأهل الصين بناة مدن ومؤلفي كتب وأصحاب ثروات ضخمة وعلم واسع يستطيعون به تزويده بأخبار النصف الآخر من العالم ، ليس هذا فحسب ، بل ان بوسع هذه الدولة المترامية الاطراف امداده بسيل لا ينقطع من العمال لقضاء مآربه ، والعبيد لخدمة رجاله ، والصناع الفنيين ليرسلهم الى الجوبى ·

تابع الخان حديثه قائلا « لقد صنعتم خيرا بامداد جيشي بالغذاء . أما الان فعليكم أن تعرضوا على ضباطي كل ثمين خبأتموه ، ولا تشغلوا أنفسكم بما هو ظاهر في بيوتكم فان رجالي معنيين بذلك »

ومن ثم مضى أثرياء بخارى في حراسة الجنود المغول الذين لم يتركوهم ليلا ولا نهارا ، وقد لجأ المغول الى تعذيب بعض منهم حاولوا المراوغة قبل أن يدلونهم الى كنوزهم ·

أما الحامية التي لجأت الى القلعة فقد استماتت في الدفاع ببسالة وكبدت المغول خسائر عديدة مما أثار حفيظتهم واستمر الحصار حتى تم المغول الفتك بالحاكم وكل من معه ·

وبعد أن تأكد المغول من ان كل كنوز المدينة وثروتها قد استخرجت من المخابىء والابار ساقوا الاهالي نحو العراء · وكان يوما محزنا حقا ، لم يكن يسمع فيه غير بكاء الرجال ونحيب النساء وعويل الاطفال الذين قضى عليهم بالفراق الى الابد : أما النساء فقد اغتصبهن أولئك البرابرة تحت عيون رجالهم الذين لم يعودوا يملكون غير الاسى والإسف اللهم الا من بضع رجال هانت عليهم حياتهم واندفعوا يقاتلون المعتدين وقد آثروا الموت على رؤية أعراضهم تسلب وتهتك أمام أعينهم ·

أشعل المغول النار في أحياء عديدة من المدينة · ومضت السنة اللهب في زحفها من حي الى آخر وقودها المساكن المشيدة من الخشب والطين حتى أتت عليها ، وأمست المدينة محجوبة عن الشمس بستار هائل من الدخان المتصاعد · وسيق الاسرى نحو سمرقند ، واذ تعذر عليهم اللحاق بالفرسان الراكبين فقد عانوا الكثير أثناء المسير فأمر جنكيز خان بقتل كل من يتخلف عن السير ·

قال احد أهالي بخارى وفد الى خراسان يصف ما فعله المغول ببلده « جاءوا فخربوا وأحرقوا وقتلوا ونهبوا ثم مضوا » .
ولم يمكث جنكيز خان ببخارى اكثر من ساعتين ثم أسرع للحاق بالشاه فى سمرقند . وبينما هو فى طريقه قابلته بضع كتائب من جيشه آتية من جبهة نهر سيحون زفوا اليه نبأ استيلاء جيوشه على مدن القطاع الشمالى .

« أما سمرقند فمدينة عظيمة بنيت على ربوة على ضفة الواد ، وقد أحيط سورها بخندق عظيم ، تدخل مياه نهرها على جسر محمول على عمد قائمة في الخندق ، تلك المدينة المرتفعة يشرف الناظر اليها على شجر أخضر وقصور تزهر وأنهار تضطرد وعمارة ضخمة لا يقع الطرف بها على مكان الا ملأه ولا بستان الا استحسنه ، وفيها مافى المدن العظام من الاسواق الحسان والحمامات والفنادق والمساكن . وبناؤها من طين وخشب ، والبلد كله طرقه وسككه وأسواقه وأزقته مرصوفة بالحجارة . »

وكانت سمرقند أمنع مدن الشاه الذى أمر ببناء سور جديد ضخم حول بساتينها ، ولكن المغول بلغوا المدينة قبل أن يتم تشييد ذلك السور .

وكانت الدفاعات القديمة فى المدينة قوية منيعة تضم اثنى عشر بوابة حديدية تحف بكل منها الابراج الحصينة . وبقى للدفاع عن المدينه حامية من مائة وعشرة ألف محارب من الترك والفرس علاوة على عشرين فيل مدرع . ولا شك ان تلك الحامية كانت تفوق المغول عدداً . ولكن جنكيز خان كان قد أعد العدة لحصار طويل الامد ، فجمع سكان البلاد المجاورة وأسرى بخارى وسخرهم لمعاونته فى ضرب الحصار .

ولو كان الشاه قد مكث مع رجاله أو لو كان على رأس تلك الحامية قائد شجاع كتيمور ملك لصمدت سمرقند ما بقى الطعام فى مخازنهم ، ولكن أساليب المغول الحربية الصاعقة واستعداداتهم الخارقة وعملياتهم الخاطفة ، كل ذلك قد ألقى الذعر فى نفوس المسلمين الذين ما كادوا يرون جموع الاسرى العديدة عن بعد

تحمل أعلام المغول حتى ظنـــوها جيش المغول ، فقـــدروا جيش عدوهم بأكثـــر من حقيقته ، وهى خدعة مقصودة ضرب بها المغـــول عصفورين بحجر واحد . وقد دأب المغول على نصب شراكهم وخـــداع عدوهم حتى تم لهم اســـتدراج بضع كتائب من الحامية اندفعت فى هجوم مضاد فأبيـــد معظمها وتكبدت خسائر جسيمة ممـــا زعزع ثقة الجنود بأنفســـهم : فمضى الائمة والقضاة فى صـــبيحة اليوم الذى استعد فيه المغـــول لاقتحام السور وسلموا المدينة . وفى الوقت نفسه تســـلل ثلاثون ألف مقاتل من الجنـــود الاتراك وسلموا أنفسهم بمحض اختيارهم وراحوا يرددون أنهم والمغـــول ينحدرون من عنصر تركى واحد ، فأحسن المغول استقبالهم وخلعوا عليهم كسوات عسكرية مغولية ثم ذبحوهم عن آخرهم بعد ليـــلة أو ليـــلتين ، ولا عجب فلم يـــكن المغول ليثقوا البتة فى أتراك خوارزم لا سيما بعد خيانتهم للامانة التى أنيطت بهم .

وعندما تم للمغول تسخير العمال المهرة من سكان المدينة فى الاعمال التى يتطلبها الجيش ، وتم لهـم اختيار أصـــلب الرجـــال عودا للاعمال الاخرى ، أباحوا عودة بقية الاهالى الى دورهـــم ، ولم يمض حول واحد حتى اســـتدعوا من جديد للانضمام الى الجيش .

وما كاد جنكيز خان يبـــلغ سمرقند حتى علم أن الشاه قـــد ترك المدينة واتجه جنوبا . وكان الخان قد عقد العزم على القبض على الشاه قبل أن يتمكن من تعبئة جيوش جديدة لصد الغزاة ، ولكن شاء الحظ أن يفلت الشاه منه وقد أوشكت قبضته على الامساك به ، فأرسل يستدعى شـــيبه نويون وسابوتاى وأصدر اوامره قائـــلا « اتبعا محمد حيثما مضى ، وآتونى به حيا أو ميتا . وأوصيكما بتأمين أهالى المدن التى تفتح لكم أبوابهـــا على حياتهم ، وافتكوا بأهالى المدن التى تقاومكم » .

ولا شك أن مطاردة الشاه علاء الدين خلال عشرات الممـــالك كانت مهمة غريبة شاقة ، وان كانت فى الحقيقة أنسب مهمة تناط بأشجع القواد المغول وأعصمهم عن الخطأ . وقد وضع جنكيز خان تحت امرة القائدين فرقتين من عشرين الف رجل ، ومن ثم اتجه القـــائدان صوب الجنوب بحثا عن الشـــاه ، وكان ذلك خلال شهر ابريل عـــام ١٢٢٠ م ..

كان علاء الدين محمد قد اتجه جنوبا بعد أن غادر سمرقند نحو بلخ على حافة سلسلة مرتفعات أفغانستان الشاهقة ، وكعادته أمضى الوقت فى التردد ، وكان جلال الدين بعيدا فى الشمال منشغلا بتعبئة جيش جديد من محاربى الصحراوات التى تحف ببحر آرال . ولكن جنكيز خان بوصوله الى بخارى قد وقف حائلا بين الشاه ومنطقة جمع الشتات المرتقبة فى الشمال .

وقد تراءى للشاه أن يدخل الاراضى الافغانية حيث يجمع جيشا من قبائل الحدود الافغانية المحاربة بالفطرة ليعود فيقاتل بها من جديد .

وأخيرا وبعد طول تردد استدار نحو الغرب عابرا الصحارى القاحلة صوب المنطقة الجبلية الواقعة الى شمال فارس ، وبوصوله الى نيسابور خيل اليه أنه قد بات مطمئنا بعد أن خلف بينه وبين الغزاة قرابة الخمسمائة ميل .

صادف شيبه وسابوتاى مدينة بلخ المنيعة التى كانت تعرقل عبور المغول لنهر جيحون فأمر فرقتيهما بعبور النهر سباحة بخيلهم .

« ولم يجد المغول سفينة فعملوا أحواضا كبيرة من الخشب وألبسوها جلود البقر حتى لا يدخلها الماء ووضعوا فيها سلاحهم وأمتعتهم ، والقوا الخيل فى الماء وأمسكوا أذنابها ، وتلك الحياض الخشبية مشدودة اليهم ، فكان الفرس يجذب الرجل ، والرجل يجذب الحوض المملوء بالسلاح وغيره ، فعبروا كلهم دفعة واحدة » . ثم علم شيبه وسابوتاى من طلائع الفيلق الامامية أن الشاه قد فر من بلخ أيضا فجدا السير نحو الغرب بعد أن انفصلت الفرقتان عن بعضهما ، وذلك بغرض توفير مبدأ الوقاية الى أقصى حد ، وكذلك لكى يتسنى الحصول على أكبر كمية من علف الخيول .

وكان لكل محارب من محاربى هاتين الفرقتين المختارتين عدة خيول فى أحسن حالة ، وكانت الحشائش النامية على ضفاف الجداول والآبار المبعثرة قد أينعت .. ولابد أن تكون كل فرقة من تلكما الفرقتين قد قطعت ماينوف عن ثمانين ميلا فى اليوم بعد أن يستبدل الفارس بجواده المتعب جوادا آخرا بضعة مرات أثناء النهار . فلم يكن أولئك الفرسان ليترجلوا الا فى غروب الشمس

لتناول وجبة مطهية . وما كاد المغول يبلغون نهاية الصحارى القاحلة حتى ظهرت لهم البساتين المزهرة المحبطة بأسوار مرو البيضاء .

واذا اطمأن القائدان الى أن الشاه قد غادر المدينة أسرعا الى نيسابور فبلغاها بعد ثلاثة أسابيع ليجدا علاء الدين قد لاذ بالفرار مدعيا أنه خرج للصيد بعد أن علم بمهمة القائدين المغولين .

وصل المغول الى نيسابور وأرسلوا الرسل الذين كانت مهمتهم كسب نصف المركة بالدعاية المرعبة ونشر الاخبار المفزعة ، ذلك أن الرسل جاءوا الى نيسابور يحملون أعجب الانباء عن جحافل المغول وعددهم وعددهم ، وأنهم يتوعدون من يقف فى سبيلهم أو يقفل أبواب مدنه بالويل والثبور وأن النجاة والسلم هما ضمان التسليم . بهت القوم وخاصة أنهم يعلمون ما فعله المغول المتوحشون فى المدن التى على طول الطريق من أوترار عبر النهرين العظيمين سيحون وجيحون الى بلادهم . دب الذعر فى قلوب رجال الحامية، وانتشر الفزع بين أهل المدينة ، وعم الاضطراب ، وشغل كل بالبحث عن المأوى والفرار بروحه، ولما وصلت قوات المغول لم تجد كبير عناء فى اخلاء المدينة من أهلها والاستيلاء عليها . واستمر تجوال شيبه نويون وسابوتاى باحثين عن الشاه حتى وصلا الى مدينة الرى .. وفى أثناء مسيرهم عثروا على تركان خاتون أم الشاه فى مازندران التى كان قد أرسل لها الشاه ينصحها بالانتقال من خوارزم الى أصفهان فى العراق العجمى فأسروها وبناتها ومن معها من الاماء وكل ما يملكون من حلى وجواهر وغالى الثياب وأرسلوهن وما معهن الى الخان وظلت أسيرة لديهم حتى عادوا بها الى بلادهم فى صحراء الجوبى ، وهناك تزوج شاطاجاى احدى بناتها . أما أبناء الشاه فقد أمر الخان بقتلهم رغم حداثة سنهم .

كان القوم فى مدينة الرى أهل تقوى وورع ، وحدث أن اختلف أصحاب المذهب الشافعى والحنفى مع أصحاب المذهب المالكى والحنبلى واشتد الخلاف حتى أصبح خصومه ، ولما هدد المغول المدينة أسرع قاضى القضاة الشافعى يتفق معهم ضد خصومه وفتح لهم الابواب لينتقم منهم ، وهكذا دخل المغول فجزت سيوفهم

رقاب المسلمين . ولم يكد يتم لهم ذلك حتى انقلبوا على أعوانهم ، وبذلك سقطت المدينة بعد أن فنى أهلها .

وكان الشاه قد خلف صناديق جواهره فى أحد الحصون حيث عثر عليها المغول فيما بعد ، ثم دفع بأسرته وكنوزه لتسبقه فى رحلته الى بغداد . قصد الشاه بغداد حيث الخليفة الذى طالما خاصمه واعتدى عليه ، وأخذ يجمع الرجال من هنا وهناك حتى ضم حوله بضع مئات ، ثم مضى فى رحلته فوق الطريق الرئيسى المؤدى الى بغداد . ولكنه ما كاد يبلغ همذان حتى ظهر المغول فى أعقابه فتفرق رجاله وفر أغلبهم . وقد تساقط حوله بضع سهام دون ان يفطن المغول الى شخصيته ، فلاذ مسرعا بالفرار نحو بحر قزوين . وقد ثار عليه فى الطريق بعض محاربيه الاتراك الذين أزمعوا التخلص منه ، فرأى علاء الدين أن يقضى ليلة فى خيمة متواضعة الى جوار خيمته الاصلية ، وما كاد يصبح حتى رأى الخيمة المهجورة وقد رشقتها السهام فى كل مكان .

صاح الشاه يائسا يخاطب احد ضباطه . « أما من مكان فوق هذه الارض اكون فيه آمنا من تلك العاصمة المغولية ؟ » فنصحه أن يستقل احدى سفن بحر قزوين قاصدا احدى الجزر حيث يختفى عن الاعين ريثما يستطيع أبناؤه وآتابكته تعبئة جيش قوى يرد به الغزاة . وعمل علاء الدين بالنصيحة فتنكر مصطحبا بضع أتباع واجتاز المفاوز قاصدا بلدة صغيرة على الشاطىء الغربى لبحر قزوين ، بلدة هادئة جل سكانها من صائدى السمك والتجار . ولكن الشاه المريض المنهك : بعد أن حرم صحبة حاشيته وعبيده وزملاء الكأس ، لم يكن ليرضى التخلى هكذا كلية عن مظاهر سلطانه فأصر على تأدية الصلاة بالجامع حيث لم تعد شخصيته مجهولة ، فوشى به أحد المسلمين ممن سبق أن اضطهدهم الشاه لدى المغول الذين شتتوا جيشا آخرا من الفرس قرب مدينة قزوين باحثين عن علاء الدين بين الجبال ، واندفعوا نحو القرية التى آوت الشاه بينما كان يعد العدة ليستقل أحد زوارق الصيد

انهمرت السهام فوق رأس الشاه ، ولكن القارب أفلح فى الابتعاد عن الشاطىء ، فتبعه بعض فرسان المغول فوق صهوات

خليهم ، واستمرت المطـاردة حتى حل التعب بالفرسان وكلت الخيل وطوت الامواج جثث المغول .

وعلى الرغم من ان المغـــول لم يضعوا أيديهم على الشـــاه الا انهم فى الواقع قد قضوا عليه القضـــاء الاخير ، فقد أنهكه المرض والتعب وأذله الهوان فقضى سيف الاسلام نحبه وحيدا باحدى الجــزر التى لا تبعد كثيرا على ساحل مازندران، حتى بلغ من فقره أن عجز أتباعه عن الحصول على كفن له ، فخلع أحد المقربين اليه قميصه وكفنـــه به ، وكان قد أوصى لولده جــلال الدين بولاية الملك ، وقال فى رسالة لأولاده « ان عرى الســلطنة قد انفصـــمت والــدولة قــد وهنت قواعدها وتهدمت وهذا العدو قد تأكدت أسبابه وتشبثت بالملك أظفاره وتعلقت أنيابه ، وليس يأخذ بثأرى منـــــه الا ولدى منكبرتى (جلال الدين) وها أنا موليـــــه العهد من بعدى فعليكما بطاعته »



لم يعلم شيبه أو سـابوتاى الذين تلقيا الامر بالقبض على الشاه حيا أو ميتا ، أن الشاه مدفون فى تلك الجزيرة النائية الجـرداء ، فبعثا الى الخان بكنوز الشـاه التى صمم سابوتاى على جمعها بنفسه ، وكذلك أرسلا اليه أسرة علاء الدين ورسالة مضـمونها أن الشاه قد أبحر شرقا فى احـدى السـفن .

واذ خطر لجنكيز خان أن محمد قد يحاول ملاقاة ابنه جلال الدين فى أورجنش ، دفع بفـرقة كاملة فى هذا الاتجاه .

واذ أمضى سابوتاى الشتاء فى مراعى قزوين المكسوة بالجليد خطر له أن يزحف شمالا ملتفا حول البحر ليلتقى بالخان ، فأوفد رسولا الى سمرقند يطلب اذن الخان على تلك الرحلة فوافق الخان وأرسل اليه بضعة آلاف من محاربى التركمان يعزز بها قوة الارخون . وكان سابوتاى فى الوقت ذاته قد انهمك فى تجنيد قبائل الاكراد المتوحشين . وبعد أن عرج المغول قليلا الى الجنوب لمحاصرة المدن التى لم يحفلوا بالاستيلاء عليها من قبل ابان مطاردتهم للشاه : استداروا شمالا صوب القوقاز ، فأغاروا على اقليم جورجيا بعد معارك طاحنة بينهم وبين محاربى تلك الاقاليم الجبلية ، فاختبأ شيبه بقوته فى أحد جانبى الوادى الطويل المؤدى الى تفليس ، بينما لجأ سابوتاى الى حيلة المغول التقليدية متظاهرا بالفرار ، وماكاد خصومهم يتحولون الى المطاردة حتى انقض شيبه بفرقته على أجنابهم فمزقها شر ممزق .

استطرد المغول زحفهم خلال مفاوز القوقاز عابرين بوابة الاسكندرية الحديدية ـ وهى مدينة من بناء الاسكندر كان عليها باب من حديد ـ وما كادت طلائع المغول تبدو على المنحدرات الشمالية حتى ظهر لهم جيش ضخم من سكان الجبال خليط من الشراكسة والقفجاق .

فقدرت القيادة المغولية الموقف فوجدت نفسها دون عدوها عددا ، ولم يكن بوسع المغول التقهقر ، ولكن سابوتاى نجح فى استدراج القفجاق وفصلهم عن أترابهم ، ومن ثم اندفع فرسان المغول نحو كتائب الشراكسة الشجعان ، وعاد المغول يتابعون القفجاق نحو البرارى المالحة فيما وراء القزوين ، فشتتوهم ودفعوهم شمالا صوب بلاد الامراء الروس .

وهنا ظهر للمغول خصم جديد اشتهر بالبسالة الفائقة ، واذ سمع الروس بهذا العدو المغير تجمع محاربوهم من كييف وغيرها من الدوقيات البعيدة حتى بلغ عددهم اثنين وثمانين ألف مقاتل ، ثم عبروا نهر الدنيبر تحرسهم عصابات قوية من القفجاق ، وكانوا فى الحق فرسانا صلابا يكتسون الدروع ، بينهم وبين بدو برارى وسط آسيا عداء مستحكم منذ زمن بعيد .

انسحب المغول من عند نهـــر الدنيبر واســـتمروا فى مسيرهم تسعة ايام حتى بلغـــوا المحـــل المناسب الذى اختاروه من قبـــل لتوجيه ضربتهم • أما محـــاربو الشمال فقد تفرقوا فى معسكرات متعددة : قوة خارقة ولكنها فاترة الهمة منقسمة على نفســها ، لان المصالح الخاصة كانت الهدف الذى يبغيه كل فريق ، بينما التعـاون هو الوقود الذى يغذى التحالف بين الشـــــعوب • وما كان لدى الشماليين قائد كسابوتاى ، فظل القتال سجالا بين الروس والمغول يومين متتاليين فوق البــرارى ، وقد لقى أمير الامـــــراء الروس مصرعه بسلاح الكفار ، وقليل هم النبلاء والمحاربون الذين كتبت لهم الحياة ليعبروا الدنيبر من جديد •

وبانتهاء هـــذه العمليـــة تابع سابوتاى وشيبه تجوالهما فانقضا على شبه جزيرة القرم • أما ما كانا يزمعان غزوه بعد ، فأمر لا يعلمه أحد ، فقد كانا يتوقان الى عبـور الدنيبر بغية غزو أوربا عنـــدما أمرهما جنـــكيز خان الذى كان يتتبع أخبارهما بواسطة الســـعاة بالعودة الى محل لقاء يبعــــــد ألفى ميل الى الشرق •

وقد قضى شيبه نويون نحبه فى الطريق ، ولم تمنع تلك المصـيبة المغول من الانحراف قليلا للقضاء على البلغار الذين كانوا يعيشـون وقتذاك على ضفاف الفولجا •

والحق يقـــال أن ذلك الزحف الكلاسيكى البديع كان زحفا جبارا سيظل دائما أبدا أعظم وأروع عمل قامت به الفرسان فى تاريخ البشرية كله ، مثل هذا العمل لا يمكن أن يقوم به غير رجال بلغوا أقصى حدود التحمل والجلد ، ووصلوا الى قمة الثقة فى قوتهم وبأسهم •

ان تلك الركبة التى قامت بهـا الفرقتان المغوليتـــان قاطعتين ما ينوف عن تســـعين درجـة من خطوط الطـــول قد أتت بثمرة جديدة • فالى جانب المحاربين كان حكماء الصين واليوغور والمسيحيون النسطوريون وبعض التجـــــار المسلمين يمضون معهم ويبيعـون المخطوطات المسيحية الكنسية الى رجال الجيش •

ولم يكن سابوتاى يقود جيشه معصب العينين ، فقد ســـجل مرافقوه من أهل الخطا واليوغور مواقع الانهـــار التى عبروها

والبحيرات الزاخرة بالاسماك ، والملاحات المترامية الاطراف فى جنوب الروسيا المعروفة بمنطقة الارض السوداء (اكرانيا) . وظل يذكر تلك المراعى حتى عاد اليها بعد بضع سنوات من الجانب الآخر من العالم ليكتسح موسكو ويعبر الدنيبر ليغزو شرق أوربا حيث بدأت العلاقات بين المغول وتجار جنوة والبندقية ، وبعد جيل واحد شرع آل بولو من أهل البندقية فى التعامل مع الخاقان .

وبينما كان شيبه وسابوتاى ينشران الخراب غربى بحر قزوين مضى اثنان من أبناء الخان نحو بحر آرال لجمع المعلومات عن الشاه وقطع خط الرجعة عليه ، واذ بلغهما أن الشاه يرقد فى قبره سارا بمحاذاة نهر جيحون حتى بلغا مدينة خوارزم عاصمة الاقليم التى تقع على مصب نهر جيحون فى بقعة قاحلة من الارض ، وبقدر ما كان لدى الجيش المغولى من الروح العالية والعزيمة الصادقة بقدر ما كان لدى حامية خوارزم المرتزقة من نفور وعدم احتمال للحرب . فلما وصل المغول الى المدينة طالبوا أهلها بالتسليم ولكن الاخيرين فضلوا الجهاد ، واذ أدرك المغول أن المدينة عازمة على القتال أقاموا مجانيقهم وشيدوا المتاريس .

ومكثوا مدة طويلة يحاصرون المدينة فقد كانوا يفتقرون الى الاحجار الضخمة التى يقذفونها بمجانيقهم ، ومن ثم لجأوا الى اقتلاع أشجار التوت ، ثم قطعوا سيقانها كتلا مستديرة غمسوها فى الماء حتى اكتسبت الصلابة المناسبة لغرضهم .

وبعد أن استكمل المغول دفاعاتهم واستحكاماتهم شنوا هجوما مفاجئا باء بالفشل الذى جاء نتيجة الخلاف بين جوشى وشاطاجاى . فطال حصار المدينة حتى بلغ ستة شهور ، بلغ جنكيز خان أثناءها نبأ الخلاف الناشب بين ولديه فغضب وأرسل قوات جديدة لتعزيز القوة القائمة بحصار المدينة ، ثم أمر بعقد لواء القيادة لابنه الاصغر أوجتاى الذى أعاد تنظيم الصفوف واستأنف الهجوم .

وفى أثناء القتال المتلاحم يدا بيد الذى استمر أسبوعا فوق أسوار خوارزم استخدم المغول النفط المشتعل وهو سلاح جديد اقتبسوه عن المسلمين الذين كانوا يستخدمونه بنجاح خلال الحروب الصليبية .

سقطت خوارزم ومضى المغـول عائدين بأسراهم وغنائمهم نحـــو مركز رئاسة الخان بينما كان جلال الدين السلطان الجديد يجمـــع جيشا جديدا ليعــاود قتالهم من جــديد ٠

أمر الخان بسحب جنوده من الاراضي المنخفضة خــلال فصل الصيف ذى الحــــرارة الملتهبة الحارقة التي لم يعتد عليها سكان الجوبى الذين ولدوا وعاشوا فوق المرتفعات والهضاب ٠ ومضى بهـم صوب المناطق الاشد برودة فيمــا وراء نهر جيحـــون ، حيث بدأ معهم موسم الصيد العظيم ليدرب جنوده ويهيىء للخيـــل مرعى خصيبا ٠

وكان موسم الصيد المغـولى لا يفترق عن أى معركة حربيـــة الا فى نوع العدو ، فهو حيوان الغاب بدل البشر ، وكانت كل وحـدات الجيش تشترك فى هذه العملية ، وقد استن جنكيز خان بنفســـه القواعد التي تسير عليها عمليـــة الصيد بحيث أصبحت دستورا لا يحيد عنه أحد ٠

ولما كان جوشى أمير الصـــيد متغيبا فى احدى المهام النائية مضى نائبة « يمسح » بضع مئــات من الاميال وسط الجبال واضـــعا علامات الارشاد المختلفة ، ثم عاد فغرس أعمدة تدلت منها الاشرطة فى نقط الابتداء الخاصـــة بــكل كتيبة ، وبالمثل اختار نقطة الانتهاء وسجل مكانها فيما وراء الافق ٠

اصطفت السريات فى أكمل نظام ثم مضت تتجه احداها لليمـــين وتنحرف الاخرى لليسار فى أروع تنسيق ، للوصول الى أماكنها التى عينها أمراء الصـــيد ينتظرون وصول الخان ، الذى يأتى محــاطا بنافخى النفير ودقاقى الطبــول ، ليصدر شارة بدء الصيد ، بينمــا تم اصطفاف الجيش على شـــكل نصف دائرة فوق مساحة قدرها ثمانين ميلا ٠

واذ ظهر الخان بصحبة الامراء وكبار الضباط وأحفــاده اليافعين اعتلى الفرسان صهوات جيــادهم مكونين خطا متصلا بعمق صـــفين فى بعض الاحيان ٠ وقد حمـــل الجميع كل الاسلحة والمعدات التى

يستخدمونها ضد أعدائهم الآدميين بالاضافة الى دروع مجدولة من الاغصان ٠

ولما هم الخان بالاشارة انطلقت الخيل للامام ومضى الضباط خلف جنودهم وشرع الجميع فى مرحلة استفزاز الحيوانات ٠

وكانت الاوامر صريحة تمنع الجنود من استخدام اسلحتهم ضد الحيوايات ، كما كان السماح لمخلوق يدب على أربع بالمرور أو التسلل خلال صف الفرسان هو الهوان بعينه ٠

اندفع الفرسان خلال الادغال وعبر الاخاديد ، متسلقين الربى، صائحين صارخين اذا ما وقع نظرهم على أحد النمور أو الذئاب يطل برأسه من وراء احدى الاجمات ٠٠ ولم يمض شهر واحد حتى تجمعت أعداد هائلة من الحيوان أمام نصف الدائرة الامامية ، فاذا حل الليل أمست الامور أشد عسرا وتعقيدا ، فينبث الحراس الى أماكنهم التى عينت بالنهار ويأوى الفرسان الى معسكراتهم ، فيوقدون النيران كما لو كانوا فى ميدان القتال بالفعل ، حتى انهم ليستخدمون كلمة السر ايضا ، ثم يتفرق الضباط فى نوبات المرور ، فانه ليس من اليسير الاحتفاظ بخط الحراس آمنا ، لا سيما ودواب الجبل ساهرة متيقظة أمامهم تبرق عيونها من بين الادغال بينما عواء الذئاب وزئير الفهود يفسد سكون الليل ٠

ويشتد العسر ويزيد التعقيد بعد مرور شهر آخر عندما تضيق الحلقة رويدا رويدا وتبدأ الحيوانات تشعر بمن يضيق عليها الخناق وتحس بوطأة من يتعقبها بصرامة وكد متواصلين ، فاذا حاول ثعلب الاختباء فى تجاويف الارض راح الفرسان يخرجونه بمعاولهم من مخبئه ويسوقونه الى الامام ، واذا تعثر دب فى حفرة بين الصخور مضى فارس فى اثره ليدفعه للامام دون أن يمسه بأذى ٠

ان هذا الموسم لفرصة عظمى لصغار المحاربين والفرسان الشبان ليظهروا مختلف ضروب الشجاعة والمهارة ، وخاصة اذا ما استدار أحد الخنازير الوحشية أو قطيع منها مهاجما صف الفرسان ٠

ويحدث أن يصادف جزء من الصف الممتد المترامى الاطراف

منحنى متسعا لاحد الانهـــار فى طريقه يوقف تقدمه • هنا يبـادر القادة بارسال السعاة بأقصى سرعة للمرور على نصف الحلقة كلهـــا يحملون الامـــــر بالوقوف حتى يتسنى لذلك الجزء المتعطل عبـور النهر بينما تكون الحيوانات المسوقة قد تم لمعظمها اجتيـــــازه • أما الفرســـــان فينزلقون من فوق سروجهم متعلقين بمعرفات خيولهم أو ذيولها بينما ينفخ البعض حقيبته الجلدية ويستغلونها كوســـــيلة للطفو وما يكاد الجميـــــع يبلغ الضفة البعيدة حتى يعتلوا ظهـور جيادهم ويعاودون المطـــاردة من جـديد •

وهنا وهناك ينتقـــــل الخان العجوز مراقبا ســـلوك رجاله ، وأسلوب ضباطه فى القيــادة ، ولم يكن ينبس بكلمة واحدة خـــلال القنص ، ولكنــــه كان يحتفظ فى ذاكرته بكافة التفصيلات والاخطاء

واذ تقترب نصف الحلقـة من نقطة الانتهـــاء يشرع طرفاها فى الاتصال ، ومن ثم تبـدأ الوحوش تستشعر الضغط عليها ، فتروح الغزلان تقفر بينما ترتجف أجنابها وتمضي النمور حائرة تزأر خافضة رؤوسها ، ورويدا رويدا تضـيق الحلقة حول الحيوانات ويرتفــع صياح الفرسان وقد اصـطفوا فى صفين وأحيـــانا ثلاث ، ثم يأتى الخان مخترقا صفوفهم حتى يصل بالقرب من القنص فيعطى اشــارة الافتتاح •

وقد جرت العـــــادة أن يكون الخان هو أول من يصـــــل الى الكواسر حاملا سيفا مسلولا بيـد وبالاخرى قوس متين ، اذ يصبح استخدام الاســـلحة مشروعا من هذه اللحظة ، ثم ينتخب الخـان أشد الوحوش المفترســـة أمامه وحشية ويصوب سهامه نحوها أو يلوى عنان جواده فى اتجاه أحـد الذئاب فاذا ما أردى بضع فرائس انسحب من الحلقة صـاعدا ربوة عالية يشرف على سير عمليـــــة الصيد والقنص جالســـــا تحت سرادق خاص لمراقبة مغـــامرات الامراء والضباط الذين ما يـكاد أحدهم ينتهى من مخـاطرته حتى يلحق بالخان فى السرادق •

هـكذا كان مسرح المبـــاريات المغوليه • شأنه شأن حلبــــــات المصارعة الرومانية لا يضـمن من يدخله الخروج منه حيا •

فاذا أعطيت الاشـــارة ببدء المجزرة العامة اندفع الفرســـــان فاتكين بكل ما يقـع فى طريقهم ، وقد تستغرق المذبحة يوما بأكمله ، الى أن يتقدم أحفاد الخان وأمراؤه الشبان حسبما جرت به العادة ،

يلتمسون من الخان ان يهب الحياة لمن بقى على قيد الحيـــــاة من الحيوان • واذ يستجيب الخـان الى ملتمسهم يشرع الجنـــود فى جمع الجثث •

كانت مواسم الصــــيد لدى المغول بمثابة مناورات الجيـوش الحديثة فهى تدريب عام لهم على تطويق عدوهم ، تلك العملية التى كانوا يلجأون اليها دائما فى حروبهم ضد البشر حيث يصلون أطراف الحلقة حول عدوهم •

واذ كان صيد هذا العام فى أرض العدو لم يستغرق أكثر من اربعة شهور ، فقد رأى الخان الاستعداد لمركة الخريف ومـــلاقاة جوشى وشـاطاجاى بعـد عـودتهما من تجريده بحر أرال يحملان اليه نبأ موت الشـــاه •

وحتى الآن مضى سيف المغول فى دولة الاسلام كما تمضى السكين فى الزبد ، فعبروا الانهار واستولوا على المدن بالسرعة التى يتنقل بهـا سائح حديث مـــزود بالخــدم والقوافل من مكان الى آخر ، وقضى الشاه الذى بدأ حكمه بطمـــوح وآمال كبار بعيدا عن شعبه بعـد أن تخلى عنه فلحقه العار وقبـر معدما ، مثله كمثـــل امبراطور الصين ، فقد وزع جيوشــه على المدن ليتفادى ملاقاة فرسان المغول الذين دأبوا على الاختفاء حتى تحين ساعة القتـــال فيشرعون فى تحـــركاتهم ومناوراتهم طبقـــا للاشارات الصادرة بالاعلام •

ما كاد جنكيز خان يطوى خط الدفاع الاول شمال نهر سيحون حتى حشد قواته كما أسلفنا تجاهاهم مدن الامبراطورية الاسلامية ، أعنى بخارى وسمرقند ، وتم لـه القضاء على الخط الثـانى للدفاع دون كبير مشقة ، ثم راح يحشد قواته من جديد ضد خط الدفاع الثالث وأعنى به المرتفعات الخصيبة فى شمال فارس وأفغانسـتان •
وكان المسلمون قد باتوا مؤمنـين بأن أولئك المغول هم نقمـــة الله صبها عليهم للتـكفير عن ذنوبهم ، وقد استغل جنـكيز خان بدوره هذه العقيدة وساعد على بثها •

ولقد حرص الخان على تأمـين أجنابه الى الشرق والغرب • فمضى بنفسه على رأس قوة خــــلال الأراضى الممهـــدة حــول مصب نهر جيحون ودفع ببضـع فرق لاحتلال المدن الغـربية التى مر بها شيبه وســـابوتاى دون الاستيلاء عليها لانشغالهما بمطاردة الشاه • وبعــد أن تم له كل ذلك استولى على بلخ ثم أمضى موسم

الصيف فى الصيد والقنص ·
واحتل الخان كل طرق التجارة الكامنة فى قلب الدولة الاسلامية ، ومكث يجمع المعلومات التى دلته على ان ثمة قوات جديدة عليه الاشتباك بها ، وأن قوة جبـــارة تتجمع لملاقاته فيما وراء الافق · وكما فعل شعب الصـــين مضى المسلمون يعبئون قواهم لمحاربته ، فبعد أن فقدوا الشاه ، وبعــد أن استشهد اثنان من أبنائه فى المعركة ضد المغول ، بدأ المسلمون ينضوون تحت لواء قادتهم من أمراء الفرس ·· وكان جنكيز خان ملما بالموقف كل الالمـــام ، وكان يدرك بثاقب فكره أن المقيـاس الحقيقى لكفاءة وقدرة جيشه هو المعركة القادمة التى يستعد لها حوالى المليون من الفرسان المسلحين أكمل تسليح · والواقع أن تلك الجمهرة الـكبيرة من جيوش المسلمين كانت تفتقـر الى من يقودها ، وكانت موزعة فى عشرات الممالك التى تحيط بجنكيز ·
وكان جيش المغول فى مستهل العام الثانى من الغزو لا يتجـاوز اثنى عشر فرقة أى مالا يزيـــد عن مائة ألف · وكانت بعض القبائل من اليوغور وغيرهم قد التمســوا من جنكيز خان العودة الى تيـان شان فى أجازة فصرح لهم الخـــان بذلك · وكان أفضل قواده شيبه وسابوتاى فى الغـــرب على رأس فرقتين ، اما تيليك نويون أكثـــر من يعتمد عليهم الخان من قواده الباقين فقد لقى حتفه أثناء الهجوم على نيســـــابور · وكان موهولى بطبيعة الحال منشغلا بحكم الصين فاستشعر الخان قلة الارخـونات الى جواره وأحس الحـــاجة الى نصح سابوتاى ، فأوفد يستدعى قائده الحبيب من قرب بحـــر قزوين ، ووصل سابوتاى الى بلخ استجابة لدعوة الخـــان ، ومكث بصحبته بضـــعة أيام ثم عاد مرة أخرى الى مركز قيادته على مبعدة الف ميل · وبمرور الوقت تطورت أفكار الخان ولم يعد يفكر فى أمـر الصيد بل نراه يلوم أكبر أبنـــاءه جوشى بسبب ذلك الخلاف الـذى نشب بينه وبين أخيه مما أخـــر الاســـتيلاء عـلى خوارزم أو ربما بسبب افلات جلال الدين منـــه ، ·· من يدرى ؟
وبناء على ذلك أبعـد جوشى العنيد الصلب الرأى عن الجيش ، وأرسله بحرسه الخاص شـمالا نحو برارى ما وراء آرال ، ثم أصدر أوامره بالزحف ليس بقصـــــد المناورة والسلب هـــذه المرة بل القضاء على القوى البشرية اينمـا صادفتهم ··!!!



واذ تم لجنكيز خان الاستيلاء على اقليمى ما وراء النهر وخوارزم أصبح يحيط باقليم خراسان غرضه التالى ، مما سهل عليه مهمته كثيرا ، فأوفد جنكيز خان ابنه تولى على رأس جيش كبير لغزوخراسان، وأرسل هذا بدوره مقدمة من عشرة آلاف فارس بقيادة توجاشر زوج ابنة جنكيز خان. واذ قصد هذا القائد مدينة نسا راح المسلمون يصوبون سهامهم على فرسانه فأردوا منهم

عددا كبيرا . ولبث الحصار أسبوعين بعد أن نصبوا حول المدينة عشرين منجنيقا تمكن المغول بعدها أن يحدثوا ثغرة فى سورها ، ومن ثم احتلوها ليلا ، ولما ظهرت تباشير الصباح «ساق المغول الاهالى الى فضاء وراء البساتين كأنهم قطعان الماشية تسوقها الرعاة ، ولم يمد التتار أيديهم الى سلب ونهب حتى تم حشد ذلك الفضاء الواسع بالصغار والنساء والضجيج يشق عنان السماء ، ثم أمروا المسلمين! أن يكتفوا بعضهم بعضا ففعلوا ذلك خذلانا . ولو كانوا قد تفرقوا وطلبوا الخلاص عدوا لنجا أكثرهم بالنسبة لقرب الجبل،ومن ثم راح المغول يعملون فى رقاب النساء والرجال والاطفال ، وكان عدة من قتل من أهلها سبعين الفا » .

وقد أوى محمد النسوى مؤرخ حياة جلال الدين مع بعض الاسرى الى قلعة حصينة من قلاع خراسان كانت ملكا لإبائه ، ولندع النسوى يروى قصته « وبعد سقوط نسا لجأت الى قلعة مشيدة فوق قمة أحد الجبال الصخرية المرتفعة وكانت اقوى وأمنع قلاع خراسان واذ كانت تتوسط الاقليم ، لذا صارت بمثابة مأوى يلجأ اليه الاسرى والاهالى الفارين من أسر التتر أو تعذيبهم . ولم يمض غير وقت وجيز حتى ظهر التتر أمام القلعة ، وعندما أدركوا استحالة الاستيلاء عليها طلبوا عشرة آلاف ثوب قطنى وأصناف أخرى فى نظير انسحابهم رغم أنهم كانوا ما زالوا محملين بأسلاب بلدة نسا ، وقد وافقت على مطلبهم ولكن عندما حان موعد تسليم الفدية الى المغول لم أجد من يقبل القيام بهذه المهمة ، فقد كان الجميع يعلمون أن خان المغول لا يحيد عن ذبح كل من يقع بيده. وفى النهاية تقدم شيخان تطوعا للمهمة بعد أن أحضرا أطفالهما مستودعين اياهم أمانة لدى لأعنى بهم اذا ما قدر لهما أن يفقدا حياتيهما ، ولم يخب ظن الشيخين فقد حز المغول رقبتيهما . »

وسرعان ما انتشر أولئك البرابرة خلال خراسان ، لا يكادون يصلون الى ناحية حتى يسوقوا مزارعيها نحو المدينة التالية التى يرومون الاستيلاء عليها ، وذلك لاستغلالهم فى ادارة آلات الحصار

فانتشر الذعر واليأس حتى أصبح من يقع فى الاسر اسعد حالا ممن ينتظر مصيره فى داره لا يدرى ما تخبئه له الاقدار • وكان المغول يرغمون الزعماء والنبلاء على العمل جنبا الى جنب مع مواليهم فى تشغيل آلات الحرب ، فاذا تردد أحدهم فى اطاعة الامر فصلت رأسه فى الحال •

وقد وقع الاختيار على تولى أصغر أبناء الخان وأمير الحرب لغزو أقاليم فارس الخصبة • وكان أبوه قد أمره بتعقب جلال الدين ولكن الامير الخوارزمى راوغه وأفلت منه ، ومضى الجيش المغولى نحو مرو جوهرة الصحراء ومدينة المتعة لامراء الاسلام والتى أقيمت على ضفة نهر مرغ آب ، وضمت بين جدران مكاتبها الوف المخطوطات الثمينة ؛ وقد اكتشف المغول طابورا جوالا من التركمان فى تلك المنطقة فشتتوه وغنموا منهم عددا كبيرا من قطعان الماشية كانوا قدسلبوها بدورهم من مرو • ومضى تولى بصحبة ضباطه حول أسوار المدينة يسبر غور دفاعاتها ، ومن ثم أمر قواته بالاقتراب من السور استعدادا للهجوم •

واذ فقد تولى قرابة الالف من رجال الحرس الامبراطورى ، غضب ودفع الموجة اثر الموجة لاقتحام السور ، من بعد أن أقام جسرا طينيا تجاه السور ساترا هجوم قواته بغلالة ضخمة من السهام • واستمرت المعركة طوال اثنين وعشرين يوما • وعندما هدأ القتال قليلا تسلل أحد أئمة المسلمين الى المغول الذين أحسنوا استقباله وأعادوه مكرما نحو خطوطه • ويبدو أن الامام لم يكن موفدا من قبل أهالى المدينة بل بايعاز من الحاكم الذى مضى بدوره نحو مخيم المغول بعد أن اطمأن على حياته ، حاملا الهدايا الثمينة من الاوعية الفضية والاثواب الموشاة بالجواهر • فخلع عليه تولى أمير الدهاء ثوبا من أثواب الشرف المغولية ثم دعاه الى تناول الطعام حيث أقنعه بأن حياته باتت فى مأمن من بطشه ، واقترح عليه أن يبعث فى طلب أصدقائه وصحبته المختارة لكى يضفى عليهم من كرمه ، ويوكل اليهم بعض المهام الخاصة بشئون جيشه فلم يلبث الحاكم أن أرسل خادمه لاستدعاء أصحابه الذين جلسوا على جانبى تولى أثناء الوليمة • وطلب ابن الخان تزويده بقائمة

تضم أسماء أغنى ستمائه رجل في مرو . وسرعان ما أجاب الحاكم وصحابه طلب القائد وحرروا بيانا بأسماء أثرياء المدينة ، وتجارها الموسرين . واستفاق الحاكم مذعورا ليشهد بعيني رأسه مصرع صحابه يذبحهم المغول ، ومضى أحد ضباط المغول بقائمة الاثرياء نحو بوابة مرو ، وطلب أصحاب تلك الاسماء ، وكان من الطبيعي أن يخرج اليه أولئك الاثرياء الذين وضعهم المغول في الحال تحت الحراسة ثم سيطروا على البوابة . وانطلق فرسانهم خلال طرقات مرو يأمرون الاهالي بالخروج الى العراء عن بكرة أبيهم مصطحبين أسراتهم حاملين كل ما يستطيعون حمله ، واستغرق الجلاء عن المدينة أربعة أيام كاملة .

ووسط جموع الاسرى العديدة جلس تولى يرقبهم من فوق منصة مطلية ، بينما أخذ ضباطه يفرزون قادة الفرس وضباطهم ثم أتوا بهم أمامه ليقطعوا رؤوسهم أمام بعضهم البعض . وأمر تولى بتقسيم الاهالي الى أقسام ثلاث : الرجال والنساء والاطفال ، فصلوا كل فئة عن الاخرى وأرغموا الذكور على الرقاد مشتبكة أذرعتهم وراء ظهورهم ، ثم وزعوا هذه الجموع البائسة السيئة الطالع بين محاربي المغول الذين انطلقوا كل يذبح نصيبه ويقضى على حصته ، فيما عدا أربعمائة صانع أبقوا عليهم لحاجة الجيش اليهم ، وكذا بعض الاطفال لاتخاذهم عبيدا ، أما الستمائة تاجر فقد أخذوا يعذبونهم حتى دلوا المغول على كنوزهم المخبأة . وسطا المغول على المساكن الخالية من قاطنيها وأخلوها مما بها ، وبعد أن هدموا أسوار المدينة مضوا خلف قائدهم .

والثابت أن الاحياء الذين لم يلقوا حتفهم على يد المغول لم يتجاوز عددهم خمسة الاف كانوا قد لاذوا بالاقبية والممرات الارضية يختفون بها الا أنهم لم يستمتعوا طويلا بحياتهم . اذ تعمد بعض فرسان المغول العودة الى المدينة حيث فتكوا بهم ولم يغادروا المكان حتى تأكد لديهم أن العنصر البشرى قد اختفى كلية من المدينة .

وبمثل هذه الطريقة لاقت أخوات هذه المدينة الواحدة بعد الاخرى نفس المصير ، وقد تراءى لبعض سكان احدى تلك المدن انقاذ حياتهم بالرقاد بين جثث القتلى ، واذ سمع المغول بهذه

الحيله صدرت الاوامر بضرورة فصل رؤوس الاهالى عن أجسادها فى المستقبل : وحدث بعد ذلك أن لجأ بضع عشرة من الفرس الى وسط خرائب المدينة للاختباء بين أنقاضها ، فأرسل المغول اليهم فصيلة من الفرسان ذبحوهم جميعا بلا رحمة .

والواقع أن عملياتهم هذه كانت قريبة كل القرب وشبيهة كل الشبه بمواسم الصيد المغولية ، فاستخدموا كل حيلة ماكرة وكل طريقة خادعة وكل وسيلة خبيثة لاستئصال الآدميين . ومن حيلهم الماكرة أن أرغموا مؤذنا من أسراهم على النداء للصلاة من فوق مئذنة أحد المساجد ، فسرعان ما انطلق المسلمون من مخابئهم اعتقادا منهم بأن الغزاة الطغاة قد ولوا ، ولكنهم كانوا لهم بالمرصاد فأبادوهم عن آخرهم .

وقد اعتاد المغول قبل مغادرتهم لاى مدينة أن يحرقوا ما تبقى بها من غلال أو محصولات حتى يطمئنوا الى أن من غابت عن رقبته سيوفهم مات جوعا . ففى خوارزم حيث امتد حصار المدينة ستة شهور ، تكبد المغول خلالها خسائر جسيمة ، فتح المغول السد الذى يحجز مياه نهر جيحون عن المدينة فسرت المياه لتغرق البلدة وتهدمت ابنيتها وبقى موضعها ماءا ، ولم يسلم من أهلها أحد ، وهكذا تحول مجرى النهر عن طريقه الطبيعى الامر الذى حير الجغرافيين مدة طويلة .

والواقع أن سرد تفصيل هذه المجازر لما يثير الاشمئزاز فقد استغل المغول فن الحرب الى أقصى المدى ، وأصبحت حروبهم مذابح بشرية لا تحركها الكراهية بقدر ما تحركها الرغبة فى القضاء على العدو .

أما من تبقى على قيد الحياة بعد تلك المجازر ، فقد عاش محطم الروح حتى لم يكن ليعنى بغير البحث عن طعام يقتات به ومخبأ يأوى اليه ، فقد بلغ بهم الذعر حدا جعلهم يخشون مغادرة مخابئهم حتى تصل الذئاب لتنهش جثث القتلى ، فاما أن تقضى عليهم بالمثل واما أن تدفعهم بعيدا ، بينما مضى المغول الذين كانوا يقدرون التربة الطيبة التى تنتج الغلال وتغذى الخيل أكثر من تقديرهم للحياة البشرية ، مضوا فى عملية الابادة المطلقة . نعم ، لقد نجح جنكيزخان فى قمع الحركة الثورية النامية ، اذ قضى على الفتنة وروح المقاومة

قبل أن يستفحل أمرها ، فكتب له الفوز ، ولا غرو فلم تكن الرحمة ديدنه ، وطالما حذر قواده أن تعرف الرأفة مع خصومه سبيلا الى قلوبهم دون اذن سام منه . فالطغيان والبطش وحدهما كفيلان باخضاع أعدائه واذلالهم . والعدو المهزوم لن يرضى بالخضوع المطلق ، بل سيظل دائما أبدا حاقدا على سيده الجديد منتهزا الفرص للانقضاض عليه .

والمشاهد أن جنكيزخان لم يلجأ الى هذه القسوة فى حروبه بالجوبى أو بأرض الخطا ، ولكنا نراه فى بلاد الاسلام يحاول أن يثبت أنه يستحق لقب نقمة السماء عن جدارة . ولا عجب اذ نجده يؤنب تولى بشدة لانه أمن أهالى هراة على حياتهم ولم يقتل عشرة آلاف من جنود جلال الدين .

والواقع أن جنكيزخان كان بعيد النظر ، فقد ثار أهل هراة ضد مستعبديهم الجدد وفتكوا بالحاكم المغولى . كما ارتفعت الروح المعنوية بين أهالى خراسان نتيجة لزيارات متعددة قام بها السلطان الشاب للمدن الاسلامية وراح يخطب فيهم مستثيرا حماستهم .

وسرعان ما انطلقت كتائب الخان الراكبة الى حيث اشتمت الفتنة . ويحدثنا التاريخ بأن مصير هراة لم يكن أقل فظاعة عن مصير مرو ، فقد أطفأ المغول جذوة المقاومة بأبشع الوسائل ، ولا عجب فقد لاح لهم خطر جديد ، اذ أعلن المسلمون الجهاد والحرب المقدسة .

مضى المسلمون يتهامسون عن المغول الكفار الملاعين ، ولكن نار الحنق المتقدة أخذت تخبو بالتدريج . حقا لقد كان لمحاربى الاسلام قائد عظيم ؛ ولكن قلب دولتهم قد انقلب حطاما وخرابا ، بينما أخذت فرق المراقبة والاستكشاف المغولية تطارد جلال الدين ، القائد الوحيد الذى كان بوسعه ضم شتات المسلمين والتصدى لمواجهة الغازى العجوز . أخذوا يطاردونه بلا ابطاء نحو الحدود دون أن يمنحوه الفرصة أو الوقت لتعبئة جيش جديد .

وبينما المغول يجولون فى خراسان غازين ، هاجرت قبيلة تركمانية كانت تقطن قرب مرو فزعا من المغول حتى بلغت أرمينيا ، ولم تمض بضعة أعوام حتى بلغ المغول فى زحفهم أرمينيا ومن ثم استمرت تلك القبيلة فى هجرتها حتى وصلت الى آسيا الصغرى حيث استوطنت بزعامة أرطغرل احدى المقاطعات التابعة

لسلطان السلاجقه الروم قرب أنقرة • واذ توفي أرطغرل امتد نفوذ القبيلة على حساب البيزنطيين وانتقلت الزعامة الى عثمان الذى أسس دولة على أنقاض الدولة السلجوقية هى المعروفة فى التاريخ بالدوله العثمانية •

• • •

وبحلول موسم الصيف التالى ذى القيظ الشديد ، قاد الخان الجزء الاكبر من جيشه نحو مرتفعات هندوكوش الواقعة فى شمال الهند حيث تكسوها الغابات ، تلك المرتفعات التى تعلو الوديان التى تم تخريبها • وهناك أباح لجنوده اقامة معسكرات الراحة بينما سيق الاسرى ، نبلاؤهم وعبيدهم ، قضاتهم وصعاليكهم لزراعة القمح • واذ قضت الامراض على عدد كبير من أفراد الجيش ، فضل الخان الاستغناء عن موسم الصيد هذا الصيف وآثر أن يقضى جنوده شهرا فى الراحة مستمتعين بالخيام الحريرية التى غنموها من أمراء المسلمين وأتابكتهم ، بينما اصطف أبناء أولئك الامراء والاتابكة يسقون أسيادهم الجدد الخمر • وراحت أجمل حسان المسلمات يخطرن خلال المعسكرات دون حجاب تحت أبصار العمال الكادحين فى حقول القمح المنهكى القوى ، العارين الا عن خرق بالية لا تكاد تستر عوراتهم •

وأخذت قبائل التركمان المتوحشة التى تعيش على قطع الطرق ونهب القوافل ، أخذت تهبط من مرتفعاتها متوددة الى الغزاة لمشاهدة الذهب والفضة والثياب الموشاة بالجواهر التى لا حصر لها والتى جمعها المغول فى أكوام انتظارا لترحيلها الى الجوبى •

واذ كاد جنكيزخان أن يفرغ من عملياته الحربية ، كان مازال أمامه انجاز مهمة الادارة التى لا نهاية لها ، فكان يصل اليه السعاة من لدن قواده فى بلاد الخطا ومن عند سابوتاى فى سهول روسيا • وبينما كان يدير العمليات الحربية فى هاتين الجبهتين كان عليه بالمثل أن يكون على اتصال دائم بجميع خانات الجوبى •

ولما شعر الخان بالقلق من طريقة ادارته لشئون البلاد عن طريق الرسائل والرسل ، أمر مجمع الخانات بالاجتماع لديه فى هندوكوش •

ومهما كانت المشاق التى لاقاها أعضاء المجمع فى تلك الرحلة القاسية الخشنة ، فان أحدا لم ينبس بأقل شكاة •

جلال الدين



واذ حل الخريف لم يكن أمام المغول غير استئناف القتال ، فقد ثارت هراة وغيرها من المدن ضد الغزاة ، ودلت التقارير التى رفعتها فرق المراقبة والاستكشاف المغولية فى جبهة هندوكوش على أن جلال الدين كان يعد جيشا فى الشرق ، وكان جنكيزخان قد عزم على ايفاد تولى لملاقاة الامير الخوارزمى عندما سمع بنبأ الثورة فى هراة • ولكنه عدل عن هذه الفكرة وبعث بتولى غربا على رأس عدة فرق الى خراسان •

ومضى جنكيزخان على رأس ستين ألف مقاتل بحثا وراء الجيش الخوارزمى الجديد ليقضى عليه بنفسه • وصادف فى طريقه مدينه باميان المنيعة بين سلسلة مرتفعات كوهى بابا ، فتوقف لحصارها ، بينما أرسل الجزء الاكبر من قوته تحت قيادة أحد الارخونات لملاقاة جلال الدين •

وبمضى الوقت توافد الرسل الى باميان ينبئون الخان بأن جلال الدين يقود جيشا من ستين ألف مقاتل ، وأن القائد المغولى قد اشتبك بالامير الخوارزمى ، وأنه قد تجنب الوقوع فى بضع شراك حاول جلال الدين استدراجه اليها ، وأن طلائع المغول مازالت ترصد حركات أمير خوارزم •

أما ما حدث فهو أن جيشا من الافغان قد انضم الى جلال الدين فتضاعفت قوته ، ثم أتت الانباء فيما بعد تفيد بأن الاتراك والافغان قد أوقعوا الهزيمة بالارخون المغولى بعد أن شتتوا رجاله فى الجبال ، وكان هذا النبأ فى ذاته حافزا لجنكيزخان للانقضاض بأقصى قوة وأعنف عزيمة على باميان • وكان المدافعون قد أزالوا من المكان كل مايمكن أن يستفيد منه عدوهم ، حتى أنهم قد نقلوا الاحجار التى يمكن استخدامها بواسطة آلات الحصار •

ولم يصطحب المغول معداتهم المعتادة هذه المرة ، حتى باتت أبراجهم الخشبية التى أقاموها تجاه الاسوار عرضة لسهام المسلمين والنفط المشتعل فنفقت الحيوانات والماشية •

وازاء ذلك أصدر الخان أمره بالهجوم ، الهجوم الذى لاينقطع ، والعاصفة التى لا تهدأ حتى يتم الاستيلاء على المدينة ، وأثناء ذلك الهجوم قتل أحد أحفاد الخان ، وكان قد تبع جده وهو يقتحم السور ، فأمر الخان العجوز بنقل جثة الصبى الذى كان يحبه لفرط شجاعته الى الخيام • ثم مضى يستحث الهجوم بعد أن طوح خوذته واندفع يخترق صفوف رجاله حتى صار فى مقدمة القوة المقتحمة ، وسرعان ما ثبتت أقدام المغول فى احدى الثغرات ، ولم تلبث باميان أن سقطت فى أيديهم ، وشرع المغول يذبحون كل مخلوق بشرى ضمته جدران المدينة ، ويهدمون المساجد والقصور ، حتى

أنهم صاروا يدعون باميان « مدينة الاحزان » • وظلت المدينة خالية من السكان خمس سنوات ••!

ولم يمكث جنكيزخان بالمدينة الا ريثما استعاد أنفاسه ثم خلفها في الحال لجمع فرقه المشتتة التي كانت تتحسس طريقها نحوه بين الجبال ، فجمعهم ومدح اخلاصهم وروحهم المعنوية ، وبدلا من تأنيب الارخون سيء الحظ الذي أوقع به جلال الدين الهزيمة ، نراه يعود معه جنبا الى جنب نحو مسرح المعركة يسأله عما حدث ثم يروح يعدد له الاخطاء التي ارتكبها •

ولكن الامير الخوارزمي لم يثبت جدارته في أوقات الرخاء والنصر ، كما أثبت قوته ومضاء عزيمته في أوقات الشدة والهزيمة ، فقد بلغ جذله وسروره الحد الاقصى عندما أخذ رجاله يعذبون أسرى المغول بدق الاوتاد في آذانهم حتى المو ت ، وراحوا يوزعون الخيل والاسلحة فيما بينهم ، وسرعان ما دب الخلاف بينهم فنشب نزاع بين ضابطين من كبار ضباطه على جواد عربي اشتهاه كل لنفسه ، فضرب أحدهما الآخر بستوطه على رأسه ، وعبثا حاول جلال الدين ترضية النفوس واعادة القائدالمها ن الذي انسحب بجنوده الغوريين الى مدينة **بشاور** •

وكان جنكيزخان في طريقه الى جلال الدين بعد أن كلف جيشا من جيوشه بمراقبة حركات الافغا ن ، فارتد جلال الدين شرقا نحو غزنه ، ولكن المغول كانوا له بالمرصاد فلم يمهلوه • وكان جلال الدين قد بعث برسل يستدعون له حلفاء جدد ، فوجد الرسل أن المغول يسيطرون على كافة الممرات الجبلية ، لذا أسرع جلال الدين بجيشه المكون من ثلاثين ألف مقا تل عابرا سلسلة الجبال نحو وادي السند • وكان يطمع في عبور النهر الى حيث يستطيع الانضمام بقواته الى سلطان دلهي • ولكن المغول الذين كانوا على مبعدة خمسة أيام منه وهو في غز نه باتوا الآن على مبعدة مسيرة نصف يوم ، فلم يكن جنكيزخان ليفرط في استغلال خفة حركته لاكتساب الوقت واحراز المفاجأة ، ولم يسمح لرجاله بالترجل لطهي طعامهم الا لماما • واذ وجد جلال الدين نفسه في هذا الموقف الميئوس منه أسرع الخطى نحو النهر ، حيث اكتشف أنه لسوء

حظه بلغ من النهر مكانا شـديد العمق سريع التيار يصعب منـه العبـور ، فاستدار وهو فى هذا المـأزق ليجد جنبه الايسر مستندا الى حافة جبل يحميه بينما جنبه الايمن مستنداً الى حافة النهر •

واذ انزلقت قوة الاسلام الى خا رج حدود بلادها ، أخذت تعـد نفسها لاختبـار معدنها ومهارتها ضد المغولى العنيـد ، فأمر جلال الدين باحراق القـوارب الراسية بالشاطىء حتى لا يفـكر أحد من جنده فى الفرار •

والواقع أن جبهته كانت قوية ، انما كان عليه أن يحتفظ بهـا والا قضى عليه القضاء الاخير •

وما كاد الفجـر تنبثق خيوطه الاولى حتى بدأ زحف المغـول على خط المسلمين كله • فبرزوا من خلال الظلام فى تشكيل القتـال يقودهم جنكيزخان ، والى جانبه لواءه محتفظا بالحرس الامبراطورى فى الاحتياط وراء قلب المغـول ، ولم يشترك الحرس بطبيعة الحال فى العملية الاولى •

وكان الامير الخوارزمى الباسل هو السباق الى دفع رجاله للامام ، بينما اشتبك جناحه الايمن الذى كان دائما الجناح الاقوى فى جيوش المسلمين وقتذاك ، تحت قيـادة الامير مالك بميسرة الخان ، فصد هجمة لفرسان المغول كانوا يبغون منهـا بلوغ النهر ، وأعادهم الى مراكزهم بعد أن تفرقوا الى كتائب كعادتهم فى مثل هذه الظروف ، ومن ثم اجتمع شملهم من جديد تحت امرة أحد أبناء الخان وأعادوا الـكرة •

أما جناح المغول الايمن فقـد تعذر عليه التقـدم فوق سلسلة المرتفعات القاحلة ، ولم يجد هذا الجناح بدا من التوقف ، وكان أن سحب جلال الدين بضـع قوات من جناحه الإيسر لمساعدة الجنـاح الايمن فى زحفه تحت قيادة الامير مالك ، ثم نراه قبل انقضاء النهار يواصل سحب كتائب أخرى من القوات التى أنيط بها أمر الدفاع عن تلك الجبال وذلك لتعزيز قلبه •

وبطبيعته القائمة على المغامرة عقد العزم على المجازفة مرة واحدة

بكل ما فى قبضته ، وحمل بنفسه على رأس صفوة جيشه ، على قلب المغـول مبـاشرة فمزقه بددا ، ثم اتجه صوب لواء القيادة بحثا وراء الخان ، ولكن المغولى العجوز ولى ، ولم يكن فى انتظاره حيث أراد اذ كان جواده قد قتل تحته فامتطى غيره وانتقل الى مكان آخر .

لقد كانت والحق يقال لحظة فوز رائع ونصر عظيم للقائد الخوارزمى، وكانت أصوات المسـلمين وهم يهللون الله أكبر قد ارتفعت فوق وقع حوافر الخيل وارتطام السيوف وأنين الجرحى .

اهتز قلب المغولى من تأثير هذا الهجـوم العنيف ، ولـكنه مضى يقاتل بعناد وصلابة . واذ فطن جنكيز خان الى انسـحاب معظم قوات جناح المسـلمين الايسر من فوق المرتفعات أمر بيلا نويون أحد قادة الفـرق المغولية أن يتقـدم بصحبة الأدلاء ويجتاز الجبل بأى ثمن . انهـا حـركة الالتفاف المغولية القديمة ، انها التولوغما التقليدية .

مضى بيلا بفرقته وراء الأدلاء نحـو الممرات الجبلية العمـودية ، صـاعدين المسـالك التى تعتبر مستحيلة العبور ، وقد سـقط بعض الجنود فى الهوات السحيقة التى صادفتهم ، ولكن الجزء الاكبر من الفرقة اسـتولى عـلى سلسلة المرتفعات قبل انقضـاء النهـار ، ومن ثم هبطوا منقضين على البقية الباقية لحمـاية هـذه المنطقة من جيش جلال الدين .

ومن عند هذا الحاجز الجبلى بدأ المغول يطوون موقع المسلمين حيث انطلق بيلا نحو معسكر العدو .

وفى الوقت نفسه اتخذ جنكيز خان قيادة فرقة الفرسان الثقيلة المـكونة من عشرة آلاف فارس ، واندفع ليس نحو قلبه الذى يهدده المسلمون بل نحو جناحه الأيسر المتداعى ، حيث لاقى قوات الامير مالك ففتك بها فتكا ذريعـا ولم يضع وقته فى مطاردتها بل نقـل كتائبه فى الحال نحو جنب قوات جلال الدين فى الوسط ، فاصلا جناح المسـلمين الأيمن من عند النهـر عن الامير الخـوارزمى . وبذلك أصبح المسلمون البواسل المنهوكى القوى فى موقف شـبه ميئوس منـه نتيجـة دهاء المغولى العجوز ومناوراته المثلى الدقيقـة

التى كان يؤديهـــــا كأنه يلعب الشطرنج . وقد أتت النهاية سراعا اذ قام جلال الدين بهجـــوم أخير لا أمل فيه ضد فرســـان الحرس الامبراطورى ، ولمـــا تبين عقـــم مغامرته حاول الانسحاب برجاله الى النهر ، ولكن عـــدوه تعقبـــه وشتت كتائبه ، بالاضافة الى أن بيلانويون أخذ بدوره يضغط عـــلى فلول جلال الدين . وما كاد الامير الخوارزمى يبلغ ضفة النهر الحادة الميل حتى وجد نفســه وحيدا الى جانب ســبعمائة فارس فقط من أتباعه ، واذ أدرك اقتراب النهاية اعتلى جوادا آخر وتخلص من دروعه ثم اندفع بالجـــواد غير حامل الا سيفه وقوسه وجعبة سهامه نحو حافة النهر قافزا الى المـــاء سريع التيار قاصدا الضفة الاخرى .

أما جنكيز خان فقد أصدر أمرا بأن يأتوا اليه بالامير الخـــوارزمى حيا . وانقض المغول عـــلى البقيـــة البـــاقية من الخوارزميين ، وانتحى الخان بجـــواده ليرقب ذلك الفارس الذى قفز بجواده الى النهـــر من ارتفاع عشرين قدم . ومكث يتأمل خصمه جلال الدين فى صـــمت ، واضعا أصـــبعه بين شـــفتيه ، ثم تمتم باعجـــاب لا يشـــوبه الحقـــد « سعيد من يلد مثل هذا الابن »!!

وقد احتفظ جلال الدين بهذا الجواد الذى أنقذ حياته ولم يمتطه حتى اســـتعاد سلطانه بعد عـــودة جنكيز خان الى موطنه .

وقد قتل من جنود جلال الدين عـــدد كبير ، كمـــا غرق كل من حاول عبور النهر ســـباحة نظرا لسرعة التيار ، وأسر المغول ابن جلال الدين وكان صبيا فى السابعة من عمره قتـــله جنـــكيز خان بين يديه . وبينمـــا جـــلال الدين فى طريقه الى ضفة النهر شـــاهد أمه وزوجاته يتضرعن اليه كى يقتلهن ليتجنبن الوقوع فى الاسر فاستجاب لندائهن وأمر باغراقهن .

ورغم اعجاب الخان بشجاعة جلال الدين الا أنه لم يفكر فى الصفح عنه فحاول بعض فرسانه السباحة وراء الامير ولكن الخان منعهم وهـــو واقف يرقب جلال الدين حتى بلغ الضفة الاخرى من النهر .

وفى اليوم التالى أرسل فرقة تحت امرة بيـــلا لمطاردة الامير ، فعبرت النهر من مكان مناســـب ثم دمرت مولتـــان ولاهور ومضت

تقتفى أثر الامير الهارب عبثا اذ لم يتمكن المغول من العثور عليه وسط الالوف العديدة فى الطريق الى دلهى • وكانت حرارة الطقس القائظة قد أدهشت مغول هضبة الجوبى • عاد بيلا الى الخان ليقول أن الحرارة تفتك بالجنود كما أن المياه قذرة غير نقية • وهكذا أفلتت الهند فيما عدا تلك المنطقة من الغزو المغولى • وقد جاء فى الاساطير أن كشافة المغول ما كادوا يعبرون السند حتى عادوا الى الخان يبلغونه أنهم شاهدوا حيوانا مخيفا أخضر اللون وله قرن واحد وذيل يشبه الحصان ، وله قدرة عجيبه على تقليد صوت البشر ، فلما رآهم ذلك الحيوان صاح فيهم أن ينبؤا سيدهم كى يرحل من فوره • فاستدعى الخان يى لو تشو تساى يسأله تفسيرا للحادث فقال له « ان ذلك الحيوان هو كيوتوان الذى يجيد جميع لغات العالم وهو يحب البشر ويفزع من رؤية الدماء وحديثه هذا نذير لك، وأنت يامولاى أكبر أبناء السماء ، والشعب والناس أبناؤك ، وهو يرجو منك العطف الذى ألهمتك به السماء لصالح البشر ورفاهيته »
ويعزو المؤرخون ارجاء غزو الهند الى هذا السبب •

● ● ●

وبعد أن عبر جلال الدين ومن أفلت معه نهر السند وجدوا أنفسهم بلا مأوى يلجأون اليه ، فأغاروا على بعض البلاد الغنية ناهبين ما فيها من أسلحة وطعام ولباس ، وراح جلال الدين يتنقل بين مدن الهند الى أن بلغ دلهى التى راح أميرها يتوسل اليه بكافة الطرق كى يتخذ له مأوى غيرها خوفا من بطش المغول ، وزوده بالهدايا ونصحه بالسير الى مولتان الواقعة على نهر السند ، فعمل بالنصيحة • حقا قد ظل جلال الدين على قيد الحياة ، ولكن مجده قد ولى وان كان قد عاد فحارب المغول من جديد ، انما كمغامر لا أمل له •

كانت موقعة السند آخر معركة يخوضها فرسان خوارزم ، فمن حدود التبت حتى بحر قزوين زالت المقاومة • أما من ظفر بحياته من الاهالى المسلمين فقد عاش عبدا للغزاة • وبانتهاء الحرب انتقلت أفكار الخان نحو موطنه فى الجوبى • لقد كان مطلوبا فى أقصى الشرق ، اذ مات موهولى بعد أن أحكم ربط النير المغولى برقبة أهل الصين • أما فى الجوبى فان مجمع الخانات قد بدأ يفقد هدوءه

وراح أعضاؤه يتنازعون بينما بدأ دخان الثورة يتصاعد من مملكة هيا.
غادر الخان نهر السند وكان يعلم وهو على وشك الولوج فى أقاليم هيا الواقعة على سفوح التبت الخلفية أنها تبعد مالا يقل عن ثمانمائة ميل ، ولكنه اذ وجد الطريق مغلقا أمامه بسلسلة المرتفعات الكثيفة الوعرة التى يغطيها الجليد ويستحيل اجتيازها، لم يتردد كثيرا.

واستدار راجعا وبدأ رحلة جديدة حول تلك المنطقة الهائلة الارتفاع التى كانوا يسمونها « سقف العالم » متخذا طريق القوافل الذى فتحه أثناء غزو أقاليم فارس. وفى طريقه أغار على مدينة بشاور ومضى الى سمرقند وحدائقها فى خريف عام ١٢٢١ وقد ذبلت أزهارها وتخربت قصورها وتقوضت مساجدها ، ويبدو أن الخان قد أخذته الشفقة لأول مرة على تلك المدينة فهب الحكيم يى لوتشو تساى يقول « لقد حان الوقت يامولاى لوضع حد للمذابح ! »

وكان من بين الأسرى امام مدينة هراه ، وكان يجلس فى مجلس الخان فقال الخان فى معرض الحديث « ان محمد خوارزم شاه لم يكن ملكا بل كان لصا لأنه قتل التجار والسفراء فى أوترارو ليس هذا من شيم الملوك والسلاطين ».

وأراد الغازى أن يتحقق ان كان محقا فى تدميره المدن ونشره الخراب جزاء قتل خوارزم شاه لسفرائه فسأل الامام « هلا يبقى اسمى خالدا بعد موتى » ؟

قال الامام « يبقى الإسم ما بقى سكان ».

فعين جنكيز خان حاكما على سمرقند من أهلها وجعلهم يشتركون الى حد ما فى ادارة شئون البلاد مع المغول مطبقين شريعة الياسة ومنفذين لسلطان أبنائه من بعده.

وما كاد الجيش المغولى يتخطى نهاية الخرائب الجنوبية حتى أصدر الخان أمره التقليدى بقتل كل الأسرى ، وبهذه الوسيلة قضى فى ليلة واحدة على تلك الجموع التعسة التى كانت تتبع بدو الجوبى. أما نساء الامراء والملوك المسلمين اللاتى وقع عليهن الإختيار للانتقال الى الجوبى فقد تزودن بآخر نظرة من أرض الوطن.


نهاية محارب

بدأ الزمن يوهن من جسد المغولي المتين بعد ان قطعت السنين تجاعيد وجهه الغليظ البشرة ، وبدأ الخان العجوز يستشعر تلاشي حيويته رويدا رويدا ، ويفقد قوته الدافقة شيئا فشيئا ، وراحت جراحه القديمة تلح عليه وتنغص عليه بعض فترات حياته الاخيرة ، فأدرك بغريزته أن منيته قد قربت . وكان يود لو يرى النظام مستتبا وشريعة الياسة سارية وأولاده في الحكم فأرسل الرسل عبر طرقه المؤمنة يستدعي كبار ضباطه لحضور المؤتمر الاكبر على ضفاف نهر سيحون قرب المكان الذي نفذ منه الى خوارزم لاول مرة ، وكان سهلا يبلغ طول محيطه سبع فراسخ ، يلائم موقعه العقلية المغولية فقد ملأت الطيور المائية البرك المحيطة بالنهر ، بينما انطلقت الديكة البرية ترفرف خلال ساحة العشب الخصيبة ، مروج لانهاية لها وطيور وحيوان يغري بالصيد اينما اتجهت وكان الوقت في مستهل الربيع ، الشهر المعتاد لعقد مؤتمر « الكورلتاي »

وبدأ قواد الجيش يفدون الواحد بعد الاخر بانتظام الى مكان الاجتماع فيما عدا سابوتاي الذي مايزال بأوربا ووصل متأخرا فيما بعد .

وفد القادة من كل مكان ، من الشمال والجنوب ومن الشرق والغرب ، السيول الثائرة ونسور الامبراطورية ، والطارخانات الجوالون والملوك الخاضعون للنفوذ المغولى والسفراء . لقد قطع الجميع رحلات طويلة شاقة لحضور مؤتمر الامراء المغول . ولم تكن بطانة أولئك الامراء وحاشية هؤلاء القواد بالبطانة أو الحاشية القليلة .

ظهرت مركبات الصين المكسوة بالحرير تجرها أزواج متشابهة من الثيران بينما رفرفت الاعلام المأسورة من فوق سطح المركبات .

وبدأ الضباط الوافدون من منحدرات التبت بعرباتهم المذهبة تجرها صفوف من الوعول الثقيلة المسترسلة الشعر ، العريضة القرون ، البيضاء الذيول ، تلك الوعول التي اعجب بها المغول واحبوها فاتخذوا من ذيولها شعارا

وجاء تولى امير الحرب من خراسان يجر وراءه صفوفا طوالا من الجمال البيضاء بينما انحدر شاطاجاى من قمم الجبال الثلجية يسوق امامه مائة الف جواد . وكان جل ضباط الجيش مكتسين حللا موشاة بالذهب والفضة تغطيهم أردية من الفراء وسترات من فراء الثعالب الفضية اللون .

ومن هضبة تيان شان اتى زعيم اليوغور أعز حلفاء الخان ، كذلك وفد زعماء القرغيز ذوى الوجوه العريضة ، وشيوخ التركمان ذوى الاطراف الطويلة بثيابهم الفخمة يقدمون فروض الولاء للغازى .

ومن الجوبى وصل غلام حاد الذكاء في التاسعة من عمره هو قوبلاى خان بن تولى بعد ان أبيح له الخروج الى أهم اجتماع يمكن ان يشترك فيه حفيد الامبراطور .

اكتمل شمل قادة الجيش في مجمع الكورلتاي ، وهو سرادق أبيض بلغ من ضخامته ان استظل به الفا رجل وكان للخان مدخل خاص به لايستخدمه غيره

وكما سبق ان احضروا الى الخان في الجوبى الخيول المأسورة والنساء الفاتنات والاسلحة المسلوبة ، راح قادة الجيش والملوك الموالون يقدمون اليه هدايا من نوع جديد .. أثمن الكنوز التي أمكن الاستيلاء عليها وجمعها في نصف الكرة الارضية . وبدلا من لبن اناث الخيل قدم امراء الامبراطورية مشروب العسل المخمر وانبذة فارس الحمراء والبيضاء ولاغرو فقد طالما اظهر الخان اعجابه بخمور شيراز .

جلس الخان فوق عرش الشاه علاء الدين محمد الذهبي الذى اتى به معه من سمرقند والى جانبه وضع صولجان الشاة الراحل وتاجه بينما فرش تحت عرشه مربع من اللباد الرمادى المنسوج من وبر الحيوان رمزا لسيطرته القديمة على الجوبي واذا اكتمل الحضور سيقت ام الشاه والفيود حول معصميها

وراح الخان يقص اخبار المعارك التى خاضتها جيوشه خلال السنوات الثلاث السابقة على القادة المجتمعين معلقا بقوله « لقد احرزت السيادة التامة بفضل تطبيق شريعة الياسة فعليكم باحترامها .. ثم نصح بنية الثلاث قائلا ، لاتدعو المنازعات تفرق بينكم ولتكونوا جميعا مخلصين لاوجوتاى »

استمرت الحفلات شهرا فى محل المؤتمر الذى وفد عليه ضيفان عظيمان لقيا اجمل ترحيب واستقبلا احسن استقبال ،سابوتاى قادما من حدود بولندة مصطحبا معه جوشى بعد ان اقنعه سابوتاى بحضور المؤتمر ومواجهة أبيه .

ركع جوشي امام الخان ثم تناول يدابيه لضغطها الى جبهته علامة الخضوع والولاء، مما كان له أطيب الاثر على الغازى العجوز الذى كان يميل كثيرا الى جوشى دون ان يبدو عليه اى مظهر من مظاهر هذا الميل ولقد اتى الغازى سابوتاى معه بهدية الى سيده هى مائة الف جواد من جياد القفجاق .

واذ مل جوشى حياة المؤتمر الرتيبة سأل اباه السماح له بالعودة الى الفولجا فوافق الاب على ملتمس ابنه .

وماكاد الاجتماع ينفض حتى ركب ماطاجاى عائدا الى جباله بينما مضت بقية الجيوش صوب قره قرم ** ويروى المؤرخون ان جنكيز خان كان يستدعى سابوتاى الى جواره يوما بعد يوم اثناء الرحلة الى الجوبي ليقص عليه انباء مغامراته فى العالم الغربى

لم يكن الله يدخر لجنكيز خان قضاء السنين الاخيرة من حياته بين اهله فى موطنه فقد اعد الخان كل المسببات لابنائه ، ومهد لهم سبيل الحكم الاشيئين ، فثمة خصمان مازالا على قيد الحياة ملك هيا النشط فى نهاية الطريق الى التبت وآل سونج فى جنوب الصين

امضى الخان عاما فى قره قرم بين قومه وبورتاى الى جانبه ثم امتطى جواده من جديد وأرسل سابوتاى لغزو بلاد سونج واناط بنفسه مهمة اخضاع قبائل هيا الى الابد ونجح فى تحقيقها .

سار فى فصل الشتاء عابرا المستنقعات المتجمدة ليلقى عدوه القديم وقد استقبله بخليط من بقايا جيوش الخطا والصين الغربية والاتراك علاوة على قوات هيا الاصلية .

واذ خيل للحلفاء ان النصر حليفهم قاموا بهجوم مركز على قلب الخان . ويروى المؤرخ ان ثلاثمائة الف رجل لقوا حتفهم هناك وولى من بقى منهم فرارا . واستهل الخان المجزرة الثانية بقتل كل الرجال القادرين على حمل السلاح ، اما ملك الهيا فقد لاذ بقلعة جبلية تحميها أخاديد تغمرها طبقات الجليد وارسل يطلب الصفح من الخان العنيد بعد ان كبت حقده وياسه تحت ستار الصداقة المصطنعه وساله ان يعفو عما سلف فأجاب جنكيز خان رسله قائلا ، انبئوا سيدكم انى لاأريد ذكر الماضى وسأحتفظ به صديقا »

لم تكن حملة هياهي اخر حملات الخان ، فمازال شعب سونج في حاجة الى الخضوع، فمضى الجيش في منتصف الشتاء نحو حدود الصين القديمة ، وهنا برز يي لوتشوساي الحكيم يحذر الخان القضاء التام عـــلى سونج وتدميرها قائلا « اذا انت ابدت هذا الشعب فكيف تنتظر منه المساعدة اوامداد ابنائك لقد غزوت امبراطوريتك بحد السيف ولن يمكنك حكمها بنفس الطريقة »
ذكر الخان انه بعد ان أحال تلك البلاد الخصبة بالزرع والسكان الى صحراء جرداء فان حكماء الخطا قد عاونوه معاونة صادقة للاحتفاظ بالامن والنظام في ربوع البلاد ٠ قال الخان « اذن فلتكن انت سيد الشعوب الخاضعة لسلطاننا ولتكن مخلصا لابنائي من بعدي ٠»

ولم يكن الخان ليحجم عن غزو سونج فلابد ان ينتهي من هذه المهمة مهما كلفه الامر فقاد جيشه حتى النهر الاصفر وهناك بلغه نبأ موت جوشي في براري الروسيا ، فأبدى رغبته في الانفراد بنفسه بخيمته حيث مضى يكتم حزنه البالغ على ولده الاول في صمت
ولكن الم يكن جنكيز خان هو الـــذي ... اوجوتاي الا يبدى الحزن على ابنه الصغير الذي قتل على ابواب باميان ومنعــه من البكاء ؟
كذلك لم تبد على الخان نفسه امــام الناس اى ظاهرة من ظواهر الحزن عـــلى جوشي بل مضت الجيوش تؤدى واجبهــا واستمرت الاجراءات المتبعة في سيرهـــا المعتاد ، غير ان الخان بدأ يقلل من حديثه الى ضباطه كما لوحظ ان الانباء التي وصلته عن الانتصارات الجديدة حول بحر قزوين لم تثره او حتى لم تظفر منه بأى تعليـــق أو عبارة استحسان ٠ وماكاد الجيش يلج احدى الغابات الكثيفة حتى اصدر الخـــان امره بالوقوف ثم بعث يستدعى اقـــرب أولادة « تولى » الذي كان يعسكر في مكان قريب
واذ ترجل امير الحرب الشاب امام مـــدخل خيمة الخان وجد اباه راقدا فوق بساط قرب الموقد متدثرا باردية من اللبـــــاد والفراء ٠
قال المغولي العجوز محييا الامير «انى لارى منيتي قد حانت ، وساغادركم عما قريب» ثم أمر باستدعاء كبار ضباطه الى جـواره الذين ركعوا مع تولي يصغون بانتباه الى حديث الخان عن كيفية ادارة دفة القتال الذي بدأه ولم يتمــه ضــــد اقليم سونج كما ابدى رغبته في ان يتولى تولي على وجــه الخصوص حكم الاقاليم الشرقية وشاطاجاي حكم الاقاليم الغربية ، بينما يتولى اوجوتاي الحكم الشامل الكامل عليهما كخان قرةقرم
وكبدوى اصيل لفظ الخان انفاسه الاخيرة دون انة او شكاة ، مخلفا لأبنائه اعـــظم وأوسع الامبراطوريات ، وأقوى آلة حربية مدمرة ٠ مات في يسر كما لو لم يكن قـــد خلف سوى بضع خيام وعدد من الماشيــة وكان موته عام ١٢٢٧ ٠ ويقول المؤرخـــون ان جنكيز خان أوصى اثناء مرضه الاخـــير باغتيال ملك الهيا خصمه العنيد الذي كان وقتذاك في طريقه الى مقر رئاسة الجيش وطلب الخان ان يظل امر المؤامرة سرا حتى وقت تنفيذها ٠

رشق القوم سهما في الارض امام خيمــة الغازى الراحل المنعزلة ٠ ولم يكن مسموحا لغير كبار الضباط بالدخول والخروج الى الخيمة كأنما القائد العام يصـــدر أوامره وتعليماته وهو بالفراش ٠ وماكاد ملك الهيا وبطانته يصلون حتى دعاهم المغول الى وليمة وخلعوا عليهم أثواب الشرف واجلســـوا كلا الى جوار احد ضباط الجيش ، ومن ثم ذبحوهم عن آخرهم -

واذ حرم المغول عبقرية الخان استعد الارخونات والامراء الذين دهشوا أيما دهشة لموت ذلك الرجل الفذ الذى لايقهر ، والذى اتاح لهم حيازة كل مايشتهون ، استعدوا لاصطحاب الجثمان الى الجوبى ، وكان لابد لهم قبل مواراة الجثمان التراب من عرضه على شعبه ثم حمله الى محله المختار الى جوار بورتاى زوجه الاولى .

مات جنكيز خان فى اراضى السونج ولكى يخفى المغول عن عدوهم نبأ الفجيعة التى حلت بهم ، لجأ الفرسان الى قتل كل مخلوق يصادفهم فى الطريق حتى بلغوا حافة الصحراء . وهنا فقط بدأ فرسان الجيش ومحاربو الجوبى يبكون فقيدهم الراحل

ويكاد ماركو بولو وحده دون جمهرة الكتاب الذين ارخوا لجنكيز ينفرد بالقول بأن الخان قد مات متأثرا بجراحه عقب اصابته بسهم فى ركبته اثناء حصاره لاحدى القلاع فى اقليم سونج ، وان كان أحد من المؤرخين لم يشر الى هذه الحادثة قط ويكاد معظمهم يجمع على ان موت جنكيز خان كان اثر مرض اضطره الى الاعتكاف فى خيمته حيث كان الطقس سيئا مما ساعد على التعجيل بموته

وقد جرت عادة المغول بدفن خاناتهم فى سفح جبل شاهق يدعونه جبل ألطاى مهما بعدت الشقة بينهم وبينه حتى ولو استغرقت الرحلة مائة يوم .

واذ سار موكب الجناز يحمل رفات الخاقان الراحل مضى الحراس المرافقون يقتلون كل من يصادفهم فى الطريق متأثرين بالعقيدة المنتشرة بينهم والقائلة بأن كل من يقتلونه يصير خادما للراحل فى الحياة الاخرى .ولم يقتصر الامر على البشر فقط بل كانوا يفتكون بالمثل بأجود الخيل عسى ان يستخدمها الميت فى الحياة الاخرى

لم يتجه الموكب الى قره قرم بل الى موطن الخان الاول ، فى الوديان التى شب على الكفاح وسطها ونشأ بين ظهرانيها . ومضى الرسل بأقصى سرعة نحو البرارى يحملون الى الارخونات والامراء والقواد النائين نبأ وفاة الخان .

وعندما وصل آخر الضباط وترجل امام مدخل الخيمة نقل الجثمان الى مثواه الاخير والمرجح انه الغابة التى اختارها بنفسه من قبل ، وحفر القبر تحت سنديانة ضخمة

ويقال ان قبيلة بأكملها قد اعفيت من الخدمة العسكرية وانيط بها مهمة العناية بالمقبرة وان البخور ظل يحترق بلا انقطاع فى الغيضة حتى باتت الغابة المحيطة من الكثافة بحيث اختفت السنديانة الضخمة عن الانظار ، واستحال التعرف اليها وتلاشت المعالم المؤدية الى القبر .



انصرم عامان قبل ان يفيق المغول من حزنهم فينادوا بأوجوتاى خاقانا وامبراطورا وماكاد أوجوتاى يعتلى العرش حتى شرع يوزع الكنوز التى خلفها ابوه على اخوته والامراء والضباط ، ثم امر بأربعين فتاة من اجمل النساء ارتدين افخر الثياب الموشاة بالجواهر وامتطين اربعين جوادا وبعث بهن الى قبر والده حيث ذبحن عن آخرهن لينتقلن الى خدمة الغازى الراحل فى الدار الاخرة

ولقد تميز حكم اوجوتاى بالتسامح ،وكان يثق بمستشاره يى لوتشوساى ثقة لاحد لها فبذل الاخير جهده كاملا لتعزيز امبراطورية سيده ووضع حدا لنشاط المغول المتجه نحو ابادة الجنس البشرى • ولقد اعترض على سابوتاى الذى كان يشترك مع تولى فى ادارة دفة الحرب ضد السونج عندما اعتزم القائد ذبح سكان احدى المدن وكانت تضم مليونا ونصف نسمة • واذ اقتنع اوجوتاى بحكمة مستشاره انضم الى صفه معضدا

ولقد نظم يى لوتشوساى طريقة جمـــع الضرائب ، ففرض رأسا واحدة من الماشية على كل مائة من المغول كما حدد مبلغا من الفضة او كمية من الحرير تقدمها كل أسرة صينية ، واقنع اوجوتاى باســـتخدام الكتبة الصينيين فى الجهاز الحكومى لضبط الميزانية ونظام الادارة

وبينما شرع اوجوتاى يشيد لنفسه قصرا جديدا انهمك يى لوتشو ساى فى تأسيس المدارس لصغار المغول • ويوما بعد يوم كانت تصل الى قره قرم التى أطلق عليها اسم « أوردو باليغ » خمسمائة مركبة تحمـــل المؤن والغلال والبضائع الثمينة لتكديسهـا فى مخازن الامبراطور •

وكان اوجوتاى مسرفا فى شرب الخمر ، وحاول يى لوتشوساى ان يصرفه عنهـــا فلما اعيته الحيل اتى باناء من حديد وضع بداخله قدرا من الخمر وبعد بضعة ايام صدأ الحديد فقال الحكيم لاوجوتاى «اذا كان الحديد قد تآكل الى هذا الحد بفعل الخمر فما بالك باثرها على أمعائك ؟ » ونفعت الحيلة مع اوجوتاى الذى قلل من تعاطى الخمر ولو انها كانت السبب الحقيقى لموته

وفى السنوات الاولى لحكم اوجوتاى هزم شارماجان أحد قادة المغول جلال الدين وقضى عليه القضاء الاخير ، ومضى يعزز الفتوحات المغولية غربى بحر قزوين • وفى نفس الوقت كان تولى وسابوتاى منشغلين جنوب نهر الهوانج هو فى اخضاع فلول الكين • وفى

عام ١٢٣٥ عقد اوجوتاى مجلس الكورلتاى الذى تمخضت عنــه موجة الغزو المغــولى الثانية فمضى باطو مؤسس الجيش الذهبى مع سابوتاى غربا حتى بلغ ساحل البحر الادرياتيكى وطرق ابواب فيينا ، بينمــا انطلقت بقية الجيوش صوب كوريا والصين وفارس . ولكن هذه الموجة ارتدت بموت اوجوتاى عام ١٢٤١ فاستدعى سابوتاى من أوربا

انقضت السنوات العشر التــالية فى خلافات متصلة اذ استفحل العداء بين بيت شطاجاى وبيت اوجوتاى وان كان العرش قد انتقل من بيت اوجوتاى الى أبناء تولى : مانجو ثم قوبلاى من بعده .

وبدأت موجة الغزو المغولى الثالثة التى كانت بحق أشد الموجات الثلاث عنفا . بدأت تكتسح العالم من جديد . فغزا هولاكو شقيق قوبلاى خان . يعاونه ابن سابوتاى العراق واستولى على بغداد ودمشق بعد ان قضى القضاء الاخير على الخلافة الاسلامية . وبلغت جيوشه قرب بيت المقدس وامتلك انطاكية وطن سلالة الصليبيين، وزحف على آسيا الصغرى حتى وصل الى أزمير وصار عــلى مسيرة أسبوع واحد من القسطنطينية .

وبينما هذه العاصفة تهب على الغرب ، دفع قوبلاى خان اسطوله للاستيلاء عــلى اليابان ، وامتد نفوذه حتى شمل الملايو وما وراء التبت حتى البنغال . وكان عهده فى الحقيقة من عام ١٢٥٩ الى ١٢٩٤ هو العصر الذهبى للمغول . اذ حكم رقعة من الارض اكثر اتساعا من اى رقعة حكمها مغولى ، كما كان أول خاقان يبسط نفوذه بالوســائل السلمية الى جانب الاداة الحربية اما عظمــة بلاطه وابهة سلطانه فقد فاقا ابهة وعظمــة أى ملك من ملوك الغرب . ولقد خرج قوبلاى خان عن مألوف عادات اسلافه ، فنقل عاصمة ملكه الى الصين وجعل يكتسب العــادات الصينية حتى بات صينيا أكثر منه مغوليا .

وكان انتقال البلاط الى الخطا نذيرا بتفكك عرى الامبراطورية فبات خانات فــارس من صلب هولاكو والذين باهوا قد قوتهم فى عهد غازان خان حوالى عام ١٣٠٠ باتوا بعيدين عن الخاقان بحيث تعذر الاتصــال به علاوة على أنهم سرعان ما اعتنقوا الاسلام. وكذلك كان موقف الجيش الذهبى المرابط فى روسيا ، أما مغول قوبلاى فقد انقلبوا بوذيين . وما كاد الموت يختطف قوبلاى حتى نشبت الحروب الدينية والسياسية داخــل الامبراطورية التى سرعان ما انقلعت وانكمشت بالتدريج حتى أمست ممــالك متعــددة منفصلة . وفى عام ١٤٠٠ ضم تيمورلنــك احد الغزاة الاتراك أواسط اسيا الى الاقاليم الفارسية التى كان يحكمها ثم اوقع الهزيمة بالجيش الذهبى الذى انشأه باطو بن جوشى

وظل المغول يحكمون الصين حتى عــــام ١٣٦٨ ولم يفقدوا قواعدهم الاخيرة فى روسيا الا عام ١٥٥٥ عندما طردهم ايفان الرهيب

وقد بلغ الاوزبك سلالة المغول القاطنين حول بحر قزوين اوج قمتهم فى عهد شايبانى عام ١٥٠٠ وهم الذين دفعوا بابار سليل جنكيز خان نحو الهند حيث نصب نفسه اول الأمراء المغول فى الهند .

وفى منتصف القرن الثامن عشر أى بعد ستمائة عام من مولد جنكيزخان ، هجــرت آخر سلالة الغازى المغولى معاقلها بالهند ، عندما تسلم الانكليز زمام الســلطان فى الهند من بعدهم . أما مغول الشرق فقــد استسلموا لجيوش الامبراطور الصينى الشهير كيين لونج ، بينما أصبح خانات التتار فى شبه جزيرة القرم رعايا للقيصره كترينــه

فى نفس الوقت الذى جــــلا فيه جيش الطورغوت عن مراعيه على ضفاف الفولجـا واستهل رحلته الطويلة الشاقة صـــوب الشرق ، موطنه الاصلى •

وان نظرة واحدة الى خريطة آســيا فى منتصف القرن الثامن عشر لتبين لنا بوضوح المقر الاخير الذى آزمته تلك القبـــائل البدوية سليلة جحافل جنـــكيزخان • ففى تلك المساحات الشاسعة القابعة بين بحيرة بيقول التى تكتنفها أحراش الغـاب ويحلق فوقها جوارح الطير وبين بحر آرال المالح ، فى تلك المساحات التى تعصف آريح الصر بسطحها ، وتلهب الشمس صخورها حيث تمتد الفيافى الى أبعد الحدود ، تلك المساحات التى قلما كانت ترتسم فى خرائط ذلــك الزمان ولايكاد يخط فوقها غير كلمة «التتار» هناك حيث مدينة قره قرم التى دفنت تحت رمال زوابع الصحراء السـافية ، وحيث قبر جنكيز خان المندثر المعالم ، فى تلـك المنطقة المتطرفة من هيكل العالم التى تختفى مراعيها تحت مسطحات جليد الشتاء ، يمضى المغول فى تجوالهم بين سهول الصـــيف ومراعى الشتاء ، يعيشون فى قبـــابهم المصنوعة من اللباد ويدفعون قطعانهم امامهم ولايكاد أحدهم يذكر أنه فوق هذه الوديان نفسها ، وعبر تلك الهضاب بعينهـا زحف لواء جنكيز خان بذيول الوعول التسع لينشر الذعر فى قلوب البشر

هكذا تمخضت امبراطورية المغول فارتدت متواضعة الى نفس القبائل البـدوية التى نشأت منها ، قبائل الرعاة المسالمين يجوبون ويجوسون ويضربون حيث جال وجاس وضرب عشرات الالوف من الفرسان المحاربين من قبل •



تلك هي سيرة جنكيز خان بخيرها وشرها، حقيقتها ومفترياتها ، وماسقت تلك السيرة على هذا النحو حبا لصاحبها ولاعرضتها على تلك الحال بغضا فيه ، فصاحب السيرة لايهمني بقدر مايهمني استكناه الحكمة من أحكامه واستنباط المعرفة من فعاله .

كان قومه أهل مكر وخداع ، لهم باع طويل فى الخيانة والدهاء ، وقد قاسى مر ظلمهم وذاق شر دهائهم ، وتربى فى حمأة من الغدر وسفك الدماء ، فنما وهو بحاجة الى الطمأنينة ، وترعرع وهو على حال من القلق الشديد على كيانه وكيان عشيرته ، فصار يقدس الوفاء بالعهد ، ويقدر وعد الصديق للصديق . وكان الغدر ونكث العهد يثير كوامن الشر فى نفسه ويهيج عوامل القسوة والبطش فى قلبه ، وقد يغفر الخان كل شيء الا الغدر والخيانة ونقض العهد والمواثيق .

وأدرك الخان بنفاذ بصيرته وتغلغلها فى أعماق قومه ماجبلوا عليه من لؤم الطبع وخبث الطوية ومادربوا عليه من الفروسية والصبر على القتال . وكان يحس بوحدانيته وقلة عشيرته وضعف قبيلته فأدرك أيضا أهمية الرجال وقيمة الشجعان وأهمية تكاتف الاشداء واجتماع القلوب ، فأصبح يقدس القوة ويحترم أشجع الفرسان وأبرع القواد وأخذ يحبب قومه فى بعضهم وينادى بسمو جنسهم على سائر البشر ، وأدخل فى روعهم رقى شعبهم على سائر الشعوب ، وأوحى اليهم أن يتآخوا فيما بينهم ، وأن يجتمعوا ضد عدوهم ، ويتآزروا ضد مخالفيهم فى الجنس واللغة والوطن ، وأن لهم حق التمتع بأموالهم ونسائهم واستقطاع أراضيهم واسترقاق أبنائهم ، فوجه بحكمته ودهائه ومضاء عزمه خبث اللؤم وبذىء طباعهم وشراستهم نحو اعدائهم ، وأدخل الالفة والاخاء فيما بينهم .

وكان عليه أن يضمن ترابط الناس وخضوعهم لحكمه ورضوخهم لرغباته فأصدر لهم الياسة الخالدة . ذلك القانون الرهيب البسيط ، الياسة الصارمة التى انتظمت بها أمور المغول ، وحكمت أحكامها امبراطورية الخطا ، وتحكمت أنظمتها فى دولة الاسلام تلك القوانين التى لايخالفها بشر ويسلم ولاينحرف عن أوامرها ونواهيها انسان وينجو . وكذلك يجب ان تكون روح القوانين فيها القول الفصل والجزاء الرادع .

واصبح المغول يحبون بعضهم بعضا ، ويتعاونون ويتكاثرون على مخالفيهم واعدائهم من مختلف الاجناس ، واستطاعوا بعزيمة الخان وقوة الجيش وصرامة الياسة أن يسودوا دولا واقطارا فاقتهم فى المدنية وسبقتهم فى الرقى ، وان لم تفقهم فى قوة الخلق ولم تسبقهم فى متانة المبادىء وثبات التقاليد فقد كان لاهل الصين مبادىء وتقاليد موروثة جبلوا على احترامها وتقديسها .

وكانت الثورة والهياج النفسى يدفعانهم الى مقاومة خصومهم والتمرد على اعدائهم ، ولكن لم تكن الالفة بينهم متمكنة ولم تكن المحبة بينهم سائدة ، بل ان مبدأ التضحية

الذي كانوا يدينون به كان رمزا لاعقيــدة ومعنى لاحقيقة . لذلك لم يلبثوا أن تفرقوا أمام المغـول الذين تربطهم علاقه الايمــان الصادق والعقيدة الاكيدة .

وكان للمسلمين في العالم الاسلامي جيوش مجيشة وفرسان مدربة ودين يدعو الى الجهاد والذود عن الحياض والصبر على البــلاء ، ومع ذلك فلم تلبث جموعهم أن تلاشت أمام جموع المغول وتفتتت قــواهم تحت ضربات أعدائهم العنيفة . فبينما كان للمغول قائد محنك يمتثلونه وبينما كان كل فرد يشــعر بالمسئولية الخاصة والعامة كما يشعر بهـا قائــد العشرة وقائد العشرة آلاف ، كانت جيوش المسلمين محتربة فيما بينهـــا ، وقوادهم تنقصهم روح التعاون والمؤازرة وان كانت لاتنقصهم الجرأة والحنكة في الحروب وقد كان المسلمون يتفقهون في الدين ولكنهم لم يعملوا بتفقههم ،وكانوا أهل حرب وقتال ولكنهم كانوا يجنحون للسلم والمســالمة ويخشون دورة الدوائر . كانت قلوبهـم شتى وبأسهم بينهم شديد وتاريخهم ينبيء عما كانوا عليه من الفرقة والاختلاف ، وتلك الصفات التي لو انتشرت بين الملائــكة لافسدتهم . الحق أنهم كانوا في حاجة الى جنكيز خان آخر ليحكمهم ويستخلص مزاياهم ويستغل كامن قواهم .

ولايظن ظان ان ليس للمغــول دين أو عقيدة دينية بل كانت لهم عقيدة في الروح وقواها اللامحدودة ، وكان زعيمهم الخان مؤمنا شديد الايمان . وكان اذا ادلهم الامر وحزبت عليه الاحوال يصعد الى الجبــل ويبتهل الى السماء ويستصرخ الروح العليا ويستنجد بقواها العاتية أن تشد أزره وتنصر جنده ، ويظل يتعبد لها ويتوسل اليها حتى يحس منها الرضا ، ثم يمضي الى ما اعتزمه وقد اطمأن الى عون السماء ورضــاها ، يمضي غير وان ولامتئد فيدفع جيوشــه الى أعدائه فيقتل ويبيد بغير حســاب . ألم ترسل له السماء أرواحها لتؤازره عنــدما دعاها « أيتها السماء أرسلي أرواحــك الى لتعاونني ، أما اعدائي على الارض فانا كفيل بهم » . دعاء بدائي بسيط وايمان جاهلي غير معقد ، وكذلك كان كل عباقرة التاريخ أشد الناس ايمانا بقدرة الله وأعظمهم ثقة بصاحب السماء .

ونظرة الى المغول نجدهم قوما تعلموا في مدرسة لاتحوطها الجــدر وتربوا في عالم التجربة اللامحدود ، فأخذوا نصــيبا من الحكمة والعلم وكثيرا من المعرفة العمليــة التجريبية . لقد تعلموا من أخطائهم وأخذوا حظهم بأيديهم ، فوضع كل امرىء نفسه فيما يليق له وفيما هو أقدر عليه وانفع فيه فنبغ منهم الفرسان والحكام والقواد ، وتوارثوا حكمة قذف أولادهم الى سفينة الحيــاة ، تارة تحملهم الى بر السلام ، وطورا تضطرب بهم في أعنف الانواء واخطار الاهــواء ، فاما الضعفاء والمتخاذلون فيذهبون جفــاء ، وأما أكفاء المكافحين وأقدر المجاهدين فيبقون فيها ولقد ظلت سيطرة حكام المغول وقوادهم على الاقاليم من شرق آسيا حتى أواســط أوربا حتى الجيل الثالث من بعــد وفاة الخان .

وما كان القوم يكتبون بل كانوا يبصرون ويتبصرون ويعقلون ويتعقلون ،كانوا يفرقون الجيد من الغث والخير من الشر ، والقوة من الضعف ، والوفاء من الغدر ، والنافع من الضار .

وما أحوج الناس الآن الى مدرســة المجتمع ودراسة الطبيعة والتفقه في اسرار الحيــاة ، وان الميول التربوية والآراء الفلسفية الحديثة لتدعو كلها الى اخــراج النشء من وراء الجدران الى معترك الحياة ... الى الحقيقة وواقع الحال .

ولقد ثبت لنا قد نقرأ غير مانلاقي في الحياة ، وقد نستذكر خلاف مانجـــده في الطبيعة من الحقائق . وقد يسأل ســـائل هل نقذف بأولادنا الى البرارى والقفار، الى الحياة الطبيعية وواقع الحــال ؟ ظنى ان رجال التربية والاجتماع قد وجدوا موضوعا قد يمعنون في نقده أو قد يسرفـــون في التنويه بحكمته ، غير أنى راض أن وفرت لهم موضوعا يشبعونه بحثا ونقدا وتفكيرا ولن ننسى ماقاله الخان في ياسته العتيدة « على كل من شب على طول البلطة أن يشترك في القتال » نعم فقد دخل في دور البلوغ وعليه أن يعتصر من الحياة أسرارها وكنهها ويهيء نفسه لخدمة الوطن والعشيرة .

ولقد تربى الخان مع الخيل ونشأ يخدمها ويسوسها فعرف سر قواها وخبر مقدرتهـا فجعلها اعدة الرئيسية لجيشــه العظيم . كانت لخيلة متانة الصخر وتحرك أرجلهـا اصابع الشياطين ، فعلى ظهورها اجتــازوا أكبر مساحات الصحراوات ومناطق الجليد وعبروا الانهار والاخاديد وصعدوا أحــد الميول الجبلية وهبطوا أشدها انحدارا . وما كانت الخيل لتتعثر في السير وما كانت تتعطل عن استكمال الرحلة طالمـــا زودت بالماء وان قل وطعمت الكلأ وان ندر . وبالنسبة لطاب الحصان وقدرته على السير والتحمل وضع المغولى استـــــــراتيجيته وتكتيكاته . وتلك دراسة عسكرية بحتـــة يجول فيها رجال الحرب ويصـــولون من بدء تكوين جيش المغول حتى أفول نجمهم . فان تحركات خيلهم ما كانت تحيد عن مناطق المراعى والاراضى الخضراء . كان الكلأ هو السمة التى تتخذها الجيوش لتطعم دابــة الحرب وعدتها . كذلك تتحرك الجيـــوش الحديثة صوب مناطق الزيت لتغذية الــــة الحرب . وكما أن البترول أمر حيـــوى للمدرعات والحملات الميكانيكية الحديثة التى هى آلة فلزية ، كان المرعى أمرا حيويـــا للخيل التى هى آلة بلازمية .. وكما تعتبر المناطق الصناعية اليوم مناطق حيوية لتزويد الجيوش بالالات الحربية ، كان قواد المغول يعتبرون المراعى مناطق حيوية لتعبئــــة جيوشهم بالخيل . ولذلك نرى المغـــول ينحدرون نحو رومانيا والمجر عندما غـزوا آوربا بعد وفاة الخان بعشرين عاما . فاذا حرمت الخيل مرعاها ذبلت وذوت بالضبط كما تحرم الآلة من الوقود .

فاذا ما تابعنا البحث مع رجال الحـــرب رأيناهم يحللون معارك الخان ويردونها الى أصول وقواعد حربية صحيحة ، فقد قــال الجنرال دوجلاس ماك ارثر الامريكى « لو محيت جميع أخبار الحروب من صـــفحات التاريخ ما عدا أخبار جنكيز خـــان لبقى لرجال الحرب كنز زاخر تســـتخرج منه أنفس المعلومات عن تعبئة الجيوش وتنظيمها وان الجندى لايستطيع أن يحـــذق الفنون الحربية بالتدريب وحده ، ومهما تغيـــرت أسلحة القتال فلابد للجندى من الرجـــوع الى الماضى ومطالعة التاريخ ليحذق المبادىء الحربية الاساسية التى لا تتغير ، ولـــن تجدها ممثـــلة خيرا من تمثيلها فى سيرة امبراطور المغول منذ سبعمائة عام . »

ذلك هو جنكيز خان عبقرى الحرب . كانت ضرباته قاتلة وهجماته كاسحة لاتخلف الا الخراب والاشلاء . وما زالت أعمـــال جنكيز خان من حيث الادارة والحكم والقيادة سرا لم يمط عنه اللثام ، ولغزا يحتاج الى كثير من الدرس والبحث والفكر العميق . ولن نستطيع بحال أن ننكر شدة مراسه وحدة ذكائه ، فهل كان ذلك الغازى الجبار يطمع فى غزو العالم والسيطرة على أطرافه ، أم كان لا يبغى غيـــر الضرب فى الارض وسوق الجنود بين الشرق والغرب ؟

كان الخان يضع خطة القتال الى أدق تفاصيلها ويتدارسها مع قواده ومرؤوسيه وكان لا يتحرك الا وقد عـــلم كل الناس واجبهم ، وكان بحق سيد الاستراتيجي • ولم ينجب العالم مثله استراتيجيا حتى الان •

ولو فحصنا كتب الحرب وقـــوانينها لوجدناها تنص على ان أول أصول الحرب هو العمل الهجومي وأخذ العدو فجاة بـكل قوة • وكذا اذا درسنا عمليات الخـــان وحروبه الاولى نجده كان مدافعا دائما ، بل أنه كان على وشك الوقوع فى أيدى عـــدوه يوما ما ، فلجا الى اتخاذ خطة الدفاع عندما كانت قواته قليلة العدد ، وكان اعداؤه هم المسيطرين على الموقف دونه ، غير أنه مـن الصحيح أيضا ان الخان كان يعمـــد الى الدفاع لفترة من الفترات يكشف فيها مدى قوة عدوه ، ويكسر من حدة هجومه فيها ، ثم يقوم بهجوم عنيف اما بقوات نشـــيطة يكون قد أعدها لذلك الموقف كما حدث فى واقعة المركبات ، أو تحمل تلك القوات على عدوها المتعب المنهك القوى وتشد عليـــه شدتها فتبيده أو ترغمه على الفرار .

وبسبب خبرة الخان بقدرة الخيل وخفة حركتها نراه عند ما اصطدم بأعدائه عنـد جبل جوبتا ، وحمى وطيس القتال عنـــده وتأرجحت كفة النصر بينه وبينهم ، سحب القائد جولدار من وسط المعركة وأمـــره ورجاله بالقيام بحركة الالتفاف الـكبرى ، حركة التوالوغما باقصى سرعة ، واحتـــلال جبل جوبتا واصلاء العدو بالنبل والسـهام من خلفه •

وكان يقاتل اعداءه حتى يصبح على وشك الهزيمة ثم يفر من امامهم ، ويســـتمر فى فراره بكل قواته حتى يطمئن العدو الى عدم عودته ، فاذا ما وصل الى مكان يستطيع فيه تغيير الخيل نزل الفرســان واسرجوا الخيل الجديدة وأطعموها وسقوها ثـــم ركبوا ركبة جامحة طائشة يفاجئون بهـــا العدو ويأخذونه على غرة •

والاسس التى جعلت للخان عبقريتـــه الحربية هى المعرفة التامة بآلة الحـــرب والادراك العميق لاسرار القتـــال والفهــــم الصحيح لطبائع البشر • وما كان الخـــان ليستسلم اذا اشتد عليه عدوه ، وما كان ليفر اذا احتدم القتال ، انما كان يصاول العدو ويصابره حتى اذا أحس انـــه لا يستطيع التغلب عليه أو عجم عوده ارتـد عنه ليعود اليه أكثر نشاطا وأكبر عـــددا وأصدق عزما ، وهكذا تميزت عمليات الخان بالمرونة والميوعة فلا يستطيع عدوه ان يقرر متى يهجم ولا من أين يأتى ، فيضـــطر للانتظار حتى يأتى المغول بفرسانه ليضربه فى عقر داره •

وأما فى عمليات الصـــين والبـــلاد الاسلامية نستطيع أن نقدر أى مرونة كان يتمتع بها عقل الغازى العظيم ، فقـد كان اعداؤه أهل حصون وحوائط لا قبل للخيل بالوثب عليها أو اجتيازها وكان لهـــم مجانيق وقذائف ودروع ، فعمد الى الخيل وخفة حركتها واستمد منها درعه وقوته ، واستمال الخونة واستعمل « السلالم » والابراج ، وأدخل فى تنظيم جيشه المجانيق وقاذفات اللهب ، وخرج من كل عملياتـــه منتصرا مؤزرا بعد أن محا البشــــر من فوق الارض ودمر القوائم وهد الصروح •

وما كانت مجازره البشرية ولا ابادتـــه المطلقة للعمائر مما يوصف بالشـــذوذ أو الوحشية • فطبيعة الحرب هى ابادة وتدمير العدو روحيا وماديا • ومن الاسس لقتـل روح العدو انزال أعظم الخســـائر بأول الاعداء ليقذف الرعب فيمن يليهـــم من المعادين • أما ابادته ماديا فبالاستيلاء عـلى ممتلكاته وتدمير منابع ثروته ومصدر قوته

فالناس والحصون والاسوار وما خلفها من أسلحة وعتاد ، كل ذلك يجب أن يباد بلا رحمة ولا هوادة والا تجمعت من جـــديد وقويت من جديد واصبحت ذات خطر عتيد ولقد كانت مجازر المغول وهم قوم وصـفوا بالبداوة والجهل منذ سبعمائة من الاعوام ، لا تحمل في معانيها قسوتهم بقدر ما تعني غناهم عما يدمرون ويخربون وعدم حاجتهم اليها • فقد كان الخان يذكر دائما قـــول حكيم القرية ((وأما المعابد والقصور فانهـا تورث وداعة الخلق وضعف العزيمة » وما كان الخان يريد لقومه وداعة الخلق ، وما كان يروم من فتوحاته أن يجلب لهم عوامل الضعف فكان يأمر بتدميرها خشية منها ورحمة بأهله أن يصيبهم منها ضعف و خور والابادة بالجملة والتدمير المطلق لايوصف في لغة القتل والقتال بالوحشية انمـــا يوصف بالتدمير الاستراتيجي • ولقد رأينا كيف عادت بعض المدن الصينية والاسلامية التي لم يعمها التدمير ولم ينعق عليهابوم الخراب الى مقاومة جيوش الخان وقتالهـا من جديد • وما لنا نحكم على أولئك البدائيين بالوحشية والقسوة مع جهالتهم وبداوتهم ولا نحكم على التدمير المطلق الذي أصاب مدن ألمانيا واليابان خلال الحرب العالميـــة الثانية نفس الحكم رغم انتشار مبـــادىء الرحمة والانسانية ، ورغم كثرة الكلام عن حقوق الانسان وجمعيات السلام والقوانين الدولية في هذه الايام •

لقد اتخذت انجلتـرا قاذفات القنابـــل وسيلة لضرب المدن الالمانية وتدميرها بـــلا تمييز بين المدن الصناعية وغير الصناعية ، ولقد عدت الى ذلك الضرب لا قســوة ولا وحشية ، انما هي طريقة الحرب وأصولها أن تدمر تلك المدن لتقتل روح الشعب المعنوية بعد تشريده وابادة القسم الاكبر من قواته ومصانعه •

وكذلك فعلت الولايات المتحدة الامريكية في هيروشيما ونجازاكي اذا ألقت عليهـــا القذائف الذرية فدمرت المدن وفتكت بالبشر ونشرت الخراب ، ومع ذلك لم توصـــف بالوحشية انما وصفت بأنها وسيلة لانهـاء الحرب ، مع أنها كادت تنتهي بدونهـا ، انما هي الحرب، الحرب في عهد المغول هي الحرب في عهد الامم المتحدة ، غرضها الاول والاخير هو ابادة البشر وتدميـــــر روح الانسان المعنوية والمادية وان اختلفت آلة الحرب ، ففي عهدهم الجـــواد والدرع والسهم ، وفي عهدنا الطائرة والـــدبابة والقذيفة الذرية • والواقع أنهما متشابهان كلاهما وحشية ، أو ترى هل هناك صـفة أخرى يمكن اطلاقها على فضيحة هيروشيما ونجازاكي ؟

وثمة عامل هام قد يغفـــــل عنه ذهـن العسكريين ولن نغوص عنه ، ذلك أن الخان لما نظم تلك الجيوش واستن لها هذه السنن لم يتركها تذهب الى الحرب لتقاتل كمـــا تشاء ، بل كان ينتخب أمور الفرســـــان ويوليهم مناصب القيادة كلا حسب كفاءته وقدرته على السيطرة والقيادة ، وكان يخرج بهم كل عام للتدريب والمران ، وهو مـــا نسميه الان المنــاورات للتدريب ولاختبــار كفاءاتهم والقياس مدى احتمالهم • وما كان يقوم بتلك التمرينات في أوقات الحرب ولا في المواسم التي يحتمل فيها هجوم العدو انما كان يقوم بتلك التمرينات في موسم الشتاء حين يدبل الانسان الى الانـــكماش والبحث عن الدفء والطعام • كان يخرج بالجيش للقنص فيدربه على السير الطويـل ويفرض عليه الخضوع المنظم وتنفيذ صارم القوانين واتباع أقسى الفروض ، ومن هنا

تنمو عادة الطاعة والولاء والخضوع للحاكم ويغرس في نفوس الجند حب النظام والتقشف والتعود على عمل الايجيبون . ثم يأمر بمطاردة الحيوان وحصره في حلقة تضيق كلما زاد التدريب ، فكانت تلك الطريقة العملية هي السبب في مرونة فرسان المغول ومهارتهم وقدرتهم على المطاردة والحصار واستكشاف مجاهل الطرق والبلاد . كان الخان يدربهم على اصطياد الحيوان فدرسوا خلقه وتخلقوا بها واستمدوا منه شراسته . ولذلك لم يكن اجندي انشاة نصيب كبير في تنظيم جيش الخان ، وليس ذلك لقلة قيمته أو لتفاهة واجبه ، ولكن لانه لابد في العمليات السريعة الحركة المانعة المرنة المواقف من الة سريعة يتحرك بها المقاتل ، فكان الفارس هو العنصر الاساسي في جيشه ، ولقد عوضت جرأة الفرسان وسرعة تحركاتهم ومرونة عملياتهم قلة عددهم وعدتهم فبمرونتهم وسرعتهم ومهارتهم وحدة بصر قائدهم استطاعوا أن يفاجئوا عدوهم وأن يحصلوا بعددهم القليل على نتائج ضخمة حتى يظن من ضخامتها ان عددهم وعدتهم لا تحصى . وكنتيجة لمرونة الفرسان وحنكة قوادهم استطاع الخان أن يفصل جبهة نهر سيحون عن نهر جيحون وبذلك حصر قوات خوارزم شاه فيها ومنع عنها المؤن والامداد ، فهد كيانها ودمر روحها قبل أن يجتز رقابها .

لقد عمل الخان على تفكيك قوات عدوه وتمزيقها في المجالين العملي والنفسي ، فهو في المجال الاول مولع بالالتفاف حول احد أجنحة عدوه ، وهو في المجال الثاني قد نجح في تشتيت عقلية خصمه بمفاجأته ومباغتته . ومع جبروت الخان وشدة بأسه لم نره يوما قدحكم على احدمن رجال عشيرته بالقتل تعسفا ولا تشفي في أي من أعدائه من المغول بالتعذيب والتمثيل ، فحتى ذاك الإمام الذي اختلى بإحدى محظيات الخان لم يأمر باعدامه أو تعذيبه انما اكتفى بطردهما من خدمته . ومع قسوته وجبروته على أعدائه من سائر الاجناس كان رحيما شفوقا على قومه . ولقد كان حريصا على كل مايفيد قومه وشعبه وأما ما عدا ذلك فليقضي عليه ، وكان يستعمل أعداءه احكم البلاد التي فتحها ما داموا موالين ومخلصين له ولمن يجيء بعده من أولاده .

وما كان الخان حاكما مستبدا مطلقا انما هو حاكم جمع بين السيطرة المطلقة وبين الديمقراطية الحقة . فكان قبل ان يصدر أوامره وقبل أن يقدم على عمل عظيم يجمع مجلس الكورلتاي ، وفيه يجتمع الحكام والامراء والنبلاء والقواد ويعرض عليهم الامر فيبدي كل رأيه بالترتيب والادب والنظام وبعد الادلاء بجميع الاراء يصدر الخان رأيه الذي كونه من خلاصة ما سمعه ومن صميم ما تفتق عنه ذهنه ، فليس هناك جدال ولا ملاحاة ولا نقض ولا محاجاة ، انما كل يدلي بما يراه صالحا للامة وما يظنه نافعا للامبراطورية ، ثم يفصل الخان بقوله الذي لا يرد .

وأخيرا فقد تعن للقارىء أفكار أعمق مما عن لي ، وقد تتراءى له اراء أحكم مما أدليت به ، غير أني آمل أن لا يكون قد تكلف الجهد في قراءة الكتاب وألا يكون قد وجد مشقة في دراسة حقائق وقائعه ، واقصى ما ارجوه هو ان يستفيد القارىء ويفيد ، ولعلي بالغ ما أريد .

رئيس التحرير
احمد حمروش

سكرتير التحرير
راجي عنايت

قيمة

فى	قرشا	قرشا
مصر	١٢٠	٦٥
السودان	١٢٠	٦٥
العراق	١٤٠	٧٥
سوريا	١٤٠	٧٥
لبنان	١٤٠	٧٥
المملكة الأردنية الهاشمية	١٤٠	٧٥
المملكة العربية السعودية	١٤٠	٧٥
الكويت	١٦٠	٨٥
عدن	١٦٠	٨٥
حضرموت	١٦٠	٨٥
اليمن	١٦٠	٨٥



المؤلف

- ولد عام ١٩٢١
- تخرج فى الكلية الحربية عام ١٩٣٩
- تخرج فى كلية أركان الحرب عام ١٩٤٨
- اشترك فى حرب فلسطين عام ٤٨ – ١٩٤٩
- نال دبلوم معهد « التحرير والترجمة والصحافة » من كلية الآداب عام ١٩٥١
- مارس الكتابة فى الصحف اليومية باسم « ثروت محمود »
- مجهوده فى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ معروف .
- عمل رئيسا لتحرير مجلة « التحرير » فى سنتها الأولى .
- عين ملحقا عسكريا بسويسرا ثم نقل ملحقا عسكريا ب
وقت اشتداد أزمة الجزائر .. ثم أزمة تأميم القنا
- استغل وقت فراغه فى باريس فتقدم لنيل درجة «
من « السوربون » .. وأوشك على مناقشة رسال
كتاب « المعارف » لابن قتيبه فى « فقه اللغة المقارن
- ترجم الى العربية :
كيف تربى طفلك من الوجهة النفسية عام ١٩٤٣
علم النفس فى خدمتك عام ١٩٤٥
العودة الى الايمان أو طريق السعادة عام ١٩٤٩
سروال القس عام ١٩٥٢
الحرب الميكانيكية عام ١٩٥٢



دار الجمهورية للطباعة